أمل

العدد : 18



التشكيلة الإجتماعية في تاريخ المغرب

ندوة الجمعية المغربية للبحث التاريخي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية . الرباط : 28.27.26 أكتوبر 1995



التاريخ - الثقافة - المجتمع

العدد الثامن عشر - السنة السادسة 1999

تصدر ثلاث مرات في السنة

- الأفكار الواردة في المواضيع تعبر عن أراء أصحابها .
- المقالات المرسلة إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

العنوان ، صندوق البريد 14910 - البريد المركزي - الدار البيضاء
هاتف - فاكس : 46-61-50

ملف الصحافة ، 8 - ص.85 - ردمد : 1113 الايداع القانوني : 48-92

محتويات العدد

التشكيلة الاجتماعية في المجتمع المغربي
في الربع الأخير من القرن 19 والربع الأول من القرن 20
مساهمة في دراسة الجذور والامتدادات . وجدة نموذجا

ذ.بدر القري *

ليس غريبا البتة أن تستشرف المؤسسة العسكرية الاستعمارية لدراسة التشكيلة الاجتماعية للمجتمع المغربي قبيل الاحتلال. فذلك مما يعضد الإدارة الفرنسية في استحصاف وثائق وجودها بالمغرب. ولكن أمرنا قد يكون مريحا إذا نحن لم نلتفت إلى طبيعة دراسة تلك التشكيلة الاجتماعية من منظور المؤسسة الاستعمارية.

وأول ما يتبادر إلى أذهاننا في محاولة سبر أغوار تلك الدراسة أن متباعدها شديد وصعب. فأن نذهب إلى أن دراسة الإدارة الفرنسية للتشكيلة الاجتماعية ليست قريبة المتناول، فلأن ضوابطها وشروطها ومقاييسها ومعاييرها ـ على الأقل على مستوى الأصول ـ مبهمة وغير واضحة ، ولكنها تلتمس في نهاية المطاف إيجاد صيغة جديدة لتفكيك المجتمع المغربي.

وهكذا وجدنا أنفسنا في نموذج مدينة وجدة أمام مناهج متنافرة وأدوات غير قارة ومفاهيم متفككة ، وهي كلها وليدة منطق وحيد أو بالأحرى اختيار وحيد في تقعيد وتأصيل التشكيلة الاجتماعية : إنه اختيار الغالب المتمدن الحر في مقابل المغلوب ، ومقولة : "الأهالي" "indigenes" من مظاهر ذلك .

فالباحث يواجه أشراطا تكاد تكون مشتركة في الدراسات العلمية الاستعمارية . والشرط الأول في دراسة التشكيلة الاجتماعية في الحضرة الوجدية في الربع الأخير من القرن 19 والربع الأول من القرن 20 ، هو وجود كيانين منفصلين :

أ) ـ كيان التشكيلة الاجتماعية في وجدة في إطار زمني محدد.

ب) ـ كيان المعالجة والتنقير والبحث وفق المنظور الاستعماري.

فلاسبيل لمكاشفة الكيان الأول إلا من خلال الكيان الثاني . وبالتالي فإن الرؤية الاستعمارية العامة والشاملة هي الكفيلة وحدها بتحديد مكونات التشكيلة الاجتماعية في مدينة وجدة.
ومقصد هذه المداخلة المتواضعة هو السمو إلى تفكيك الرؤية الاستعمارية الفرنسية للتشكيلة الاجتماعية بوجدة قبيل الاحتلال بالنظر إلى أنها احتلت في يونيو 1844 ثم في نوفمبر 1859 وأخيرا في مارس 1907 (1)، بأدلة فاضحة وشواهد واضحة ، من خلال مبحثين رئيسيين.

---

* ـ أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ وجدة .

ـ المبحث الأول : المؤسسة العسكرية الفرنسية ودراسة التشكيلة الاجتماعية بوجدة في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20

اخترت في هذا المبحث نموذجين مهمين حتى نكون أوفياء بتوضيح معالم دراسة التشكيلة الاجتماعية بوجدة على ذلك العهد في كتابات الإدارة الاستعمارية . النموذج الأول وثيقة موسومة بـ :

recensement des indigenes d'origine Algerienne et Juifs Algeriens ou d'origine Algerienne residant à Oujda . Le capitain Louis Mougin

أعدها في فبراير 1907 رئيس قسم الحدود في الجيش الفرنسي بوجدة . Le capitain Louis Mougin والنموذج الثاني هو كتاب:"oujda et l'Amalat" لمؤلفه : voinot الذي طبع بوهران سنة 1912.

أ ـ وثيقة L. MOUGIN : اضطلع Louis Mougin(1873-1955) بمسؤوليات سياسية وعسكرية جمة سهلت له مهمة المساهمة في تقعيد التشكيلة الاجتماعية لمدينة وجدة . فقد ترأس في يونيو 1902 مصلحة شؤون الأهالي ، وأنيطت به في غشت 1903 إدارة البعثة العسكرية الفرنسية بوجدة. وقد مكنته تجربته السياسية والعسكرية ومعرفته العربية بفصيحها وعاميتها من القيام بمسح عام ومتكامل لمدينة وجدة سنتي 1905و1906 ليصبح بعد احتلالها على صلة مباشرة بالجنرال Lyautey(2).

ونظام التشكيلة الاجتماعية في وجدة في الإطار الزمني الذي حددناه آنفا ، مقترن عند Mougin بالتسليم باختيار فيصل الأهالي les Indigenes. ونحن ملزمون بعد ذلك بالإطباق على ريادة تشكيلة الأهالي المسلمين من أصل جزائري في مقابل تشكيلة الأهالي المسلمين من أصل مغربي . ويجب أن تجتمع آراؤنا بعد كل ذلك على ريادة تشكيلة اليهود الجزائريين أو من أصل جزائري في مقابل تشكيلة اليهود المغاربة .

ويجب علينا لمعرفة مكنون قراءة Mougin لتشكيلة الأهالي المسلمين من أصل جزائري التنبيه على سمو معيار شرف النسب. ومن ثم كان الشرفاء القادريون في المقام الأعلى وفق المنوال التالي :

1) ـ شعبة سيدي محيي الدين القادري :الوافدة على وجدة من مدينة تلمسان سنة 1827.
2) ـ شعبة سيدي بنعبدالله القادري :الوافدة من تلمسان على وجدة سنة 1827.
3) ـ شعبة مولاي إدريس القادري : الوافدة من تلمسان على وجدة سنة 1827.
4) ـ شعبة سيدي عبد الرزاق القادري :الوافدة من تلمسان على وجدة سنة 1827.
5) ـ شعبة مولاي رشيد القادري :الوافدة من ندرومة على وجدة سنة 1837.
6) ـ شعبة مولاي علي القادري :الوافدة من عين الصفراء على وجدة سنة 1867.

أما مفضى الأمر في بقية تشكيلة الأهالي المسلمين من أصل جزائري ، فيحدده معياران : المهنة والأصل مع الالتفات إلى تاريخ النزوح والوفادة. والأمثلة الآتية توضح ذلك : *أ) ـ الخطط العلمية (الحسبة ـ أمانة المستفادات ـ القضاء ...) :

1) - آل المدجل النازحون من تلمسان سنة 1857.
2) - آل عبور " " " " 1889.
3) - آل المقري النازحون من تلمسان سنة 1839.
4) - آل مباصو " " " " 1830.
5) - آل سيناصر " " تغنيف " 1847.
6) - آل التهامي " " " " 1847.
7) - آل ابن الطيب " " " " 1847.
8) - آل ابن الطاهر " " " " 1847.
9) - آل ابن المكي " " " " 1872.
10) - آل ابن المصطفى " " " " 1872.
11) - آل دندان " " ندرومة " 1862.
12) - آل ابن الكندوز " " مستغانم " 1813.
13) - آل الدحاوي " " معسكر " 1893.
14) - آل المشرفي " " " " 1867.
15) - آل ابن زاوية " " " " 1827.
16) - آل بروكش " " " " 1837.

*ب) - المهن المختلفة (التجارة - صناعة الجلود - الفلاحة - الجمارك ...):

1) - آل ابن ديدي النازحون من معسكر سنة 1847 .
2) - آل ابن محمود " " " " 1827.
3) - آل النكروف " " " " 1892.
4) - آل الصابوني " " " " 1807 وسنة 1847.
5) - آل القرموني النازحون من تلمسان سنة 1817.
6) - آل المرزوقي " " " " 1834.
7) - آل الدبي " " " " 1837.
8) - آل دندان " " " " 1833.
9) - آل العزوني " " " " 1839.
10) - آل بودغن " " " " 1879.
11) - آل العشعاشي " " " " 1847.
12) - آل التومي " " " " 1817.
13) - آل ابن مرزوق " " " " 1827.
14) - آل السنوسي " " بني سنوس " 1875.

ونفس المفضى في تشكيلة اليهود الجزائريين أو من أصل جزائري ، ولكن الغلبة لمعيار ممارسة التجارة ثم الخطط التلمودية وفق المنوال التالي :

* أ) التجارة :

1) - آل عزيزة. 2) - آل دحان 3) - آل أدرعي. 4) - آل أزولاي

5) ـ آل أمسلم . 6) ـ آل الطبول. 7) ـ آل أحرفي. 8) آل ابن سوسان
9) ـ آل بوعزيز .

* ب) الخطط التلمودية :

1) ـ آل مخلوف ومردخاي عزيزة.) -آل تاهية وميمون عزيزة. 3) - آل أبراهام عزيزة.
وتدخل في هذا المضمار خطة مشيخة اليهود التي استحوذ عليها آل موشي أحرفي (3).

بـ كتاب L. VOINOT: عين الجنرال Lyautey الكولونيل L. Voinot سنة 1906 مسؤولا عن الحدود الجزائرية المغربية ، ثم رئيسا للمكتب العربي في مغنية (الجزائر) ثم وجدة بعد الحملة الاستعمارية الفرنسية ضد المقاومة الشعبية في بني يزناسن. وقد أقام Voinot بوجدة لمدة تسع سنوات ، وقد أثمرت هذه الإقامة تأليف كتاب:"Oujda et L'amalat" (4).
وأما عن خوض Voinot في موضوع التشكيلة الاجتماعية بمدينة وجدة في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20 ، فإننا لانلاحظ استدامة كاملة على معايير L. MOUGIN. فهو يفحص التشكيلة الاجتماعية في أول الأمر من خلال الحيز المكاني ، لافتا أنظارنا إلى أن قصبة وجدة معلمة سياسية واقتصادية ، يقيم بها فقط العامل والمخزن وكبار التجار الفاسيين . أما الأحياء الأخرى فيعسر فيها التمييز بين مكونات التشكيلة الاجتماعية وهي كالتالي :

حي أشقفان/ حي أهل وجدة / حي أولاد عمران / حي أهل اللجامن / حي أولاد الكاضي / حي أولاد عيسى .

وأخيرا الملاح ولكنه يختص عن الملاح في باقي المدن المغربية بأنه مفتوح على أحياء أهل وجدة ، أولاد عمران، أهل اللجامن ، وأولاد عيسى(5).وتتفاوت درجات هذا الحيز المكاني من حيث الكثافة السكانية ولذلك صنف Voinot تلك الأحياء حسب إحصائيات العشرية الأولى من هذا القرن وفق هذا الترتيب :

حي أولاد عمران وأشقفان / حي أولاد الكاضي / حي أولاد عيسى وأهل وجدة
حي القصبة / حي الملاح(6).

ولكن Voinot أردف حديثه عن الحيز المكاني بإثارة مقياس الفرق fractions مقتفيا في ذلك أثر l.mougin.ولايفوت Voinot التذكير بأن الأداة الساطعة غير المانعة التي تخول البحث في التشكيلة الاجتماعية لمدينة وجدة هي أداة التجزيء. وعندما يبرر Voinot اختيار هذا المقياس ، فإن مبرراته تبدو مبهمة إن لم نقل واهية. فهو من جهة يدعي أن عدم معرفة أصول التشكيلة الاجتماعية بوجدة هو الحافز ، ولكنه يقرر من جهة أخرى حداثة وفادتها على مدينة وجدة. ولايجوز على ضوء ماسبق دراسة التشكيلة الاجتماعية إلا بتجزيء كل مجموعة على حدة ، وفق الطريقة التالية :

المسلمون المغاربة / المسلمون الجزائريون / اليهود (7).

1ـ المسلمون المغاربة : وهم النواة الرئيسية للتشكيلة العامة. وتتألف هذه المجموعة من ست فرق: أولاد عمران ـ أشقفان ـ أهل وجدة ـ أولاد الكاضي ـ أهل اللجامن ـ أولاد عيسى الذين يضاف إليهم أهل فاس .

* أولاد عمران : تنقسم هذه الفرقة إلى : الشقارنة وهم الشرفاء القادمون من قصر الوداغير بفكيك أو ندرومة، وأولاد مولاي العباس وهم الشرفاء القادمون من تلمسان أو عين الحوت ، وأولاد الغازي القادمين من تافيلالت أو بني يزناسن ، وأخيرا التلمسانيين
* أشقفان :وجذورها متنوعة مثل : بني سنوس ، تلمسان ، شرفاء تافيلالت ، بني منقوش ، بني خالد ، فكيك وغيرها.
* أهل وجدة : تنقسم هذه الفرقة إلى : الباقية وهم أولاد مني وأولاد المول وأولاد محمد بن العربي . ويرجح Voinot أن هذه الفرقة تمثل ديمومة ساكنة مدينة وجدة قبل الفتح الإسلامي(8).

أما المكون الثاني لأهل وجدة فهم الكواردة المنحدرين من المسيردة وبني سنوس وبني بوسعيد بالجزائر.

* أولاد الكاضي : وهم عرب وأمازيغ ، ويجمعهم أولاد يعقوب القادمين من الحياينة ، وأولاد بوعزة بلحاج النازحين من بني منقوش ، والشراردة الوافدين من بني بوسعيد ، وأهل زاوية الميرة الوافدين على وجدة من الغزوات بالجزائر.
* هل اللجامن : تنقسم هذه الفرقة إلى أولاد بوكايس النازحين من الجنوب الوهراني وأولاد الحاج القادمين من بني خالد (بني يزناسن) ، وأولاد شامة الوافدين من تلمسان ، وأولاد الفيلالي من تافيلالت .
* أولاد عيسى : وتنقسم هذه الفرقة إلى مجموعتين مهمتين :

أولاد المير وأصلهم من بني ميمون وهم فخد من قبيلة بني منقوش ببني يزناسن وأولاد عيسى وفي مقدمتهم الأسر التلمسانية وأولاد العربي ، وتلحق بأولاد عيسى العائلات الفاسية .

2 ـ المسلمون الجزائريون : يذكر Voinot من خصائص هذا المكون الاجتماعي ، أن لهم جماعة خاصة وأنهم المنافسون الحقيقيون لأهل فاس . وقد اشتهروا باسم المهاجرين وأغلبيتهم من أهل تلمسان ومعسكر(9).

3ـ اليهود : أقامت أعرق الأسر اليهودية بمدينة وجدة في القرن 14م أو القرن 12م. وقد ميز Voinot بين طائفتين : طائفة اليهود الأمازيغيين وطائفة الأمازيغيين المتهودين أما فرقها مجتمعة فهي كالتالي :

ـ أولاد بن سمون / أولاد أحرفي / أولاد عزيزة القادمين من بني سنوس (الجزائر)، وبني يزناسن وتافيلالت / أولاد الطبول القادمين من تافيلالت والقنادسة / أولاد بن حمو القادمين من بني سنوس / أولاد أزولاي القادمين من بني سنوس / أولاد أبادية القادمين من بني سنوس / أولاد بن أديبة / أولاد بن عروس النازحين من القنادسة / أولاد أمولاي النازحين من تلمسان سنة 1860 / أولاد بن غزي القادمين من ندرومة أو تلمسان أولاد غربيط / أولاد بن سماحون / أولاد بوعزيز النازحين من بني يزناسن / أولاد بن الدرعي القادمين من الظهرة حوالي 1812 / أولاد أمسلم النازحين من الصحراء حوالي 1812 / أولاد بن كيكي القادمين من دبدو حوالي 1862 / أولاد بن سوسان النازحين من دبدو

حوالي 1880 / أولاد بن ديان الوافدين من الريف حوالي 1896 / أولاد المليحة القادمين من مراكش(10).
ويحرص Voinot على درك التشكيلة الاجتماعية بوجدة بالإشارة إلى الإجماع الذي يفوز به نسب الشرف في أولويات الدور الاجتماعي والسياسي لمدينة وجدة مميزا في آن واحد بين : الشرفاء المقيمين بوجدة قبل السيطرة التركية من أمثال : أولاد بلكايد ـ أولاد عبد الوهاب ـ أولاد سيدي يوسف ـ أولاد بن عزة أولاد بوزيد ـ أولاد المير ـ الشقارنة ـ أولاد بويعقوب ـ أولاد المهدي ـ أولاد مولاي العباس ـ أولاد بن عطا والبلاعشة. والشرفاء المقيمين بوجدة بعد السيطرة التركية من أمثال : الشرفاء القادريين القادمين من بغداد مرورا بندرومة ، أو القادمين من تلمسان ـ أولاد سيدي أحمد بن علي من معسكر ـ أولاد سيدي بنيخلف من معسكر ـ أولاد سيدي عبد الراجي من قسنطينة ـ أولاد سيدي عبد الله من عين الحوت قرب تلمسان والمشارفة من معسكر(11).
ويتطلع Voinot أيضا إلى تفكيك التشكيلة الاجتماعية بوجدة في أواخر القرن 19 وبداية القرن 20 من خلال بعض الامتدادات التي تكون النفوذ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي. ولاغرابة لأن يتنامى مثلا النفوذ السياسي للشيخ علي ولد رمضان حوالي 1860 لدرجة أن السلطة المخزنية المحلية أصبحت ملزمة بالرضوخ له. ومن أشهر الأسر التي كونت نفوذا ملحوظا في الربع الأخير من القرن 19 والربع الأول من القرن 20:

أولاد مزيان في أولاد عمران. أولاد المول في أولاد عمران
أولاد برياح في أولاد عيسى. أسرة الدكي في أولاد عيسى
أسرة القاضي محمد بن الطيب في أهل اللجامن.
أولاد كركور في أولاد الكاضي. أولاد بوكايس في أولاد الكاضي

أما الأسر المهاجرة النافذة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعلميا فمن أشهرها :
أسرة سيناصر / أسرة الصابوني / أسرة المقري / أسرة الخطيب ابن مرزوق / أسرة الخوجة الوالي / أسرة المير علي / أسرة التهامي . آل سيدي عبد القادر الجيلاني بفروعها الثلاثة: أولاد مولاي رشيد ـ أولاد مولاي عبد القادر وأولاد مولاي علي (12).

2 ـ المبحث الثاني : الامتدادات المنهاجية

يمكن القول بأن البحث في التشكيلة الاجتماعية عند mougin و voinot ليس انعكاسا لقوانين أو قواعد ثابتة ، ولكنه انعكاس لمعايير متحولة هي في مجملها ديباجة مشروع استعماري خطير . فلا غرابة أن تكون تصورات الأهالي وغير الأهالي ، أو المسلمين الجزائريين والمسلمين المغربة، أو اليهود الجزائريين واليهود المغاربة قناة تفضي إلى التصنيف التالي :
1 ـ غير المغاربة :الفرنسيون / الجزائريون المسلمون / الفرنسيون المسلمون / اليهود الفرنسيون / الأجانب .
2 ـ المغاربة : المسلمون / اليهود المغاربة .

ولا عجب أن يكون هذا التصنيف توطئة لقانون الجنسية الفرنسية الصادر سنة 1947، الذي اعتبر الجنسية الفرنسية فيصلا في حمل الهوية الحضارية للوطن الأم ، وعاملا لتفكيك المجموعات العرقية في المستعمرات .

لقد كان هذا التصور حاضرا منذ احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 ، على أخذ المواقع المتقدمة في المجتمع الوجدي. وهاهي الجالية اليهودية الفرنسية بوجدة ترتبط إداريا بمفوضية فرنسا منذ 1880 وترفض مقترح عامل وجدة علي بن محمد الكيدري لتعيين اليهودي المغربي عمران بن سانو على المشيخة اليهودية في دجنبر 1880 (13).

وقد انتهت الأستاذة yvette katan في أطروحتها الجامعية الموسومة ب :
« oujda une ville frontiere : 1907 - 1956 » إلى أنه إذا كانت الألفة الاجتماعية La Sociabilité تعني قابلية التعايش مع المثيل والنظير (14) ، فإن تحليل التشكيلة الاجتماعية في وجدة في المرحلة الاستعمارية يسقط مثلا المقياس العرقي في التعمير ولكن منطق التجزيء العرقي الاجتماعي وقد ترجمه إلى ممارسة في ميدان التعليم loth مدير التعليم بالمغرب ، يصعب اتخاذه شجرة تخفي غابة المخاوف : المستعمر والمستعمر(15).

- نسبة مختلف المجموعات العرقية في وجدة بين 1918 و 1931:

Y. KATAN / P / 141.

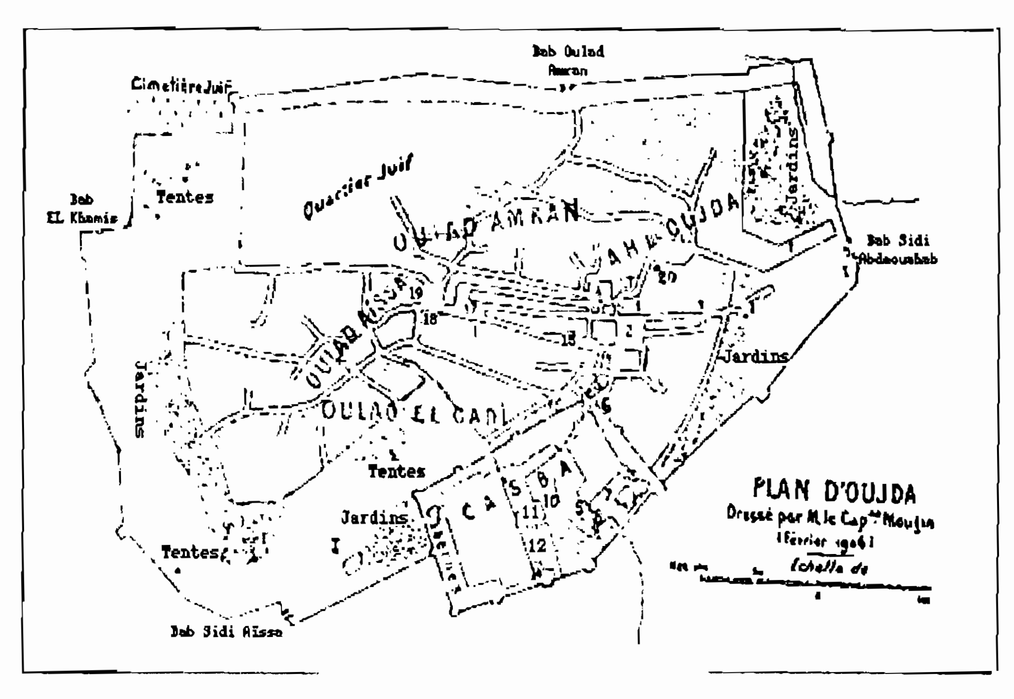
	1918 Total	%	1926 Total	%	1931 Total	%
Musulmans Marocains	12 000	66,11	9751	48,8	13164	44,7
Musulmans Algériens(F.M.A.)	?	?	2471	12,38	3338	11,3
Total Musulmans	?	?	12222	61,18	16502	56,0
Israélites Marocains	2 000	11,0	1 445	7,25	1890	6,4
Français Citoyens + Européens	4 150 (*)	22,8	6 309	31,6	11 045	37,5
Total population	18 150	100	19 976	100	29 437	100

***) - y compris les F.M.A. (Français musulmans d'Algérie).**

الهـــــوامـش :

1) - « Les Trois occupations D'oujda par L'Armee Françaice » / JACQUES FREMEAU / Revue Maroc - Europe / n° 5 / 1993 / p : 41
2) - « MOUGIN A Oujda » / JEAN - LOUIS MIEGE / Revue Maroc - Europe / n° 5 / 1993 /
3) - « RECENSEMENT DES INDIGENES... » L. MOUGIN / P / 3 - 11.
4) - « OUJDA ET L'AMALAT » / L. VOINOT / Imprimerie Typographique L. Fouque
5) - Voinot, P, 31.
6) - Id : p 3.
7) - Id : p 34.
8) - Id : p 35.
9) - Id : p 36 - 37.
10) - id : p 37 - 38 - 39
11) - id : p 39 - 40 - 41 - 42.
12) - id : p 42 - 43 - 44 - 45 - 46.
13) - « Histoire D'oujda dans la 2e Moitié du XIXe siècle » / JEAN LOUIS MIEGE / Revue Maroc - Europe / n° 5 / 1993 / p : 18.
14) - « Oujda , une ville frontière: 1907 - 1956 » / YVETTE KATAN / 2e ed / Editions la Porte / Rabat / 1993 / p : 57 - 58.

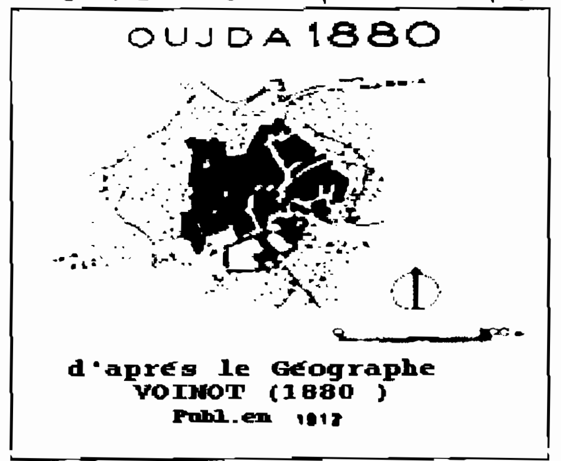
الشكل رقم : 1 – تصميم لمدينة وجدة سنة 1906(من إنجاز MOUGIN)



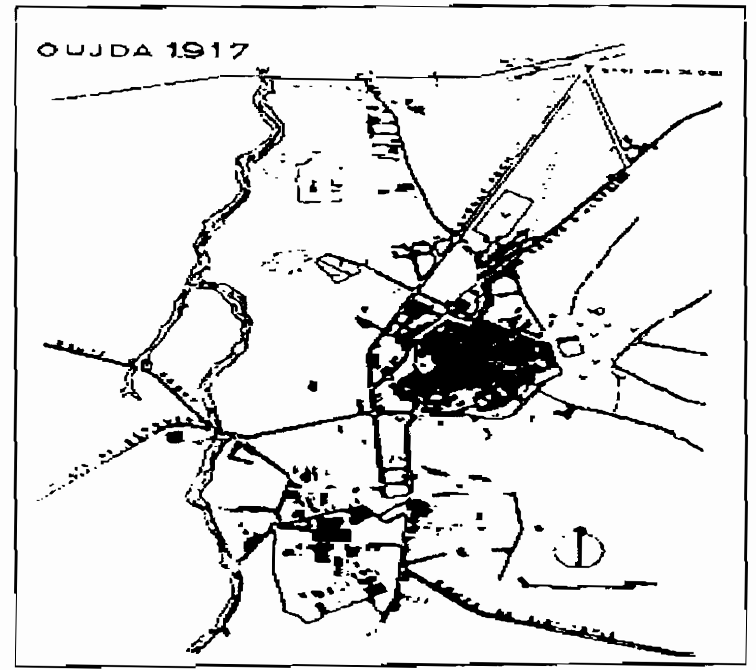
Y. KATAN, P 60 : المصدر

1-Foundouk , 2- Place du marché , 3 – Foundouk (autres mouvements)
4 – Caserne (Makhaznia) , 5 –Grande Mosquée , 6 – Bains maures , 7 – Section
Lionbers , 8 – Prison , 9 – Dar El Makhzen , 10 – Amel , 11 – Salle d'audiences , 12 – Munitions , 13 – Casernes , 14 - Artilleures , 15 – Douane , 16 – Marché aux légumes , 17 – Marché aux céréales , 18 – Mosquée , 19 - , 20 – Mosquée Addoda

الشكل رقم : 2 – تصميم مدينة وجدة من إنجاز VOINOT (1880)



الشكل رقم : 3 – تصميم لمدينة وجدة سنة 1917



المصدر : Y. KATAN, P 176

الشكل رقم : 4 – تطور سكان مدينة وجدة بين 1910 و 1926

	Date	1910		1918		1926
	Population totale	6829		18150		19976
	Croissance en %		**165**		**10,06**	
MAROCAINS	Musulmans	3899		12000		9751
	Croissance en %		**207**		**-18,7**	
	Israélites	1190		2000		1445
	Croissance en %		**68**		**-27,75**	
	Total Marocains	**5084**		**14000**		**11196**
	Croissance en %		**175**		**-20**	
NON MAROCAINS	Français Musulmans	1377				2471
	Croissance en %			**79,4**		
	Français et autres	363		4150		6309
	Croissance en %		**588**		**52**	
	Total non Marocains	**1740**		**4150**		**8770**

المصدر : Y. KATAN: P,138

التشكيلة الاجتماعية في بادية الواجهة الأطلنطية المغربية مابين 1459 - 1541م من خلال المصادر البرتغالية

ذة.حليمة بنكرعي*

مقدمة :

التشكيلة الاجتماعية في الفترة المحددة أعلاه ، لها طابع قبلي مستقلا سياسيا واقتصاديا عن السلطة المركزية ، وتميز النصوص (1) داخل هذا المجتمع القبلي بين القبيلة البربرية Barbaros (2) والقبيلة الأعرابية :Alarues (3) ، من حيث نمط العيش ونوعية السكن. وتضم كلا من القبيلتين هرما اجتماعيا يميز بين " الكافة والعامة"(4) يحتل داخله المسنون قمة السلم الاجتماعي متبوعين بالكهول فالصبيان . ونود أن نشير إلى أن مادة هذا العمل لم تتعد ما تمكنا من استنباطه من النصوص التي مكنتنا من تقسيم هذا العمل إلى قسمين :

ا ـ **القسم الأول** :سيحاول ضبط معنى القبيلة وأنواعها وطريقة تكوينها ومنظورها للمجال الذي تنتشر به.

اا ـ **القسم الثاني** : يلقي بعض الأضواء على تنظيم القبيلة من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

I - القبيلة : محاولة ضبط مفهومها وأنواعها وكيفية تكوينها ومنظورها للمجال الذي تنتشر به :

أ - مفهوم مصطلح قبيلة في عهدنا هذا : من خلال نظرة شمولية للقبيلة في بادية الواجهة الأطلنطية في الفترة المحددة أعلاه ، الملاحظ أن القبيلة تظهر على أنها مجمع من دواوير أو قرى أو دشور أو مجمع دواوير وقرى ولم نعثر على قبيلة تجمع بين دواوير ودشور. وتأتيها أهميتها مما تملك من دواوير وقرى ودشور ، ومن ثم من فرسان ومشاة ، ومن مدى أهمية فرضها لهيمنتها الاقتصادية خاصة على مجالها الجغرافي ، مثلا قبيلة الشاوية Enscouvia تعتبر في عهدنا هذا أعظم قبائل المغرب (5) ، ويأتيها ذلك لامتلاكها أزيد من 500 ألف فارس وعدد لا يحصى من المشاة(6) والكل مجهز أحسن تجهيز ، إضافة إلى عدد لايحصى من القرى والدواوير(7) ، تتبعها قبيلة الشرقية Xerquia التي كانت تضم ستة قبائل وهي :

* أستاذة باحثة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ القنيطرة .

* **أولاد عمران السهل وهي أهمهم** : Vleidambram Lithali وتتوفر على 1500 فارس و30 000 من المشاة و50دوار.
* **أولاد عمران الجبل أو اسكون** : Oledambram discani وعددهم ألف فارس وعشرون ألف من المشاة ومائة دوار.
* **أولاد يعقوب** : Vlei daquo وعددهم ثمانمائة فارس وألف وخمسمائة من المشاة وثمانون دوارا.
* **أولاد سبيتة** : Zubetos وتضم ستمائة فارس ، وعشرة آلاف من المشاة ، وستون دوارا.
* **أولاد بوعزيز** : Vleidebuazis وعددهم سبعمائة فارس ، وخمسة عشر ألفا من المشاة وسبعين دوارا .
* **أولاد فرج** : vledefarax وتضم القبيلة أربعمائة فارس وخمسة آلاف من المشاة وثلاثون دوارا(8) ومن تم يكون عدد فرسان قبيلة الشرقية : 000 50 فارس ، وعدد مشاتها 000 70 ، وعدد دواويرها 290 دوارا ، وفي المرتبة الثالثة تأتي قبائل عبدة وغربية Abida e Garabia الدكاليتين واللتان تضمان 4000 فارس و000 40 من المشاة و200 دوار (9).

كما كانت قبيلة الشاوية تستقر بأغنى منطقة اقتصادية واستراتيجية في عهدنا هذا وهي منطقة تامسنا :Temeçena (10) .وتتجلى لنا أهمية المنطقة الاقتصادية بتركيزنا على المستوى المعاشي لسكانها إذ خلال هجوم برتغالي خاطف على المنطقة تم الاستيلاء على عدد كبير من البرانس والمرلوطات الحريرية ، والأجواخ الرقيقة الفاخرة وكثيرا من الأقمصة الزرزغانية :Zarzagania أي المصنوعة من الحرير الأحمر الدقيق الصنع ، والذي كان في مجتمع ذلك الوقت رمز الأناقة ، ومن أرقى مظاهرها ، إضافة إلى أواني الشاي الفضية، والنقوذ الذهبية والفضية وعددا من الخيل الباهضة الثمن وركابها الفضية (11).

أما الأهمية الاستراتيجية ، فقد كان المجال الجغرافي لقبائل الشاوية ذا أهمية قصوى خاصة بالنسبة للبرتغال باعتبار أن القبائل الرافضة الخضوع له كانت تلجأ إلى مجال قبائل الشاوية ، ومن تم عمل البرتغال على تشييد قنطرة تربط بين قبائل أزمور وبين قبائل تامسنا قصد ضمان الهدوء والاستقرار بالمنطقة . ومقارنة أهمية المجال الجغرافي للشاوية مع المجالات الجغرافية الأخرى يمكن من القول بأن أهمية المجال موازية لأهمية القبيلة فهناك شبه علاقة جدلية بين الطرفين إن أمكن القول .

ومكانة قبيلة الشاوية السالفة الذكر كانت تجعل السلطة المغربية بفاس ، ومثيلتها البرتغالية بالموانيء يتنافسان من أجل استمالتهم أو محاولة السيطرة عليهم. واعتبارا لذلك كذلك كانت قبيلة الشاوية تفرض سيطرتها على القبائل المجاورة مرغمة إياها على دفع الإتاوات ، إضافة إلى أنها كانت تحمي القبائل الفارة من بأس سلطة فاس أو سلطة البرتغال.

وعن هيكل القبيلة نستنبط من النصوص أن القبيلة الأم هي الشجرة ، ولهذه الأخيرة فروع لايحملون نفس إسمها ، مثلا قبيلة الشاوية تنتمي لشجرة هوارة ، والشاوية فرع منها رغم أنها لاتحمل نفس إسم هوارة ، وتنضوي تحتها كل الفروع الأخرى المنتمية لشجرة هوارة ، والتأطير والتسيير أو بكلمة أخرى الرئاسة تعطي للقبيلة الأقوى شوكة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا كما هو الشأن هنا بالنسبة لقبيلة الشاوية ، وفي هذه الحالة تكون القبيلة مرتبطة مع بعضها برباط الدم . وإضافة لهذه الرابطة هناك قبائل يجمع بينها المجال الجغرافي فقط مثلا مجال دكالة كان موطنا "للعربان والمصامدة"(12) أي للعرب والبربر.

إذن من خلال مارأيناه أعلاه ، القبيلة هي مجمع لدواوير وقرى ودشور تجمع بينها روابط الدم أو المجال الجغرافي ، وتأتيها قوتها مما تملك من فرسان ومشاة ، وما تملك من دواوير وقرى ودشور، ومن أهمية مجالها الجغرافي من الناحيتين : الاقتصادية والسياسية .

ب ـ أنواع القبيلة ببادية الواجهة الأطلنطية : تشير النصوص بهذه المنطقة إلى قبيلتين تميز بينهما بنمط العيش والسكن والشجاعة ، وهما البربر Barbaros والأعراب:Alarues.

بالنسبة للقبيلة البربرية تتحدث النصوص قبل الفترة المحددة في هذا العمل (13) عنهم وتقول بأنهم يعمرون على السواء البسائط والجبال ، بيوتهم إما من الحجارة والطين أو من الشعر والوبر والشجر والخوص، وهم فئتان ، فئة من السادة يتعاطون للرعي من بقر وغنم وخيل وإبل ، وأخرى مستضعفة تتعاطى للفلاحة ، كما تشير إلى وجود عداوة بينهم وبين الأعراب . أما في عهدنا هذا فتشير النصوص البرتغالية منها والمغربية إلى استقرارهم بالجبال فقط وبتحصنهم بقرى تحيط بها الأسوار وكذا بقصبات(14)، وإلى كون الأعراب أشد قوة منهم لكن لا إلى وجود عداوة بين القبيلتين ، بل تتحدث عن تحالف بين القبيلتين في حالة تعرض المجال الإسلامي إلى تدخل أجنبي غير مسلم كما حدث لما احتل البرتغال مدينة أسفي ، إذ تبعه حصار القبائل العربية والبربرية معا لها يوم 13 دجنبر 1510م، إذ يتحدث المؤرخ البرتغالي كويش مثلا في هذا الحصار عن القبائل التالية :

* القبائل البربرية المنتشرة في المجال الواقع مابين أزمور والمدينة: aos Barbaros que ha Azamour atte Almedina.
* البرابرة والعرب المنتشرون في المجال الواقع مابين الكستيلوريال وأكوز hos Barbaros e Arabios de Castelo Real atte Aguz(15).

وهذه القبائل البربرية تتكلم العربية بل وتكتبها . ولم نعثر في عهدنا هذا على قبائل بربرية تتعاطى للرعي دون سواه أو للزراعة فقط ، بل ما تحدثت عنه النصوص هو وجود قبائل بربرية مستقرة تتعاطى للزراعة والرعي معا وكذا للتجارة .

ـ وأما القبيلة العربية فالملاحظ أنها في أغلبها مستقرة بالسهول وتتخذ كسكن الخيام مع وجود قرى ضخمة تشيد ضواحي الحواضر مثل أسفي وأزمور والمدينة أو على ضفاف الأنهار الكبرى مثل نهر أم الربيع وتتعاطى لتربية الماشية والزراعة وأغلبها إن لم نقل كلها من الرحل.

ج ـ **تكوين القبيلة** : بالنسبة للقبيلة البربرية ، الملاحظ أن القبيلة مرتبطة ببعضها بروابط الدم المنحصر في الانتماء إلى نفس البطن ، وتجتمع مع بعضها في مجال جغرافي واحد : مثلا : قبيلة آيت ماسة تضم قبائل بربرية وفدت إلى مجالها الممتد من واد أولغاس إلى حدود منطقة شتوكة من جهات مختلفة وكونت قبيلة آيت ماسة ، قبيلة إداوتنان كذلك تجمع بين قبائل ثلاثة هم : قبيلة واعزون ، وقبيلة تانكرت وقبيلة إفسفاسن، فرغم عدم توصلنا ـ في مستوى بحثنا الحاضر ـ إلى معرفة بطون القبائل الثلاثة فلانستبعد وجود روابط دم بينهم وبين القبيلة الرئيسية التي تكون هي صاحبة المجال ، وهي الأقوى وتكون فيها الرئاسة والتأطير والمبادرة والتوجيه ، فتكون إذن القبيلة الرئيسية في المثلين اللذان قدمنا أعلاه هي قبيلة ماسة وقبيلة إداوتنان .

والملاحظ أيضا أن اسم القبيلة البربرية في هذه الناحية يكون إما مسبوقا بإدا أو بإد،ويقول المختصون(16) أن الإسم المتبوع بإدا يكون له مدلول طبيعي وبشري مثلا إداوتنان فهي تجمع مابين اسم القبيلة واسم المجال الجغرافي الذي تستقر به ، أما إذا كان الإسم البربري متبوعا بإد فهذا يجرده من المدلول الجغرافي ، مثلا إد حسين فهذا الاسم يعني القبيلة فقط ، دون مجالها الجغرافي ، ولابد هنا من البحث لمعرفة السبب ، فهل هو راجع إلى عدم انتماء القبيلة للمجال الجغرافي الذي تستقر به ، فتكون بذلك قبيلة دخيلة على قبيلة أخرى صاحبة المجال أم هناك سبب آخر.

ـ أما القبيلة العربية : فالملاحظ أن تكوينها أكثر تعقيدا فهي في الغالب بربرية وعربية ، البربر يحتلون المرتفعات والأعراب المناطق المنخفضة، أو أنها بربرية الأصل وتعربت فنست كما يقول ابن خلدون رطانة البربر واستبدلتها بفصاحة العرب ، وهو أمر ينطبق على قبيلة الشاوية .

د ـ **المجال الجغرافي للقبيلة** : الملاحظ في هذا الإطار أن المجال الجغرافي لكل قبيلة كان محددا ومعروفا ، وتعترف به القبائل الأخرى وتحترمه . وهذا لايعني عدم وجود علاقات بين المجالات القبلية الأخرى خاصة منها تجارية وتضامنية إن تعرض هذا المجال لهجوم ما من طرف البرتغال أو غيرهم . ويأخذ هذا المجال اسم القبيلة التي تستوطنه في المنطقة الشمالية ، ولكن ليس ذلك هو القاعدة بالنسبة لقبائل البادية الجنوبية مثلا : قبيلة الشاوية مجالها الجغرافي هو تامسنا ، ودكالة هي مقر قبائل متعددة مثل غربية وعبدة ، وبني ماجر ومشنزاية وغيرهم من القبائل الأعرابية والبربرية . كما أن القبيلة في المنطقة الشمالية كانت أكثر ارتباطا بهذا المجال الجغرافي فقلما تغادره إلا إذا أجبرت على فعل ذلك ، أما في الجنوب فالقبيلة كثيرا ما تغادر هذا المجال تحت وطئة الظروف الطبيعية (جفاف) أو سياسية (هجوم برتغالي أو هجوم مخازنية سلطان فاس). فالقبيلة في الجنوب كانت تتحرك كثيرا الشيء الذي كان يربك السلطات البرتغالية إلى حد أن أحد المسؤولين البرتغال عندما تحدث عن قبائل دكالة قال :"لايمكن هزمهم باعتبار أنهم يتنقلون". ولكن رغم ذلك لابد وأن ننتبه إلى شيء مهم جدا وهو أن مجال القبيلة الجغرافي يبقى ملكها ولو غادرته سنين طويلة، ولها حق العودة إليه متى أرادت ذلك،كما يبقى هذا المجال حاملا لاسمها . وهذا المجال الجغرافي كان يساعدها على ضبط إسمها وتمييزه عن

فصائلها الأخرى ، فيحدد المجال الجغرافي في هذه الحالة تحديدا دقيقا بإضافة موقعه الجغرافي المضبوط ، مثلا قبائل الشرقية التي هي أهم قبائل أحواز أزمور أخذت هذا الاسم نسبة إلى موقعها الجغرافي وهو الشرق(17) كما أن فصائلها الأخرى تميزت عن بعضها البعض بسبب موقعها الجغرافي : فهناك : أولاد عمران السهل : Vleidambram Lithali(18) وأولاد عمران الجبل أو الأسكون :Oledambram Discani(19).

والملاحظ كذلك أن فروع القبيلة لايمكن أن تكون بالضرورة مستقرة في نفس المجال الجغرافي ، وهي ظاهرة لاحظناها في الجنوب ولم نجد لها مثلا في الشمال . وفي هذه الحالة يكون الفرع المستقر خارج المجال الرئيسي للقبيلة أقل قوة،مثلا : الفرع الثالث لقبيلة الشرقية: Xerquia (20) المتمثل في أولاد سبيتة :Zubetos كان جزءا منهم مستقرا حول مدينة أزمور وفرع آخر بغربية إحدى قبائل دكالة ويطلق عليهم إسم أولاد عمور Amor. نفس الشيء بالنسبة لقبيلة الشياظمة البربرية الأصل ، فهي تتقسم إلى فرعين : فرع مستقر ضواحي أزمور ، وفرع ثان على الضفة اليسرى لنهر تانسيفت . وما يلاحظ في هذه الحالة هو أن القبيلة المجزئة المجال الجغرافي غالبا ما تكون قد هاجرت مواطنها الأصلية واستقرت حديثا بالمنطقة ، وفي هذه الحالة تفقد عصبيتها ، ومن ثم قوتها الجغرافية والبشرية ، فما لاحظناه في هذا الإطار هو أن القبائل المذكورة كلها قبائل ضعيفة المجال الجغرافي وضعيفة من الناحية البشريةكذلك .

وتعتز القبيلة وتفتخر بمجالها الجغرافي ، فقبيلة عبدة مثلا كانت تعتبر نفسها صاحبة الأمر والنهي في مجالها لأن "عمارة أسفي من العربان قبيلة عبدة دون غيرهم "(20).

II - تنظيم القبيلة ، ونضمه :

- أ - نظام الأحلاف.
- ب - الفئات الاجتماعية .
- ج - الجانب التشريعي .
- د - التنظيم الاقتصادي .
- هـ - التنظيم السياسي .

أ - بالنسبة لنظام الأحلاف : فبالنسبة للقبيلة العربية كانت تعتبر أنها مع حليفتها :"عظم واحد وقبيلة واحدة ، ولف واحد ، وحال واحد ، عدوهم واحد ، وصديقهم واحد"(21) وهناك شكلا من الأحلاف يثير الانتباه ، وهو السائد بقبائل المدينة وتيط ، فالقبائل التي تقطن الدواوير تأتي لتنصب خيامها حول القرية أو المدينة لتحتمي بها وتقوم بأعمال الحرث والزرع ، وإذا ما هوجمت تدافع عنها القرية أو المدينة التي تستقر القبيلة حولها مثلا قبائل أحواز المدينة وتيط .

ب - أما الفئات الاجتماعية : فالملاحظ أن القبيلة تتكون من فئات تذكرها المصادر حسب مكانتها الاجتماعية ، وتضع "الكافة" في قمة المجتمع القبلي متبوعين "بالعامة" وتصنف حسب هرم الأعمار إلى شيوخ وكهول وصبيان ، ويلعب هؤلاء العامة دور تعزيز سلطة

ممثليهم خاصة شيوخ القبيلة أمام الرأي الخارجي خاصة منه البرتغالي ، فهو يستمد منها حظوته ، ومصداقيته في عقد وحل الاتفاقات بين الطرفين .

ج - مايتعلق بالجانب التشريعي : القوانين التي تنظم الحياة العامة للقبيلة تأخذ مبادئها من الشريعة الإسلامية ومن العرف القبلي مثل مانقرؤه في تعليمات يحيى بن محمد أوتعفوفت(23) : " من قدر عليه قتل أخ مسلم ماسبق في محكم التنزيل وما جاءت به السنة عن سيد البشر ... فإن كان القتل قتل عمد يحكم فيه بما قال الله تبارك النفس بالنفس والعين بالعين والجروح قصاص وقال تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما فمن فعل يستحق بها العقوبة . فيحكم عليه بقول الله تعالى وسنة النبي .

... ومن هرب بالمحصنة يؤكل ماله ، ويحرق بيته وينفى من بلده ومن حكم السلطان وتؤخذ دية المرأة من ماله وإن وجد قتل وليس على من قتله دية أو حبس "(24).

د - الخصائص الاقتصادية : في هذا الإطار لابد من الإشارة إلى التنقلات الكبرى للقبائل والتي من شأنها أن تؤثر سلبيا على الحياة الاقتصادية ، مثلا إذا حاولنا تتبع تحركات قبائل عبدة وغربية فنجد أن مصدرا مؤرخا سنة 1515(25) يذكرهم مستقرين جنوب نهر تانسفت ، ومصدرا آخر مؤرخا سنة 1516م(26) يذكرهم ضواحي مراكش ، وسنة 1541 يذكرهم مصدرا آخر (27) مبتعدين عن منطقتهم الأصلية التي هي ضواحي أسفي ب 30 كيلومتر . وتعود هذه التنقلات إما لأسباب طبيعية(جفاف) أو لأسباب سياسة (خوف من هجومات المغيرين البرتغال أو من هجومات المخزن الوطاسي).

ففيما يتعلق بالجفاف يخبرنا مصدر مؤرخ 1541م(28) إنه نظرا للجفاف أصبحت القبائل تتحرك تجاه المناطق الساحلية مما جعل سلطان فاس وشريف مراكش (السلطان السعدي) يصدران آوامرهما إلى القياد لمنع ذلك بأخذ رهائن من أبناء ونساء أعيان القبائل للضغط عليهم وصدهم عن الهجرة .

ونشير إلى أن هذه التحركات تهم خاصة قبائل المنطقة الجنوبية من الواجهة الأطلسية ، إذ البادية الشمالية كانت تعرف نوعا من الاستقرار اللهم إلا ما يتعلق بالتحركات السياسية .

أما بالنسبة للأعمال الفلاحية : فبالنسبة للبادية الجنوبية تشير المصادر إلى أن الموسم الفلاحي يبدأ بالحرث وذلك في شهر أكتوبر بالنسبة للقمح والشعير والذرة ، وتعرف البادية خلاله مايسمى "بدار الحرث"(29) حيث تنصب الخيام فتصبح دار الحرث هاته دوارا مؤقتا يعيش به الحراثة وأسرهم وقطيعهم ، ويظل الدوار منصوبا إلى نهاية عملية الحرث والزرع، وكانت دار الحرث هاته تشيد في المنطقة المحادية للساحل ، ويحرث بالجمال أو الدواب الأخرى ، وقبطان الميناء غالبا ما يحدد للبوادي الخاضعة له ، الأراضي التي ستشهد عملية الحرث (30). أما الحصاد فيشرع فيه في شهر يونيو بالنسبة للقمح وفي شهر ماي بالنسبة للشعير . ويحصد الزرع بالمناجل ثم ينقل بعدها إلى البيدر حيث يتم درسه فتظهر إذ ذاك شبه دار للدراس يستقر بها الفلاحون إلى حين انتهاء هذه العملية . وبعد ذلك يشحن في التلاليس . وفي المنطقة الشمالية غالبا ما كان ينقل نصف مدرى خوفا من الهجوم البرتغالي ، وفي هذه المنطقة الشمالية تشبه عملية الدرس معسكر

حرب حيث يقوم بها الفرسان على ظهر خيولهم المسرجة والمأهبة لخوض معركة ما إن تطلب الأمر ذلك . ويخضع الموسم الفلاحي للمناخ كما كان يلجأ في مناطق معينة إلى السقي التي كانت تختلف من قبيلة إلى أخرى مثلا : قبائل أولاد عمران كانوا يجمعون مياه الأمطار ببحيرة اصطناعية وتستخدمها القبيلة للري ، وقبائل أخرى كانت تستعمل الصهاريج والآبار والبعض الآخر الخطارات وغيرها مياه الأنهار.

هـ - التنظيم السياسي : نراه من جانب التسيير الداخلي للقبيلة ، ومن جانب ارتباط القبيلة بمجالها السياسي العام :

- فمن جانب التسيير الداخلي يلعب شيخ القبيلة دروا رئيسيا في تسيير القبيلة ، فهي تخضع إذا خضع ، وتوقع الاتفاقيات إذا أراد ذلك ، وتفديه بكل ما تملك إن تطلب الظرف ذلك ، وهو يتبع لهذه السلطة أو تلك حسب مصلحة قبيلته ، أو يجعلها تستقل إن ارتأى أن ذلك في مصلحة القبيلة ، وشيخ القبيلة ينتمي لأحد بطون القبيلة الأكثر شوكة ونفوذا بما تملك من فرسان ورماة ، وما تملك من رقعة جغرافية ولما لها من علاقات خارج القبيلة سواء كان مع سلطة البلاد أو السلطة الأجنبية أو قبائل أخرى ، ويشترط في الشيخ أن يكون فارسا شجاعا ومن الأعيان ، وقد يختار الشيخ من بطن ثان ، وفي هذه الحالة يكون رديفا لشيخ القبيلة التي تعطي لها القبيلة الرئاسة. ومن مهام الشيخ :

* توقيع الاتفاقات المبرمة بين القبيلة ودولة أخرى ، مثلا شيوخ الشرقية هم الذين وقعوا الاتفاق المبرم يوم 6 شتنبر 1514 م بلشبونة بين الملك البرتغالي دون منويل بشأن خضوع القبيلة للبرتغال.
* وإبرام المعاهدات .
* وتحرير الرسائل وتوجيهها إلى المعنيين بالأمر.وهذه الرسائل لايكون لها وزنا إلا إذا عبرت عن تمثيل قاعدي للشيخ ، فهو يبدؤها كالتالي :" من أهل كذا كافة وعامة شيوخا وكهولا وصبيان إلى الملك البرتغالي .."
* وتأخذ الرهائن قصد تنفيذ بنود اتفاقية ما أو للضغط على القبيلة من أبنائه ونسائه وكذا من باقي أعيان القبيلة .
*يكون صلة وصل بين قبيلته والسلطة البرتغالية أو المغربية ، وإن سجن من طرف البرتغال للضغط على القبيلة تهرع هذه الأخيرة إلى فدائه حيا كان أم ميتا، كما وقع لشيخ قبائل أولاد فرج الذي قتله البرتغاليون لمعاقبة قبيلته التي خرجت عن السلطة البرتغالية سنة 1512م وعلقوا رأسه بأحد أبواب مدينة أزمور وأبوا إلا أن يدفع عرب الشرقية أموالا طائلة ليسلمهم البرتغاليون الرأس ، فرضخت قبائل الشرقية للبرتغال وطلبت منهم الصلح شريطة أن يتسلموا رأس شيخهم .

ويعبر تصريح أحد القبائل عن مكانة الشيخ في القبيلة في قولها للبرتغال :"لايسد أحد مسده عندنا ، وهو وكيلنا فيما تفعل معه"(31).

أما مايربط القبيلة بمجالها السياسي العام فهو القائد: فالسلطة البرتغالية كانت تعين قائدا على القبائل الخاضعة لسيطرتها ، مثلا القائد : يحيى أو تعفوفت ، كما أن السلطة المغربية كانت الصلة بينها وبين القبائل الخاضعة لها تربط عن طريق القائد . ويشترط في

القائد الذي ينصبه البرتغاليون على البوادي الخاضعة لهم أن يكون مسلما لكي لايرحل الأهالي ويغادروا قراهم أو دواويرهم أودشورهم تعبيرا منهم لرفض ذلك الاختيار. ولهذا القائد المنصب من طرف البرتغال حقوق وعليه واجبات ، فله على المنطقة التي يحكمها السلطة والحقوق الكاملين ، وله خمس الغنائم التي يحصل عليها خلال غزوته ضد القبائل غير الخاضعة للسلطة البرتغالية ، إضافة إلى ضريبة العشر على منتجات الأرض ، وعليه أن يحكم المنطقة التابعة له حسب العرف القبلي . وكدلالة على تبعيته للبرتغال ، يمنح له العلم والطبل ويحرسه 100 رماح ، وعليه ان ينفذ قرارات الملك البرتغالي التي تصله عن طريق قبطان الموانيء ، كما عليه أداء الضرائب اللازمة للملك البرتغالي وحماية القبائل الخاضعة للبرتغال من هجومات سلطان فاس والأمراء السعديين المجاهدين في مراكش وسوس ، كما عليه أن يجعل رهن إشارة الملك البرتغالي وخدمته كل ما يحتاج من رجال يقوم بجمعهم من بوادي أزمور وأسفي ، وعليه أن ينفذ أوامر القبطان كما لو كانت أوامر الملك . ولاتخول له مهمة تعيين القواد . وحسب مايظهر من النصوص فالقياد درجات .

وكان الشيوخ والقياد يتميزون بزي مخالف للعامة ، فهم يرتدون ثيابا فاخرة ومرصعة بالذهب والفضة وفوقها زرودا ، وكانت تلك الثياب من الموبرة الحريرية ، ويضعون فوق رؤوسهم طربوشا أحمر قرمزي ، كما لهم حمالة عريضة تصلح كحزام يعلق فيه سيف مرصع بالفضة البيضاء ، وتكون الحمالة من حرير وملونة بالأخضر والرمادي . كما أن جهاز خيولهم كان نفيسا : فقد كان لجامها من ذهب وفضة ، وسروجها جلدية فاخرة.

وكان لهاته الهيئة المسيرة مركزا إداريا يسمى بالأزميلAzemel(32) ، وهو عبارةعن دوار يجمع الطاقم الإداري للقبيلة مع أسرهم .

وما نلاحظه في هذا الإطار هو أنه إذا كانت كلمة القائد نافذة في قبائل البوادي الشمالية نظرا لارتباطه بالقبائل لا بالسلطة البرتغالية فإن هذه السلطة النافذة كانت تعطى في القبائل الجنوبية للشيخ لنفس ارتباطه بالقبيلة وعدم خضوعه للبرتغال إلا إذا كان ذلك يخدم مصلحة القبيلة ، ولكن في جميع الأحوال هو خضوع مؤقت وظرفي ، سرعان ماتنسلخ عنه القبيلة وشيخها .

وما نلاحظه كذلك في نفس الإطار هو غياب وجود مقدم في البوادي الجنوبية ، وهو موجود في البوادي الشمالية ولكن على ما يظهر من النصوص فسلطته جهادية أكثر ماهي سياسية ، ومختلفة عن المهمة التي نعرفها للمقدم.

إذن في الفترة التي حددناها لهذا العمل ، كانت بوادي الواجهة الأطلنطية تعرف تشكيلة اجتماعية قبلية قائمة بذاتها وقوية بعدد ما تملك من فرسان ودواوير وقرى ودشور ومن مجال جغرافي ، وما تمكنت من تكوينه من أحلاف، وتخضع خضوعا تاما لشيخها (البوادي الجنوبية) أو لقائدها (البوادي الشمالية) واضطراريا للقائد باعتبار أن هذا الأخير تفرضه عليها سلطة أجنبية عن القبيلة .

الـهـــوامــــش :

1) - هي خاصة برتغالية.

2) - بالنسبة للبرتغاليين ، أما سكان المنطقة فيسمونهم المصامد.

3) - " " " " " " العربان .

Sources Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal 1 , pages 234 et suites. - (4

-Damiâo De Gois: Cronica Do Feli cissino rei - (5
D. Manuel - Nova Ediçào - 1954 - page : 114 , Parte, IV.

6) - المرجع نفسه ، ونشير إلى أن عدد ضبط الإحصاء يرجع إلى كون السلطة البرتغالية لم تتمكن من السيطرة على هـذه القبـائل لقوتها،كما نعتبر أن الرقم المدلى به بشأن عدد فرسانها لايتماشى والوصف الذي قدموه عنها وهو 500 فارس . ومن ثم قدرنـاه بمقارنتها مع القبائل الأقل شأنا منها في 500 ألفا معتبرين أن الكاتب أو الناسخ نسي الألف التي لاحظنا أنها ترافـق كـل الإحصـاء المدلى به بشأن القبائل الأخرى.

7) - نفس الملاحظة المتعلقة بشأن عدم ضبط الإحصاء والواردة بالهامش (6).

-Damiâo De Gois : Cronica DoFelicissimo Rei D. Manuel - Nova Ediçào 1954 , Parte III . - (8
Page : 185.

-Damiào De Gois , Cronica do Felicissimo ,Rei D. Manuel Nove Ediçào 1954 - Parte III - (9
page 185.

10) - حسب نسخة كويش: D. Cronica ...Parte III, page 185 .

Luis de Susa : Les Portugais et l'Afrique, traduction , Robert Ricard, page 37. - (11

Les Sources Inédites de L'histoire du Maroc - Portugal I , page : 187. - (12

13) - خاصة ابن خلدون : التاريخ ، المجلد :6.

Damiào De Gois, Cronica ... Parte III, page : 50. - (14

15) - نفس المرجع (3).

16) - الأستاذ عمر أفا - كلية الأداب - الرباط + محمد شفيق : "أربعون درسا في اللغة الأمازيغيـة +, E; Laoust Contribution à une étude de la Toponymie du Haut Atlas - Revue des Etudes Islamiques, année 1940.

17) - افتراض شخصي لاعتبارات شتى وبحكم دراسة الموقع من خلال المصادر ومقارنته بـالموقع وبفصـائل أخرى تنتمي لنفس شجرتها .

18) - حسب كتابة المؤرخ داماو كويش : Damiào De Gois

19) - حسب " " " " " " " "

20) - حسب كتابة المؤرخ " " " " "

Les Sources Inédites de L'histoire du Maroc, Portugal I , page : 181. - (21

ibidem , page : 316. -(22

les sources Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal , page : 316. -(23

Ibidem . -(24

SOURCES Inédites de L'histoire du Maroc , Portugal I , page : 701. -(25

Ibidem , Portugal II , page : 24. -(26

Ibidem , Portugal II , page : 454. -(27

Ibidem , Portugal III , pages : 416 et 440. -(28

Sources Inédites de L'histoire du Maroc , Portugal I , page : 370. -(29

Ibidem , page : 378. -(30

Sources Inédites de L'histoire du Maroc, Portugal I , page : 239. -(31

Damiào De Gois , Cronica ... tome III , pages : 31 - 32 . -(32

تشكل الشبكة الحضرية في تطوان وتطورها

من 1484 إلى 1860

ذ. عبد العزيز السعود*

بقيت تطوان التي خربت في الثلث الأول من القرن الخامس عشر خالية من السكان (*) ، إلى أن تم تجديد بنائها من قبل المسلمين المهاجرين من الأندلس . وتاريخ إعادة هذا البناء ذكرت فيه روايتان أولاهما لمؤلف مجهول صاحب "مخطوط تطوان" وللسكيرج (**) . وكلاهما من أهل تطوان ، وروايتهما هي التي يتناقلها الخلف عن السلف وقد رمز لذلك التاريخ بكلمة "تفاحة"، وهي قيمة عددية بحسب النظام الأبجدي العربي: كل من التاءين بأربعمائة والفاء بثمانين والألف بواحد والحاء بثمانية. فتكون هي سنة 889 للهجرة ، ويوافقها في التاريخ الميلادي 85-1484 ، أي قبل سقوط غرناطة في يد المسيحيين . وهذا التاريخ يتفق معه كثيرا المؤرخ البرتغالي "دافيد لويس"(***). وقد عثر في المخطوط القديم على نظم يثبت تاريخ البناء المذكور ، ومنه هذا البيت :

قد بنيت تطاون يقينا   عام تفاحة من السنينا

والرواية الثانية هو ما جاء في تقييد كناش قديم وقف عليه الفقيه محمد داود ، وهو منقول بخط العلامة سيدي العربي الفاسي صاحب "مرآة المحاسن" ، وقد كان قاطنا بتطوان وبها توفي عام 1052هـ / 1642م. ويذكر أن ابتداء بنائها كان على يد جماعة من الأندلس قدموا منها وتخيروا محلها ، وذلك في شعبان عام 898هجرية ، ويوافقه من التاريخ الميلادي 1493 ، وذلك بعد سقوط غرناطة .

ومن الملاحظ أن الروايتين تستندان معا إلى نصوص تاريخية مرجحة لايشوبها سوى نقص واحد، وهو التضارب فيما بينها في تحديد الفترة الزمنية . ونعتقد أن الأولى لها فضل التوضيح بكيفية مقنعة ، ولذلك يبدو من المنطقي ألا نتردد في الاعتماد على ماذكره السكيرج وسلفه صاحب المخطوط القديم وقبول التاريخ الذي يقدمانه .

وذكر المؤرخان التطوانيان أنه ما إن شرع القادمون في البناء حتى قاومهم سكان القبائل المجاورة للمدينة ، باعتبار أن أرضها تقع في بلادهم وتشكل مراعي لماشيتهم ، فوقعت بينهم وقائع. ثم ما لبثت تلك القبائل أن اتحدت معهم على الجهاد ضد البرتغاليين في سبتة . وانتقلت عناصر منها للاستقرار في المدينة . ثم إنه في أعقاب وصول الأندلسيين لهذه البلدة ، وفد عليها عدد كثير من يهود الأندلس الفارين من عقاب محاكم التفتيش ، وقد سمح لهم المسلمون بالنزول إلى جانبهم ومنحوهم الأرض، فأسسوا حارتهم التي عرفت

* ـ أستاذ باحث من تطوان .

بالملاح الباليقبل أن ينقلهم السلطان مولاي سليمان إلى الملاح الجديد . وسيعرف العمران انطلاقة حقيقية على يد مجدد بنائها أبو الحسن علي المنظري، الذي قام بإصلاح أسوار البلد وبنى القصبة(1).

وما بين أوائل القرن السادس عشر وأواخر القرن السابع عشر ستعرف تطوان ظاهرة حضرية جد نشيطة، بحيث أن مساحة البلد ستتضاعف تقريبا.

وبالنظر إلى تصميم المدينة آنذاك تتضح ثلاثة مجالات مورفلوجية مختلفة ، تتمثل في النواة الأولى ، وهي التي عرفت باسم "البلد" ثم الأرباض وتشمل توسعات المدينة ، وأخيرا الملاح. وهذه التباينات المورفلوجية مرتبطة بتواريخ البناء ، وبدوافع وحاجات طارئة.

ولقد مر تشكل الشبكة الحضرية بمرحلتين أساسيتين سبقتا التدخل الاستعماري الاسباني الذي أحدث تغييرا في المجال ، وخصوصا بعد فرض معاهدة الحماية واستقرار الاسبانيين بالمدينة .

- المرحلة الأولى ، وتعود إلى الفترة التي كانت فيها المدينة محدودة بسورها الأول ودامت من 1484 إلى 1580، وتتمثل في النواة (البلد) التي بناها الأندلسيون على أنقاض المدينة القديمة ، ومركزها هو القصبة التي شيدها الحاكم علي المنظري وجعلها مقرا لحكمه ، وحولها توسعت النواة الحضرية .

- المرحلة الثانية ، وترجع إلى بناء السور الثاني للمدينة من 1580 إلى 1860، وتمثلت في إحداث الربضين الأعلى والأسفل وكذلك الملاح ، وإحداث الربضين ثم بعد أن ضاقت البلد ، ولم تعد قادرة على استيعاب الوافدين الجدد وخاصة المورسكيين المطرودين من اسبانيا . وأما الملاح فتم تحويله من موضعه القديم بالبلد إلى موقع آخر على يد السلطان مولاي سليمان سنة 1808. وتنتهي هذه المرحلة باحتلال مدينة تطوان من قبل الجيوش الاسبانية عام 1860.

.النواة : البلد :

بناها الأندلسيون على أطلال تطوان البربرية القديمة،وقد وصفها سيدي العربي الفاسي في تقييده:"إنها بلد مربع وقصبتها في ركنها ولها ثلاثة أبواب وسورها في عرضه سبعة أذرع ، ودار بالسور الأول سور ثان وبعده دارت الحفائر وأعظمها حفير القصبة . ويعلو البلد من جهة الجوف جبل بنى عليه المنظري قصبة أكملها في عشرين سنة"(2).

إن الوصف الذي قدمه العربي الفاسي يتيح لنا بعض الاستنتاجات حول الدوافع الملحة لتشكل النواة الأولى (يعني اختيار المربع)، ثم القصبة أو البرج في الأعلى ، وتأثيره على التشكل الحضري لهذه النواة. فقد كان الهاجس الأساسي عند الوافدين من الأندلسيين هو التحصن لأجل حماية المدينة من الغارات الخارجية التي يقوم بها الإيبيريون انطلاقا من المواقع المحتلة مثل سبتة وطنجة وأصيلا، وكذلك لمدافعة الجبليين الذين كانوا متضايقين من ذلك البناء. وإن طبوغرافية الموضع الذي أقيمت فيه هذه النواة يدعم الخطة العسكرية للقاطنين ، فالقصبة المحصنة بالأسوار المتينة ، والأبراج في الزاوية الجنوبية الغربية للبلد ، تشرف على الجرف وتسمح بمراقبة الملاحة في نهر مرتيل. وقد جعل

الحاكم المنظري من هذه القصبة "دار الإمارة" لتدبير الشؤون السياسية والعسكرية ، وحولها توسعت النواة الحضرية باستقرار أعداد متزايدة من المهاجرين . وكان هؤلاء في أول عهدهم يجعلون بجانب دورهم حدائق واسعة ، ثم بدأت هذه العادة تنقص بسبب ضيق المجال وبتكاثر السكان قبل بناء أرباض المدينة.

ويخضع الأساس المورفلوجي لهذه النواة إلى تنظيم عائلي يستند في الغالب إلى عنصر النسب، بحيث يمكن القول إن مجموعة الدروب والزنقات التي تكون حومة البلد تشكل تقريبا ـ على المستوى النظري ـ مدونة لأسماء العائلات الأندلسية وحتى غير الأندلسية التي استقرت بالمكان. ويؤلف كل درب مجموعة من الدور ، وتحتل مركزه أول دار شيدت بالموضع . وكما توجد داخل كل حومة تقطنها عائلات لها وزن اجتماعي بالمدينة زاوية أو مسجد ، وكذلك بعض التجهيزات العمومية كالحمامات والفرارين ، وهي عادة ماتحمل اسم مالك القطعة الأرضية . ولصيانة هذه المرافق ودوامها كان الأهالي يحبسون عليها قسطا من متروكهم. وكمثال على ذلك ندرج وصية نصها كما يلي " الحمد لله أوصى السيد عبدالله بن الفقيه السيد الحاج علي امدينة التطواني أنه مهما حدث به الموت الذي لابد منه ولامحيد لمخلوق عنه فإنه يخرج من جميع متخلفه أي شيء كان العقار وغيره الثلث الواحد ويوقف في واجبه بالحمام الذي لهما بسوق المطامر وفي دار منضوصة الكبرى بزنقة البروبي وفي طرفين من الأرض خارج باب العقلة إحداهما يقال له فدان الزعزوفة والآخر فدان الغزاوي ويصرف ربعه في شراء الخبز وتفرق على الفقراء والمساكين كل يوم خميس على العادة بتطوان وثلاثة أرباعه لأولاد أولاده ... وفي سادس عشر ربيع الثاني عام 1234. عبد الرحمان بن بوسلهام ومحمد بن عبد الوهاب الحسني العلمي"(3) (العدلان).

- الأوساط :

لم تكن توجد عند مجيء المورسكيين في أواسط القرن السادس عشر سوى نواة حضرية وحيدة شكلها "البلد" ، ولكن توافد موجات جديدة أدى إلى وجود فيض سكاني الأمر الذي دفع إلى توسع المدينة بشكل كبير ومتزامن تقريبا في اتجاه شمال البلد وجنوبه . فأحدث ربضان أحدهما عرف بالربض الأعلى وهو واقع في أعلى المدينة و ويتصل بجبل درسة المشرف عليها من جهة الشمال ، وعرف الأخر بالربض السفلي ، وهو يقع أسفل المدينة بينها وبين السهل الفسيح المنخفض عن المدينة ، والمتصل جنوبا بجبال بني حزمر وشرقا بشاطيء البحر المتوسط. وكان الربض الأعلى يشمل حومات السوق الفوقي وما اتصل به وزنقة المقدم والطالعة. ثم وقع التوسع فأضيفت له حومتان كبيرتان وهما الطرنكات والعيون. ولما أحيط كل ذلك بسور جديد وقع الاستغناء عن الباب القديم الذي كان في الناحية الغربية من المدينة ، وجعلت بدله ثلاث أبواب ، وهي باب المقابر شمال البلد ، وباب النوادر في الجهة الشمالية الغربية للمدينة ، وباب التوت في غربها. وأما الربض السفلي فكان يضم بدوره عدة حومات منها الجنوي والسويقة والمنجرة وقاع الحافة، وأنشيء سور جديد جعل فيه بابان هما باب العقلة وباب الرموز(4).

وكانت مسألة حيازة الأرض التي شيد عليها الربضان المذكوران خاضعة للموقف المتسامح والمتعاضد الذي سلكه المستوطنون الأول ، فبموافقتهم الضمنية ، وعن طريق تملكهم بالتقادم للأرض ، فقد كرسوا حق المالكين الجدد. وستندمج هذه الأرباض في إطار نسق اقتصادي واجتماعي جديد يمكن نعته ب "الجهوية" ويعني نوعا من التمييز السوسيو- مجالي ناتجا عن توزيع المجال الحرفي إلى حومات متخصصة . وتختلف مورفلوجية هذه الحومات عن النواة الأولى (البلد) اختلافا محسوسا لاسيما حومتي الطرنكات والعيون ، فهما لاتمثلان في الواقع تعاقب الدروب التي تكرس الأنساب ، بل تشكلان مجموعة من البناءات الموازية لمناطق الإنتاج والتبادل ، واعتبرت شبه "معازل" خصصت لاستقرار الجماعات "غير المدينية" التي استقطبها الازدهار الحضري(5)، وظلت مع ذلك لفترة معينة محتفظة بعاداتها ولهجات مواطنها الأصلية التي حافظت على صلات واسعة معها ، وكانت تلك العناصر الوافدة من ناحية جبالة والريف تتجمع حسب مصادرها للتخصص في مزاولة بعض الحرف . وكان قرب المساكن من تجمعات الطوائف الحرفية كالحدادين والنيارين والدباغين وغيرهم يسهل إقامتهم .

- الملاح (البالي) :

في عهد قريب من بناء الربضين، وقع توسع في شرق المدينة ، وفتح بابان هما باب السعيدة وباب الجياف . وقد كان الملاح واقعا في الشمال الشرقي قريبا من الباب الأخير ، وأنه ظل عامرا باليهود وكذلك بالأوربيين الذين كان يسمح لهم بالإقامة به إلى أن بني المسجد الأعظم بالقرب منه .فلاحظ الناس للسلطان أن ملاح اليهود يكاد يكون متصلا بالجامع المذكور ، فقرر السلطان مولاي سليمان تحويل الملاح من مكانه القديم ، وهو المعروف (حاليا) بالملاح البالي ، ويقع في وسط حومة البلد حيث سكنى المسلمين ، فأصدر ظهيرا مؤرخا بفاتح جمدى الأولى عام 1222 (1807) إلى القائد الحاج عبدالرحمن أشعاش يعلمه بتعيين الملك المعروف بالرياض من تطوان ، والذي هو من أملاك المخزن بجميع حدوده ، ومنحه ليهود تطوان ليقيموا فيه ملاحهم ، ويبنوا فيه دورهم وحوانيتهم ، وعلى كل من يملك دارا منهم في البلد أن يبيعها للمسلمين ، ويبني بثمنها دارا أخرى في المكان المعين(6). ولم تكن الجماعة اليهودية في تطوان قبل ذلك التاريخ كثيرة العدد ، ولكن مالبث أن تضايق الملاح بعد توافد عدد مهم من يهود فاس ومكناس فرارا بأنفسهم من اضطراب الوضعية الأمنية ومن الأوبئة والمجاعات (7).

ومنذ أواخر القرن السادس عشر أضحت المدينة كيانا حضريا متكاملا بعد أن تم تجاوز حالة "المدينة - الملجأ" ، وتم إبرام السلم مع الحامية البرتغالية بسبتة ، وزواج السلطان الوطاسي بالسيدة الحرة(*). وبذلك تم الشروع في الأشغال العامة حيث وقع تزويد المدينة بنظام لتوزيع المياه ، وانتظمت هيئات الحرفيين ، وصارت المدينة محتوية على خمسة أقسام كل قسم منها يسمى حومة ، لها حدودها الخاصة ، ويقوم بتدبير شؤونها مقدم يعينه سكانها بعد موافقة قائد المدينة . وكانت كل حومة تحقق نوعا من الاكتفاء الذاتي ، فتتوفر على عدة مساجد ، وقنوات عمومية ، وحمامات ، وفنادق، وسوق يمارس فيه نشاط تجاري ، وتجمع حرفي يضم بعض التخصصات .

وبموازاة مع اتساع ظاهرة التمدين التي عرفتها تطوان منذئذ ، أخذت عملية استحواذ الحضريين على المحاط القروي تزداد بكيفية ملموسة ، وذلك عن طريق تملكهم للجنانات والعزايب ، فبالإضافة إلى الدور الذي تقوم به هذه في تزويد المدينة بالمنتجات الفلاحية ، فإنها اعتبرت من علامات النفوذ والتأثير والوضع الاجتماعي الخاص. إلا أن تداخل المجال الفلاحي الذي تستغله المدينة مع جيرانها من المداشر سيفرز نزاعا سيدوم مئات السنين .

وكانت مدينة تطوان قد خضعت لاحتلال القوات العسكرية الاسبانية بعد الحرب التي فرضتها اسبانيا على المغرب في شتاء 1859. وخلال مدة الاحتلال الذي دام سنتين تعرضت كثير من الأماكن في المدينة لعملية الهدم وتغيير المعالم ، وكان بعض هذه الأعمال لفتح طرق المواصلات بين مختلف جهات المدينة ، أو لتسهيل الدفاع عنها وتحصينها ، وبعضها لتوسيع الطرق وتحسينها إذ كانت ضيقة ، أو لفتح ساحات داخل المدينة . وقام الإسبان كذلك بوضع أسماء جديدة إسبانية لجميع ما في تطوان من أبواب وأبراج وساحات وشوارع ودروب.

الهوامش :

*) - تتحدث الأخبار البرتغالية عن تخريب تطوان عام 1437م لما هيأ "دوارطي منيسيس" ابن الحاكم البرتغالي بسبتة حملة ضدها وقد قام البرتغاليون بهدم أسوار المدينة ومساجدها وأحرقوا أبوابها ودورها.

**)- الأول تقييد يحتوي على بضع صفحات عثر عليه المرحوم محمد داود ، وهو في ذكر أخبار تطاوين ، ولم يتحقق من معرفة اسم صاحبه ، ويذكره كذلك بالمخطوط القديم . والثاني هو أبومحمد عبدالسلام سكيرج ،مورخ تطوان ، ومؤلفه لازال مخطوطا في الخزانة الداودية ، "نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيها وتقرر من الأعيان". وتوفي عام 1250 للهجرة .

***)- David Lopes , Os portugaises, in Historia do Portuqual . T. III.

1)- Fernando de Carranza , Sidi Abul-Hassan Ali Al - Manzari , Archivos del Instituto de Estudios Africanos, n° 13, Cuatrimestre agosto 1950.

2) - تقييد مخطوط حول تطوان موجود في الخزانة الداودية .

3) - رسم خاص في الخزانة الداودية ، بدون رقم ، تطوان .

4) - محمد داود "تاريخ تطوان" مطبوعات معهد مولاي الحسن ، المجلد الأول ، تطوان ، 1957 ، ص :

5)- Karim Dellero: Essai de présentation de la production urbaine ...à Tétouan, La cambre , 1985, p : 9.

6) - محمد داود : تاريخ تطوان ، ج 1 ، ص :100.

7)- I.D.Abdou , Musulmans andalous , et Judéo- espagnols , Casablanca,1953,p : 403.

*)- وتسمى عائشة بنت علي بن راشد العلمي صاحب مدينة شفشاون ، وصارت فيما بعد تدعى بالست الحرة ، وقد حكمت نوعا ما في تطوان عندما كانت زوجا للحاكم علي المنظري ، ثم تزوجت فيما بعد بسلطان فاس أحمد الوطاسي .

النسق الثقافي ومسألة التكوين المكاني ـ الاجتماعي للمغرب

ذ.محمد الأسعد*

يهدف البحث دراسة موضوع التكوين المكاني ـ الاجتماعي للمغرب باعتباره نتاجا للنسق الثقافي. ويقصد بالنسق الثقافي مجموعة نظم رمزية واستراتيجية تساعد الأفراد والمجتمعات على ضمان استمرارها . وبالنظر إلى تطور النظم الرمزية الثقافية بالمغرب نجدها تتحدد بواسطة مسلسلين : أولهما داخلي (الأعراف والتحكيم) وثانيهما خارجي (الشرع الإسلامي والقانون الوضعي). أما التكوين فهو عملية تشكل تاريخي للتنظيم الترابي والتشكيلة الاجتماعية على المستويات المحلية والجهوية والوطنية .

وسنعالج الموضوع من زاوية محددة هدفها تقديم الإطار العام لسيرورة النسق الثقافي وعلاقته بموضوع التكوين المكاني الاجتماعي للمغرب منذ القرن الحادي عشر الميلادي . وبغية حصر مشكلة البحث أتقدم بافتراض وأربع مسلمات :

الفرضية الأساسية : تتحكم قوة النظم الرمزية للنسق الثقافي في مراقبة التنظيم الترابي والتشكيلة الاجتماعية للمغرب منذ القرن الحادي عشر الميلادي . وأنه بقدر ما تتحلى قوة النظم الرمزية بالفاعلية بقدر ما تساعد على توازن التنظيم الترابي والتشكيلة الاجتماعية

وترتيبا على ذلك أقترح المسلمات التالية :

ـ المسلمة الأولى : لعبت المراكز الحضرية دورا حاسما في انتشار النظم الرمزية وفق نموذج متداخل الهالات على المستويات المحلية والجهوية والوطنية .

ـ المسلمة الثانية : إن التفاعل بين مركزية الدولة (القرن الحادي عشر الميلادي منذ العهد المرابطي) وشمولية الحس الوطني (1) الذي انتشر منذ القرن السادس عشر الميلادي قبيل معركة وادي المخازن وبعدها جعلت المغرب يحتفظ بحدوده شبه النهائية المتعارف عليها حاليا ، ومنذ ذلك العهد ، عرف التنظيم الترابي تطورا متفاوتا إلى غاية التدخل الاستعماري الفرنسي سنة 1912 .

ـ المسلمة الثالثة : لايمكن الحديث عن تطور التشكيلة الاجتماعية للمغرب دون ربطه بالتباينات المكانية نظرا لخصوصيةالفئات الاجتماعيةحسب المجالات الريفية ونظيرتها الحضرية ، بل يلاحظ تفاوت داخل نفس المجال

ـ أستاذ باحث بكلية الآداب ـ بنمسيك .

ـ المسلمة الرابعة : إن التشكيل الحالي للتكوين الاجتماعي هو شكل انتقالي مفكك نظرا لتنافر العناصر المتحكمة فيه .

ـ النظم الرمزية للنسق الثقافي:

يعد النسق الثقافي المحدد الأساسي للتكوين المكاني ـ الاجتماعي للمغرب وفق مسلسلين أولهما داخلي وثانيهما خارجي

1-1 المسلسل الداخلي للنسق الثقافي : قوة النظم الرمزية للأعراف والتحكيم (الشكل 1):

يستند المسلسل الداخلي للنسق الثقافي على نظم رمزية للأعراف القبلية والتحكيم الذي تقوم به السلطة المركزية للدفاع عن المكان الحيوي (مجال رعي زراعي). ويمكن اعتبار التوافق بين المجتمع القبلي وبين الحكام من العائلات الشريفة التي تعاقبت على حكم المغرب ، المفتاح الحقيقي لفهم تأثير المسلسل الداخلي للنسق الثقافي على المكان الحيوي .

تميز المجتمع القبلي بالمغرب على مدى فترات تاريخية طويلة بتنظيم جيوسياسي متميز. فقد ارتبط توزيع القبائل بتوزيع الأمكنة الرعوية أو الرعي زراعية ، باتباع نمط عيش تكاملي . بين الجبال الرعوية والبلاد الواطئة الرعي زراعية. تطلب التحكم في هذا المكان الحيوي تماسك التنظيمات القبلية للدفاع عنه والذي استند على توزيع الوظائف السياسية والاقتصادية (رعاة ، حراثون ...) وقد كانت تنشب خلافات بين القبائل من أجل السيطرة على المكان الحيوي ، فلجأت إلى تكوين تحالفات .

التجأت القبائل المتصارعة إلى العائلات الشريفة المحايدة ، وهم الأشراف الوافدون من المشرق المتصل نسبهم بآل البيت ، ليلعبوا دور التحكيم. لعبت وظيفة التحكيم دورا أساسيا في حل النزاعات القبلية، إلا أنها لاتنفي التحكم في إدارة البلاد التي تحولت من المستوى المحلي إلى المستوى الجهوي ثم الوطني . أفضى ذلك إلى تكون سلطة مركزية تسمى "مخزن" الذي أصبح طرفا من مكونات المجتمع (Pascon et Ennaji 1988) . وكانت القبائل بالمغرب إلى حدود القرن السادس عشر عنصرا حاسما في التشكيلة الاجتماعية . وبعد احتكار السلطة من طرف المخزن وارتباط وظيفة التحكيم بوظائف أخرى أهمها الوظائف السياسية (Laroui 1993, Mhamdi 1989) ، أصبح الحكام مستقلين عن القبائل منذ القرن السادس عشر الميلادي ، وهو التاريخ الذي عرف تهميش دور القبائل لفائدة الزوايا(2) والشرفاء (Ben Ali , 1983). غير أن ذلك لايعني أن القبائل لم تعد خاضعة لنفوذ السلطة المركزية ، بل إن مصيرها أصبح مرتبطا بالمخزن (Ayache,1979).

يظهر إذن أن المسلسل الداخلي تأثر بقوة النظم الرمزية للأعراف القبلية المرتكزة على التنظيمات الداخلية لتدبير المجال الحيوي (الرعي زراعي ، علاوة على وظيفة التحكيم التي تفاعلت معها فتحول تنظيم المكان من المستوى المحلي إلى المستوى المركزي بواسطة تكون الدولة المخزنية التي استمدت مشروعيتها الأولى من السلطة السياسية لوظيفة التحكيم .

2 ـ 1 المسلسل الخارجي للنسق الثقافي: قوة تأثير النظم الرمزية للشرع الاسلامي والقانون الوضعي .

يتمثل المسلسل الخارجي للنسق الثقافي في تأثير النظم الرمزية للشرع (الدين) والقانون الوضعي.أما الشرع فيستمد مرجعيته من الدين الإسلامي إذ أصبح يجسد بعد انتشاره بالمغرب نسقا ثقافيا وحضاريا انطلق إشعاعه من المدن لنشر قيم الديانة الإسلامية بواسطة اللغة العربية (Tozi 1993 , Laroui 1993,Morsy1979).وقد استند حكم الأسر الشريفة بالمغرب على قوة الشرع والدين إذ أفضت إلى شرعية الحكم بالاستناد على حقل سياسي لإمارة المؤمنين.وتمثل البيعة عقدا سياسيا بين الأشراف الذين يسيرون شؤون البلاد وبين الرعية.وقدظل التصورالعام لنمط العيش لدى المغاربة متأثرا بالإسلام وبالعادات المحلية(Geertz1968,1979,Eidkelman 1976, Laug 1989).

ويعتبر التسلط الاستعماري على المغرب في بداية القرن العشرين من العوامل الخارجية التي أثرت على التكوين المكاني ـ الاجتماعي للمغرب ، إذ ساهم في إدخال نمط إنتاج رأسمالي أدى إلى تفكيك الأنماط الإنتاجية المحلية ، حيث قنن تدخلاته بقوانين وضعية أهمها إصدار ظهائر شريفة لتنظيم استغلال الثروات الطبيعية للمغرب مثل الغابات والمياه والمعادن... التي كانت تعتبر إلى حدود التدخل الاستعماري ملكا جماعيا فأصبحت بموجب القوانين الوضعية المحدثة إما ملكا للدولة أو ملكا خاصا . ويستمد الدستور ـ القانون الأسمى للبلاد ـ مرجعيته من مصادر عدة أهمها المصادر العصرية والعالمية والفلسفية المتأثرة بالدساتير الأوربية (Guibal 1993) وإن كان التأثر بدساتير الديموقراطيات الغربية ليس محاكاة لها أو نظيرا مغلوطا(Vedel,1995) .

ـ مراكز انتشار النظم الرمزية (الشكل 2)

لعبت المدن دورا حاسما في انتشار النظم الرمزية للمسلسلين الداخلي والخارجي . ويرجع ذلك إلى تفاعل أسباب عدة أهمها استراتيجية الموقع الطبيعي وقوة النظم الرمزية السياسية والدينية والاقتصادية . ارتبط موقع المدن الهامة في تاريخ المغرب بإيجابية العناصر الطبيعية ، أهمها وفرة المياه وتوفر أراضي زراعية جيدة بظهيرها ، مثل مدينة فاس (ابن أبي زرع 1973) ونجد موقع مدن الرباط ومراكش وسجلماسة في ظروف طبيعية ملائمة أيضا حيث ازدهرت العلاقات مع محيطها (قدور 1990) ولعبت هذه المراكز الحضرية دورا إشعاعيا هاما لنشر قيم النظم الرمزية محليا وجهويا . إلا أن القوة الرمزية للمراكز الحضرية تتمثل أساسا في ارتباطها بالجانب السياسي (نصيح 1990) حيث أن المغرب عرف ارتباط نشوء الدول بالمدن : نشأت الدولةالمدرارية في مدينة سجلماسة(140 هجرية / والدولة الإدريسية في مدينة فاس (192هجرية). اما العاملان الديني والاقتصادي فيقويان من المكانة الرمزية للمدينة . فقد كانت مدينة الرباط عبارة عن رباط أسسه المرابطون في القرن الحادي عشر وحوله الموحدون في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي إلى قلعة جهاد ضد الإسبان . وساهم العامل الاقتصادي (العلاقات مع الأرياف والبوادي والتجارة البعيدة مع أوربا والسودان) في ازدهار المدن وتقوية دورها القيادي ، فقد عرفت المدن الساحلية لأزمور وآسفي رواجا كبيرا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي وكان سكانها يعيشون في رفاه كبير (ابن الخطيب 1977) .

إن تفاعل العوامل السالفة الذكرساهم في هيكلة شبكة حضرية بالمغرب على المستوى المحلي والجهوي، إذ اختلفت أدوارها حسب وظائفها . ففي القرن التاسع عشر الميلادي وإلى حدود التدخل الاستعماري يمكن التمييز بين نوعين من المدن : مدن محلية وأخرى جهوية . أما المدن المحلية فارتكز نشاطها على وظائف متنوعة مثل الوظيفة الدينية وهذه حالة المدن "الزوايا" مثل مدينتي وازان وأبي الجعد ، إذ كانت تقوم بإشعاع ديني بل كانت تساهم احيانا في تنظيم المجال الحيوي للقبائل المجاورة لها. أما المدن الجهوية فهي التي كانت تلعب الدور القيادي مثل مدن فاس والرباط ومراكش ومكناس. اختلف الدور القيادي للمدن الجهوية حسب الفترات التاريخية التي عرفها المغرب، فقد كانت فاس أول عاصمة سياسية للمغرب ثم أصبحت مراكش تحتل هذه المكانة ثم مدينة الرباط ومكناس .

تمثلت أهمية المدن المحلية والجهوية في نشر النظم الرمزية على المستوى المحلي والجهوي والوطني(الشكل2) اعتمادا على ثلاثة أسس وهي : الأساس الإداري والاقتصادي والقضائي. يعد الباشا ممثل السلطة المركزية (الإدارة المحلية) بالمدينة حيث يسهر على تطبيق القوانين والأحكام واستتباب الأمن .أما التنظيم الاقتصادي فيسهر عليه أمناء الحرف والتجار والمحتسب بينما يسهر القاضي على إصدار الأحكام . إن النموذج المشار إليه يعكس من جهة قوة النظم الرمزية الداخلية والخارجية التي تتجسد في مركزية السلطة المخزنية بالمغرب ، باستثناء بعض الجهات الخارجة عن نفوذه مثل بعض المناطق الجبلية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. يعكس النموذج أيضا مسألة التنظيم الترابي الذي نجد أسسه القيادية بالمدن سواء على المستوى المحلي أو الجهوي.

.تطور التنظيم الترابي المغرب :

في إطار الحدود التاريخية للمغرب، عرف التنظيم الترابي تطورا سواء على المستوى المحلي والجهوي

1 ـ 3 مستويات تطور التنظيم الترابي :

أولا : تطور التنظيم الترابي على المستوى المحلي (الأشكال 3)

ينتظم التنظيم الترابي على المستوى المحلي في إطار نموذج متداخل الهالات منذ قرون طويلة وإلى حدود التدخل الاستعماري الفرنسي في بداية القرن العشرين ، إذ يمكن أن نميز تداخلا مكانيا ـ اجتماعيا بين ثلاثة عناصر :

- الدوار هو وحدة ترابية تشكل إطارا سياسيا للعيش.
- الفخدة هي إطار الفعل الرعي زراعي .
- القبيلة هي إطار الفعل الجيواستراتيجي ، فهي ترمز إلى المجال الحيوي للفخدات .

وقد اكتسى مفهوم القبيلة عدة معاني اقتصادية وسياسية ونسبية ، فالقبيلة وحدة اقتصادية لأنها تضمن دورة الإنتاج والاستهلاك والتوزيع. وحدة سياسية لأن مبدأ التماسك لدى أعضاء القبيلة يستند على الخوف الدائم من القبائل المجاورة حتى لاتتملك

المجال الحيوي الرعي زراعي .وحدة نسبية أن عامل القرابة يصبح عاملا مساعدا لتحركات القبيلة. وإذا فقدت القبيلة في الوقت الراهن وحدتها السياسية، فقد أصبحت أساس التنظيم الجهوي.

ثانيا : تطور التنظيم الترابي على المستوى الجهوي :

عرف التنظيم الترابي الجهوي بالمغرب ثلاث فترات : فترة قبيل التدخل الاستعماري والفترة الاستعمارية (1912-1956) والفترة التي تلتها .

أ - الفترة ماقبل الاستعمارية (قبيل سنة 1912)

تميزت هذه الفترة بتفكك التراب الوطني الذي كان مقسما إلى جهتين: جهة خاضعة لنفوذ المخزن (بلاد المخزن) وجهة لا تنالها الأحكام المخزنية والتي دأب البعض على تسميتها ببلاد السيبة (3) شمل تراب بلاد المخزن السهول والهضاب الأطلنتية والمحاور الكبرى للطرق (Ayache1956). كان هذا المجال مقسما إلى ثلاث جهات : جهة فاس شمال نهر أم الربيع وجهة تافيلالت وجهة مراكش. تمت مراقبة المجال انطلاقا من مراكز حضرية لعبت دور العواصم الجهوية مثل فاس ومراكش والرباط ومكناس. أما التراب الذي لاتناله الأحكام المخزنية فكان يشمل المناطق الجبلية المتمردة عن السلطة المركزية.

ب - الفترة الاستعمارية (1912-1956)

تميز التنظيم الترابي للمغرب في العهد الإستعماري بسيطرة هاجس الأمن والمراقبة وإخضاع القبائل المتمردة . فقد خضع المغرب إلى ثلاثة أنواع من التدخلات الاستعمارية كان أولها في طنجة بأقصى الشمال الغربي التي خضعت لنفوذ دولي بينما خضع باقي تراب شمال المغرب أو ما يعرف بمنطقة الريف وهوامشه ، للنفوذ الاسباني (المنطقة الخليفية) الذي سيطر على الصحراء المغربية بالجنوب أيضا . أما الاستعمار الفرنسي فاستحوذ على باقي التراب المغربي . ونتيجة للتدخلات الاستعمارية تأثر التنظيم الترابي الذي عرف تقسيمات إدارية جديدة . فقد قسم التراب المغربي الخاضع للاستعمار الفرنسي إلى نوعين من الجهات : جهات مدنية (الرباط والشاوية ووجدة) وجهات عسكرية (فاس ومكناس ومراكش) الشكل 3-3 .كان الهدف هو إدماج الجهات المدنية في الجهات العسكرية التي أولاها المستعمر أهمية استراتيجية (Naciri 1984).

ج - الفترة بعد الاستعمارية (بعد1956)

عرف التكوين المكاني للمغرب في فترة الاستقلال بعد سنة 1956عدة تقسيمات ترابية استهدفت وضع الإطار الملائم للإدارة الترابية وتوسيع اللامركزية بإحداث الجماعات المحلية باعتبارها وحدات ترابية تتكون من الجماعات والأقاليم والعمالات والجهات.

النموذج 4 : علاقة تطور التنظظيم الترابي للمغرب بالنظم الرمزية

		أعراف	تحكيم	شرع	قانون وضعي
التنظيم الترابي المحلي قبيل العهدالاستعماري	قبيلة	+	-	-	-
	فخدة	+	-	-	-
	دوار	+	-	-	-
التنظيم الترابي الجهوي قبيل التدخل الاستعماري	بلاد المخزن	-	+	+	-
	بلاد السيبة	+	-	-	-
التنظيم الترابي الجهوي للمغرب في العهد الاستعماري	جهات عسكرية	-	-	-	+
	جهات مدنية	-	-	-	+
التنظيم الترابي الجهوي للمغرب بعد العهد الاستعماري	الجماعة	+	-	+	+
	الاقليم - العمالة	+	-	-	+
	الجهة	+	-	-	+

+ علاقة موجبة
- علاقة سالبة

يطرح موضوع علاقة تطور التنظيم الترابي بالنظم الرمزية مسألة الإدارة الترابية على المستويين المحلي والجهوي.

أ ـ المستوى المحلي : ارتكز التنظيم الترابي ماقبل الاستعماري على الحدود القبلية التي لم تكن واضحة الترسيم ، فهي مفتوحة وتتغير تبعا لاستراتيجية الحروب ومن ثم سارعت عدة قبائل في المغرب إلى عقد أحلاف أو "تاضا" والتي ساهمت بدورها في توسيع الحدود القبلية، لأن الحلف يصبح موضوع تبادل اقتصادي والبحث عن المرعى ويصبح أيضا موضوع إخاء أو "الخاوة" التي تتحول إلى حماية القبائل لبعضها البعض ضد المعتدين على مجالها الحيوي (Bourquia , 1989) .إن قيم "تاضا" (الحلف) و"الخاوة"(الإخاء) والحماية هي نظم رمزية تستند على أعراف قبلية ذات خصائص اقتصادية واجتماعية وسياسية ساهمت في التنظيم الترابي المحلي للمغرب ماقبل الاستعماري .

ب ـ المستوى الجهوي :كان التراب المغربي قبيل التدخل الاستعماري لسنة 1912 مقسما إلى مجالين : بلاد المخزن وبلاد "السيبة" حيث تتأثران بشكل متفاوت بالنظم الرمزية . يستند التنظيم الترابي لبلاد المخزن على قوة النظم الرمزية لوظيفة التحكيم والشرع

باعتبارهما أساسين للسلطة المركزية (المخزن) ، فإذا كانت وظيفة التحكيم سلطة معنوية يستعملها السلطان للفصل في بعض القضايا والنزاعات التي ترفع إليه فإن السلطة الرمزية للشرع هي مصدر إدارة شؤون البلاد في كل الجهات الثلاث التي كانت تكون بلاد المخزن قبيل التدخل الاستعماري (جهات فاس ومراكش وتافيلالت).كانت كل جهة ذات عاصمة جهوية وعلى رأسها ممثل السلطان أو الباشا وإلى جانبه القاضي الذي يصدر الأحكام باسم السلطان استنادا على الشرع الإسلامي واجتهاده الخاص. وخلافا لما يجري في بلاد المخزن ، فإن علاقة النظم الرمزية بالتنظيم الترابي في بلاد "السيبة"- الخارجة عن نفوذ السلطة المركزية - كانت تستند على الأعراف والتنظيمات المحلية.

أما علاقة النظم الرمزية بالتنظيم الترابي الجهوي في العهد الاستعماري فارتكزت على نظم رمزية خارجية وهي القوانين الوضعية إذا أحدثت بموجب القانون جهات عسكرية وجهات مدنية لأسباب أمنية.

لايمكن فصل علاقة النظم الرمزية للتكوين المكاني للمغرب في فترة الاستقلال (بعد1956) عن الفترتين السالفتين ، مع توجه عام يتمثل في الحفاظ على الأصالة مقرونة بالتحديث.

حافظ التنظيم الترابي على أصالته لأن مبدأ التقطيع حافظ على الامتداد الترابي للفخدات والقبائل باعتبارها وحدات ترابية وثقافية متكاملة. أما تحديث التقطيع الترابي فيتمثل في مأسسة التنظيم الترابي ووضعه في إطار اللامركزية إلا أن الممارسة تبين أن مجالس الجماعات المحلية لم تهضم بعد الدور المنوط بها إذ تعد في الوقت الراهن وحدات ترابية للتدخلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية باستثناء البعض منها.

- التكوين الاجتماعي وعلاقته بالنظم الرمزية والتنظيم الترابي:

ليس من السهل القيام بدراسة مدققة للتكوين الاجتماعي نظرا لغياب معطيات شمولية تهم الفترات التاريخية للمغرب . ولهذا سنقتصر على مناقشة أهم الأطروحات التي عالجت الموضوع واستخلاص الإطار العام للتركيب الاجتماعي.

4-1 - أطروحات التكوين الاجتماعي للمغرب:

إن تفسير التكوين المكاني - الاجتماعي للمغرب بناء على النسق الثقافي في إطاره البيئي والترابي هو مساهمة لإغناء النقاش حول هذا الموضوع الذي عولج من زوايا متعددة يمكن إجمالها في أربعة اتجاهات (Khatibi 1971 - Tibari 1989) وهي الاتجاه الجيوتاريخي لابن خلدون الذي اعتمد على مفهوم العصبية لتفسير حركية التاريخ (Ibn Khaldon , Khatibi1971 , oumlil 1982) والاتجاه التجزيئي الذي اهتم بالمجتمعات ماقبل الرأسمالية معتمدا على التنظيمات القبلية في فهم المجتمع المغربي (, Montagne, 1930 Hart 1965,1967,1969 , Gellner 1969, Waterbury, 1970, Hommoudi, 1974) . أما الاتجاه الثالث فاعتمد مفهوم نمط الإنتاج الأسيوي (Lacoste 1969) بينما ركز الاتجاه الرابع اهتمامه على مفهوم المجتمع المركب(Pascon 1971) رغم الأهمية التنظيرية لهذه الاتجاهات فإنها ركزت على البعد الاجتماعي بينما البعد المكاني مهمشا في التحليل باستثناء ابن خلدون ، إلا أنه من الصعب تعميم نظريته على الواقع الراهن لفهم المجتمع المغربي لتغير

المحددات المتحكمة فيه . إن التفكير في التكوين المكاني ـ الاجتماعي للمغرب يمكن من استخلاص المحددات الإجرائية لفهم وإدراك تطور المجتمع في إطاره المجالي قصد التحكم في العناصر المفككة فيه.

4-2 ـ البعد المكاني للتكوين الاجتماعي للمغرب:

دأبت التصنيفات المتعلقة بالتكوين الاجتماعي للمغرب على الإفراط في التصنيف المورفلوجي لمكونات المجتمع دون اعتبار التفاوتات المكانية . وتتوخى هذه المحاولة إضافة البعد المكاني في رصد التكوين الاجتماعي للمغرب إذ نقصد بذلك أن تراتب الفئات الاجتماعية غير متجانس لأن البعد المجالي عنصر يفسر التباين في التكوين الاجتماعي للأرياف والبوادي والمدن ، علاوة على التفاوت داخل المجال الواحد. ولهذا لايمكن الحديث عن التكوين الاجتماعي دون ربطه بالتباينات المكانية.

ـ ففي الأرياف يختلف التكوين المكاني حسب نوعية الأنشطة الفلاحية المتبعة إذ لانجد الأرياف التي عرفت الري أو تلك التي اعتمدت على النشاط الرعي زراعي.

تفيد معظم الدراسات التي اهتمت بمجالات الرعي المؤطر ذاتيا وخاصة الواحات بالجنوب المغربي (Bahani , 1994 , Herzénni 1989) وجود تراتب اجتماعي مكون من خمس فئات وهم الشرفاء المنحدرون من سلالة الرسول (ص) والمرابطون المنحدرون من الصلحاء الذين يلعبون دور الحكم عند حدوث منازعات والبيضان وهم الرحل القدامى والحراثون المشتغلون بالأعمال الزراعية والحرفيون. وقد حدث تغير في المواقع الاجتماعية لبعض الفئات لاسيما المالكون للأرض (البيضان) إذ تفتت ملكيتهم ففقدوا جزءا من مكانتهم الاجتماعية لصالح فئة الحراثين الذين استفادوا من عائدات الهجرة فأصبحوا يتملكون الأرض أما مجالات الرعي الحديث المؤطر من طرف الدولة فيتميز بتراتب اجتماعي متميز اعتمادا على معيار الأرض إذ يمكن التمييز بين ثلاث فئات وهي الفئة الدنيا التي تملك دون 5 هكتارات التي تعد في الاستثمار الفلاحي معفاة من الرسوم المؤداة عن تكلفة التجهيزات ، اما الفئة المتوسطة فتتراوح حجم حيازاتها للأرض ما بين 5و20 هكتارا في حين يمكن اعتبار الفلاحين المستغلين لعشرين هكتارا وأكثر، فئة كبرى.

أما المجالات البعلية فإنه يمكن استخلاص ثلاث فئات بها وهي فئة دنيا تستغل أقل من 10 هكتارات أي ضعف الأراضي المستغلة بمجالات الري المؤطر من طرف الدولة نظرا لضعف الإنتاجية الزراعية ويمكن اعتبار الفئة المتوسطية تلك التي تستغل مابين 10و30 هكتارا. أما الفئات العليا فهي التي تستغل أكثر من 30هكتارا.

لاشك أن هذا التراتب يعطي صورة تقريبية فقط نظرا لتدخل عدة عناصر أهمها تربية الماشية التي يصعب حصر أعدادها حسب كل فئة اجتماعية بفعل تقلبات الظروف المناخية وتغير نتاجها السنوي، كما تتدخل عناصر أخرى لتعديل التراتب الاجتماعي بالأرياف والبوادي مثل الأنشطة التكميلية التي يقوم بها الفلاحون أو بفعل عائدات الهجرة.

وبالنظر إلى الحواضر نجد التكوين الاجتماعي يختلف عما هو عليه بالأرياف والبوادي نظرا للتفاوت الوظيفي بين المجالين . ويمكن تصنيف الفئات الاجتماعية بالمدن إلى أربعة قبيل التدخل الاستعماري:

فئة الأعيان ويتكونون من موظفين كبار أغلبهم يمثل الجهاز المخزني (باشا – محتسب–ناظر الأحباس..) وكبار التجار وكبار الفلاحين القاطنين بالمدينة. أما الفئة المتوسطة فتتكون من التجار المتوسطين وفئة المثقفين (علماء..) أما الفئة الدنيا فتتكون من الحرفيين والصناع التقليديون(صناعة الجلود و الخزف ، والخياطة، الحدادة...) . وقد وقع تغير في هذا التراتب الاجتماعي إثر التدخل الاستعماري الذي أدى إلى تفكيك البنى التقليدية (إحداث صناعة عصرية وتهميش الصناعة التقليدية ، تحديث الإدارة ... ، حيث ترتب عن ذلك تغير في طبيعة الفئات الاجتماعية وفي المواقع التي تحتلها بالهرم الاجتماعي .

4-3 ـ التشكيلة الاجتماعية الحالية للمغرب هي من النمط الانتقالي المفكك:

إن الشكل الحالي للتشكيلة الاجتماعية للمغرب هي من النمط الانتقالي المفكك نظرا لوجود عدة عناصر متنافرة . نجد من جهة عدة أنساق ثقافية (عادات،إسلام وقيم غربية ...) ونجد من جهة أخرى أشكالا مجالية متباينة ومركبة في نفس القطاع الإنتاجي (فلاحة عتيقة إلى جانب نظيرتها التسويقية ... نظام حضري لا وظيفي) علاوة على مكونات اجتماعية متنافرة(قبيلة ، فئات اجتماعية شديدة التفاوت). وينضاف إلى ذلك أن تدبير هذه العناصر يتم في اتجاه الميز الاجتماعي المجالي . ويوضح الجدول التالي تكوين التشكيلة الاجتماعية في علاقتها بالنظم الرمزية للنسق الثقافي والتنظيم الترابي (النموذج 5).

النموذج 5 علاقة تكوين التشكيلة الاجتماعية للمغرب بالنظم الرمزية وتكوين التنظيم الترابي

نمط تكوين التشكيلة الاجتماعية	موروث قبيل 1912	انتقالي مركب 1912 - 1956	انتقالي مفكك بعد 1956
تطور فئات التشكيلة الاجتماعية	ـ فلاحون صغار -أرستقراطية زراعية ـ تجار ـ موظفو المخزن	بورجوازية استعمارية أرستقراطية زراعية ـ تجار وموظفون ـ عمال	ـ بورجوازية طفيلية ـ بورجوازية متوسطة وصغرى ـ بروليتاريا
المسلسل الداخلي للنظم الرمزية	ـ أعراف ـ تحكيم	ـ أعراف ـ تحكيم	ـ أعراف ـ تحكيم
المسلسل الخارجي للنظم الرمزية	إسلام (شرع إسلامي	ـ قانون وضعي ـ شرع إسلامي	ـ قانون وضعي ـ شرع إسلامي
تكوين التنظيم	تنظيم ترابي مفكك	تنظيم ترابي مفكك :	تنظيم ترابي متداخل

الترابي	بلاد المخزن بلاد السيبة	جهات مدنية جهات عسكرية	- جماعة - إقليم أو عمالة - جهة

تطور تدبير المجال	تدبير ذاتي	تدبير الهيمنة	تدبير الاندماج الراسمالي
مستويات التطور الزمني	زمن دوري	زمن خطي	زمن دوري زمن خطي

خلاصة :

كان الهدف من هذه المقالة هو وضع إطار عام لسيرورة النسق الثقافي وعلاقته بالتكوين المكاني - الاجتماعي للمغرب ، وذلك وفق نموذج تفسيري يؤطره مفهوم النسق الثقافي.ولا ندعي في هذا الصدد الإحاطة الشاملة بالموضوع الذي يتطلب تظافر جهود عدة نظرا لتشعب جوانبه .

وقد أفضى التحليل إلى نتيجة أساسية مفادها تنافر العناصر المكونة للتشكيلة المكانية - الاجتماعية للمغرب - والتي اصطلحنا عليها بالنمط الانتقالي المفكك - مقابل استمرارية دينامية النسق الثقافي الذي يراقب حركية التشكيلة الاجتماعية ويؤطر التنظيم الترابي رغم التحولات التي طرأت عليه .

إن قوة النسق الثقافي يستمدها من تفاعل النظم الرمزية الداخلية (استمرارية الأعراف والتحكيم) ونظيرتها الخارجية (الشرع الإسلامي والقانون الوضعي).

شكر :

أتوجه بالشكر إلى الأساتذة الذين ساهموا في إغناء الأفكار الواردة في هذه المقالة وهم الأستاذ بوشتى بوعسرية من كلية الأداب والعلوم الإنسانية بمكناس والأستاذ معروف الدفالي من كلية الأداب والعلوم الإنسانية عين الشق الدار البيضاء والأستاذ عمرو إديل من كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس ظهر المهراز .

الهوامش :

1) - تحول دفاع المغاربة عن بلادهم في إطار ما كان يعرف بالجهاد إلى دفاع سياسي وطني . وفي هذا الصدد يقول جرمان عياش (1978): "... الجهاد بدأ ضد البرتغاليين ، لكنه أصبح فيما بعد متوجها نحو الأتراك أيضا مع أنهم مسلمون ، بل كان الجهاد ضد الأتراك المسلمين بمساندة الإسبانيين المشركين ، ما أعجب هذا الجهاد. من المعقول إذا ، أن نستنتج من هذا كله أن الدفاع كان دينيا قلبا لكنه سياسي بل وطني قالبا " .

2) - من الصعب تحديد مفهوم الزاوية بالمغرب بدقة منذ ظهورها نظرا لتعدد وظائفها. فهي مركز لتجمع الأفراد ، يقوم بخدمات اجتماعية تستند على سلطة رمزية (البركة) ويمكن أن تقوم بأدوار اجتماعية أهمها الأدوار التربوية (تعليم) والسياسية (التحكيم في الخلافات بين الأفراد والقبائل والتوسط بين الأفراد والمخزن ،تعتمد جل الزوايا في إدارة شؤونها على ما يقدمه الأفراد من هدايا أو أوقاف. وفي الوقت الراهن ضعف دور الزوايا إذ أصبحت عبارة عن أندية لتجمع الأفراد .

3) - السيبة اصطلاح روج له المفكرون الاستعماريون لأهداف استراتيجية تبرر التدخل في شؤون المغرب والحد من سيادته. والواقع أن مصطلح السيبة يدل على القبائل التي تمردت عن سلطة المخزن والتي لم تنو الانشقاق أو الانفصال. وهذا ما لم يحدث في أي وقت إذ أن بعض المؤرخين مثل عبدالرحمان بن زيدان يستعمل في حق هذه القبائل جملة " لاتنالها الأحكام السلطانية".

مفهوم البورجوازية في تاريخ المغرب

ذ.ابراهيم بوطالب *

كان مؤرخونا فيما مضى مـن العصـور لايتعـاملون مـع التـاريخ إلا بحسب أبعـاده الدياكرونية فكانوا يكتفون بنقل الأحداث بعد التثبت منها اعتمادا على الروايـات الشفوية أو المكتوبة وينظرون إلى تصرف الأشخاص وإلى كيفية ظهورهم على مسرح الأحداث وإلـى تاريخ ميلادهم ووفاتهم أكثر مما ينظرون إلى منطق الأسباب والمسـببات وتفـاعل الأجهـزة الكبرى والمؤسسات وتأثير الكتل الإجتماعية والبنيات مما كان يجعل التاريخ عندهم روايـة أو قـصة تـستخرج أو لاتسـتخرج منها العبر وليس علما يثـير الفطنـة ويدعـو إلـى اسـتنباط العلل والمضاعفات .

أما المنهجية التاريخية العصرية فإنها ترى مـع عنايتهـا بـالبعد الديـاكروني الـذي هـو المادة الخام في هذه الصناعة أن لاسبيل للإستغناء عـن الأبعـاد السـانكرونية لمـا فيهـا مـن استجلاء الحقائق الاجتماعية والاقتصاديـة التي تتفـاعل علـى مـدى الأجيـال فيـتركب منهـا العجين الذي يعنى به المؤرخون فلا علم إلا بالكليات .

ولكن لكل نهج آفة وآفة النهج العصري الإنزلاق من استعمال بعـض أدوات التحليـل العلمي المحمودة إلى ما وراءها من المفاهيم التي قد تكون صـالحـة لمكـان ولزمـان معينيـن ولاتكون صـالحة لجهات أو أزمنة مغايرة فإذا كان من حقنا أن نعمل على تشريح أعمـاق المجتمع المغربي التقليدي لمعرفة ما كان يبدو منه وما كان ينكتم وما الذي كان يدعوه إلـى الحركة وما الذي كان يحمله على السكون فليس علينا مع ذلك أن نسقط عليه المفاهيم التـي لا تناسبه لا لشيء إلا لنقلـد العلمـاء الأوربييـن الذيـن ينعتـون الأمـور بمـا كـانت منعوتـة عندهـم فدرسـوا الفيوداليـة لوصـف أشكال الهيمنـة الاجتماعيـة فـي بواديهـم وكتبـوا عـن البورجوازية لأن ذلك كان اسم سكان المدن في ديارهم وصـاغوا عبارة الطبقة العاملة ممـا كان يقوم من النزاعات بين أصحـاب الأمـوال وأصحـاب الأجـور يـوم تفـاقمت الهـوة بيـن الجانبين غداة الثورة الصناعية .

أما نحن في المغرب فإن رسم تاريخنـا العـام يختلـف تمامـا عـن رسـم تـاريخ أوربـا ولايوجد في إرثنا المعرفي ولا في مابين أيدينا من المراجع التاريخية الوطنيـة أي ذكـر لا للفيودالية ولا للبورجوازية ولا للطبقة العاملة فلا يجوز أن نضع هذه المصطلحات على مـا قد نقف عليه في ماضينا من أشكال التفاوت الطبقي لا في البوادي ولا في
الحواضر ففي ذلك إخلال في نظري بمـا يتميـز بـه علـم التـاريخ الـذي هـو علـم الإنسـان بالدرجة الأولى كما قال مارك بلوك Marc Bloch والإنسان كيف ما كان نسيج وحده فريـد بمـكانه وبــزمانه وهـذه "الـفردية" دلـيل قطعي علىحريتـه والوقوف على تــلك الحرية

* أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الرباط.

واحترامها من أول واجبات المؤرخ ولاينبغي له إذن أن يسمي من يفحص من أجناس البشر بغير ما كانوا يسمون أنفسهم به وله مع ذلك أن يجتهد في إدراك طبيعة أنظمتهم وأن يقارن بينها وبين تجارب الأمم الأخرى فيميز بين المنفرد منها وبين ما قد يعتبر أصلا مشتركا وتلك هي الغاية التي نرمي إليها من السطور اللاحقة محاولين الرد على السؤال التالي : هل يحق لنا أن نستعمل مفهوم البورجوازية لوصف التشكيلة الاجتماعية الحضرية في تاريخ المغرب قبل الحماية ومتى يمكن اللجوء إلى هذا المفهوم لدينا بدون حرج ؟

I - بورجوازية أم لا بورجوازية في المغرب قبل الحماية ؟

سبق عدد من الباحثين إلى طرح هذا السؤال وإلى مناقشة بعض جوانبه لكن الذي يثير الانتباه من مباحثهم أنهم جميعا إن كانوا ينفون وجود طبقة بورجوازية في مجتمعنا التقليدي إلا أنهم مع ذلك لايتوقفون عن استعمال المصطلح لوصف بعض الشرائح الاجتماعية في مدننا قبل اصطدامها بالاستعمار.

1- فهذا روجي ليطورنو Roger Letourneau يتكلم في أطروحته عن فاس قبل الحماية ولايشير إلى سكان المدينة إلا بألفاظ مثل "الفاسيين" أو " المدينيين" وعند فحصه لأسباب الثراء بينهم يقول بأن بعضها كان على "جانب قوي من الشبه من حيث ما كانت توفر لهم من العيش الرغيد بأنماط عيش الشرائح العليا من البورجوازية الفرنسية في نفس الحقبة"(1) وغني عن البيان أن المشابهة ليست هي المماثلة المطلقة لكن ليطورنو لايلبث أن يضيف قائلا عن أرباب البيوتات الفاسية الكبرى :"إنها كلها كانت تنتمي لما قد نسميه بورجوازية على أن بورجوازية فاس كانت أوسع دائرة من ذلك فإنها كانت تضم المثقفين ولم يكونوا كلهم من الأغنياء وكتاب المخزن أو الأحباس والصناع الموسرين أو المنتمين لأجود العائلات في المدينة "(2) وكل ذلك تصريحات قابلة للنقاش .

ونجد نفس التردد لدى هذا المؤرخ بين نفي وجود بورجوازية في المدن المغربية لانتفاء أسباب وجودها وإصراره على وصف بعض الشرائح الحضرية على أنها منها وذلك في كتابه عن المدن الإسلامية في شمال افريقيا فيقول مثلا : " في رأيي أن التمسك العنيد للخلايا التي تتركب منها الحاضرة بذاتياتها هو أحسن مايفسر ندرة الهيئات المشتركة "(3) ويقول عن الحواضر إنها كانت هي : "ذلك المستند الذي يستند إليه الحكم المركزي والذي تسعى القبائل في زعزعته ولذلك فإن أدوار الحواضر سياسية أكثر مما هي اقتصادية في بلاد تتوزعها وحدات اقتصادية هزيلة منغلقة على نفسها ولا أثر فيها للتيارات الكبرى للمبادلات إلا في إطار سخيف محدود "(4) ويقول :"لاتقوم [الحواضر] على وحدات متماسكة البنيان بقدر ما تقوم على تكتل جماعات قبلية أو دينية تسعى في أن يتغاضى بعضها عن البعض الآخر أكثر مما تسعى في العمل الجماعي"(5) ويذكر عن جدارة بأنه كان لايوجد في فاس سوى حرفتان تعملان بغير الطاقة البشرية وهما المطاحن ومعاصر الزيت ويقول عن الحرفيين :" إن الوعي الحرفي يبدو لديهم أكثر حرارة من الوعي

الطبقي"(6) وفي ذلك دليل على انتفاء وجود الخصم الطبقي وهي البورجوازية ولكن ليطورنو لايتردد في استعمال المصطلح فيتحدث عن "الأحياء البورجوازية وعن " تونس وقسنطينة وفاس ومكناس"حيث البورجوازيـة ذات بـال "وعن مراكش" التي ينحصر فيها على العكس من ذلك النواة البورجوازية "(7) ويقول :"إن كل هذه الجماعات من المهاجرين على اختلاف تاريخ هجرتهم تتميز عن البورجوازية المحلية العتيقة التي تشكلت في الأصل من الانصهار التدريجي بين الفاتحين المسلمين والأرسطقراطية البربرية "(8) وكل ذلك أقوال مدخولة مثيرة للاستفهام .

2 ـ وهذا الأستاذ جان ـ لوي مييج Jean - Louis Miège يعقد فصلا تحت عنوان "التمدين والبورجوازية" وهو الفصل الثالث من القسم الخامس من المجلد الرابع من كتابه "المغرب وأوربا" وهو الفصل المخصص لتحليل بوادر الأزمة في مغرب القرن التاسع عشر من جراء التسرب الأوربي وهو مقسم إلى قسمين أولهما عن "النهضة الحضرية" والثاني عن "نهضة البورجوازية » وعلى مدى تلك الصفحات كلها يتأرجح القارىء بين ما تنطوي عليه لفظة بورجوازية من المعاني فهي تفيد المعنى الجغرافي وترادف لفظ "المدينيين" أو أهل المدن والقرى الكبرى وهي تفيد المعنى الاجتماعي وتوحي بتلك الطبقة التي تهيمن على المجتمع بأموالها المنتهلة من نشاطاتها الصناعية والتجارية والثقافية ولانعني مع ذلك أن الأستاذ مييج قد وقع في الخلط . كلا إنه على بينة تامة من أمره بدليل تنكبه عن استعمال لفظ بورجوازية في كثير من الحالات فيقول مثلا :" فلقد انهارت في الموانىء كلها الأطر الحضرية العتيقة"(9) ويشير إلى :"النزاعات بين القناصل والإدارة الحضرية"ويذكر تضخم "المدن الجديدة التي لم يكن لها سابقة في التقاليد الحضرية ولا في قدم البورجوازية"(10) ولايستعمل اللفظ هنا إلا للإشارة إلى اختلاف أنماط العيش في المدن عما كانت عليه في البوادي وذلك أمر بديهي ويتحدث عن البنيات الحضرية العتيقة ويقول :" إن الهيئة الحضرية قد تكاثرت خلاياها على غير انسجام "(11) .

لكن الألفاظ لها وزنها الخاص ولها إشعاعها المدركي الذي لاسبيل للكتاب أن يمسكوا دائما بزمامها فلقد وردت إشارات أخرى لدى الأستاذ مييج لا تخلو من هذا اللبس قال مثلا :"ولقد انجذب إلى هذه الموانىء بورجوازيون من الحواضر الكبرى وبدويون من الأحواز [...] واليهود بشكل خاص"(12) وقال :"إن ازدهار البورجوازية صار يطرد"(13) وفي نفس الصفحة يتكلم عن "البورجوازية الغازية" جاعلا العبارة بين هلالين وقال :"إن ذلك الارتقاء لايفيد البورجوازيين وحسب وإنما استفاد منه أيضا بعض أصحاب الأملاك الكبرى في البوادي "(14) لكن الأستاذ مييج لايلبث أن يصرح خشية زيغ المفهوم عن حدوده التاريخية قائلا :"لاينبغي المبالغة في المشهد فإن الحديث عن تعارض الطبقات قد لايخلو من الأناكرونية ومن تجاهل ظروف المجتمع المغربي في القرن الماضي فإن المعارضات والنزاعات لم تكن أسبابها اجتماعية "(15) مما لاجدال فيه . ولكن مابال الأستاذ لم يكتف بما كان المغاربة ينعتون به تلك الفئة الاجتماعية الحضرية فكانوا يطلقون عليها اسم وظيفتها في الاقتصاد فهم عندهم "التجار" أو "وجوه التجار" أو أعيانهم إن هم قصدوا من كان من بينهم يدير أو يختزن الأموال الكبرى.

3 ـ وهذا الأستاذ إدريس بن علي ينحو منحى مماثلا في كتابه عن المغرب قبل النظام الرسمالي فينفي وجود أسباب قيام الطبقة البورجوازية فيه ولكنه لايتردد عن استعمال المصطلح في وصف بعض الشرائح الاجتماعية الحضرية فيعقد فصلا تحت عنوان واضح وهو كالتالي :"عوائق قيام البورجوازية" ويقول عن فاس :"إنها تحتوي عمليا على أغلبية ما يوجد من الشرائح التجارية التي كان يحتمل أن تقوم مقام النواة الأولى للبورجوازية"(16) ويقول :"والواقع أن وسائل الإنتاج لم تكن إلا في جزء منها في ملكية الأقلية المحظوظة وإن البنيات القبلية والملكية المشاعة التي ظلت مهيمنة كل ذلك حال دون قيام بورجوازية من الصنف الغربي"(17) ويصرح في نفس الصفحة بأن الدولة كانت تعوق انبعاث البورجوازية مما لانقاش فيه فنسلم به ولكن ما بال الأستاذ ابن علي يعود فيقول :" إن غياب أو بالأحرى إن ضعف طبقة بورجوازية قادرة على الاستحواذعلى فائض الإنتاج[...] لم يمكن من استثمار ذلك الفائض في مقاصد النمو الاقتصادي"(18) فهل هناك بورجوازية أم لا بورجوازية هناك ؟

4 ـ وهذا الأستاذ عبد الله العروي في كتابه عن الأصول الاجتماعية والثقافية للقومية المغربية ينفي هو كذلك وجود بورجوازية في المغرب قبل الحماية لكنه لايتوقف عن استعمال المصطلح فإنه يذكر بما لانقاش فيه بأن المجتمع المغربي التقليدي كان منقسما إلى هيئات (أو Ordres بالفرنسية) وليس إلى طبقات مما لانقاش فيه . ويستدل بذلك كما سنفعل بدورنا بقوائم الموقعين على البيعات فيذكر بما يأتي فيها من أصناف الشرفاء والعلماء والطلبة ثم الأعيان مع وقفة عند صنف التجار الذين يعرف بهم الأستاذ العروي أحسن تعريف عندما يقول عنهم :"لفظة تاجر [جمع تجار] كانت لاتعني مجرد التاجر أيا كان ولكن التاجر الغني الذي تمتد معاملاته إلى الخارج وكثيرا ما كان يشار إلى تجار السلطان"(19) ثم يذهب إلى التساؤل عن الطبقة البورجوازية هل كانت موجودة في مغرب القرن التاسع عشر ويرى أن التجار كانوا عنصرا جديدا وسط أعيان المدن وفي ذلك نظر لأن صنف التجار في مدينة فاس مثلا أقدم وجودا من القرن التاسع عشر ولكن ما لاجدال فيه هو قوله بعد ذلك بأن التفاوت بين أولائك التجار وباقي سكان المدينة وإن كان ملموسا إلا أنه لم يكن تفاوتا طبقيا ويدلي بقولة للزياني عن المولى سليمان بأنه كان يعتقد أن أسياد فاس هم التجار وأصحاب الأموال بينما المعوزون فيها هم من لاثروة لهم ولا ثقافة فلا يطفون على سطح الأحداث إلا في حالات الفتنة والشغب(20). ويذهب الأستاذ العروي في باقي أطروحته إلى البرهان على أن سكان المدن بل المدن جملة وتفصيلا كانوا هم الدعامة الثابتة للمخزن على عكس الدولة في أوربا التي كانت دعامتها هي الطبقة الفيودالية . ولم تتخل عن هذا التحالف إلا عندما تطورت البورجوازية بما يكفي لتكون حليفا للسلطة المركزية ضدا على النبلاء مما لاجدال فيه في المجال الأوربي ولكنه معرض للدحض في المجال المغربي . وذلك أن الأستاذ العروي لايلبث أن يعود فيستعمل لفظ البورجوازية وكأنه لم يسبق له أن حذر من استعمالها فيقول :"لقد أدلت البورجوازية المخزنية بدلوها في المؤامرة السياسية"(21) ويتكلم في نفس الصفحة عن "الرابطات البورجوازية والرابطات الشعبية " ويشير إلى "البورجوازية التقليدية وقد تفوقت من جديد على حساب الجيش"(22)

ونقف على نفس التناقض في الخلاصة التي جاء فيها قوله :"ولذلك فإن تحليلنا التزم من أقرب ما يمكن بما كان مصطلحا عليه من العبارات فذكرنا الهيئات عوضا عن ذكر الطبقات"(23) وذلك في نظري عين الصواب. ولكن ما بال الأستاذ يقول بضع صفحات بعد ذلك ما يلي :"كانت هنالك سلفية أخرى ووجهتها بورجوازية صرفة ترمي إلى تلقين المغاربة والتجار منهم بصفة خاصة فضائل التوفير "(24) ، وكأن التوفيركان من خصال شريحة اجتماعية دون أخرى في مجال يوصي فيه الذكر الحكيم باذخار فائض السنوات السمان لخصاص السنوات العجاف. ثم إن المخازن والمطامير بدوية قبل أن تكون حضرية

5 ـ ولم يتخلص الأستاذ عبد الأحد السبتي هو كذلك من هذه النزعة الرامية إلى نفي أسباب قيام بورجوازية في مدينة فاس قبل الحماية مع إسقاط المصطلح مع ذلك على بعض سكانها فإنه يذكر في أطروحته القيمة عن الأرسطقراطية الحضرية والسلطان والخطاب العلمي في مغرب ما قبل الاستعمار التشكيلة الاجتماعية العتيقة بكلام الباحث الذي وقف على كل النصوص وبكلام ابن البلد الملم بخبايا الأمور فيقول بأن أسباب التراتب في المدينة كانت إما من النسب وإما من الحسب علما بأن ما ينطوي عليه هذان المفهومان من الدلالات عريض بعيد الأغوار. ومن جملة ما يذكر به الأستاذ السبتي أن كتاب المناقب كانوا يقولون عن فاس إنها زاوية وفي ذلك من الإيحاء مالا يخفى ولكنه هو أيضا لايتوقف عن استعمال المصطلح وكأنه لاغبار عليه فيشير إلى "الأسر البورجوازية"(25) مستعملا كلمة فرنسية مدوية وهي Dynasties قائلا إن ازدهارها قد ابتدأ في القرن التاسع عشر ويقول :"إن الشرف يساعد على تجاوز الوضعية الهشة للبورجوازية التي كانت تحت رحمة السلطان "(26) ويقول عن كتاب زهرة الآس إنه "جرد للبورجوازية التجارية"(27) .ويقول عن الأعرج السليماني إنه يحمل البلديين"نقائص البورجوازية التجارية"(28) . ويتكلم عن هشاشة الثروات البورجوازية جاعلا لفظة بورجوازية بين هلالين في هذه المرة (29) .

ولا علة لذلك ولاشك إلا من وجوب المزج بين البعدين الدياكروني والسانكروني في التحليل مما يوقع في آفة إسقاط المفاهيم الخاصة بمجال جغرافي وتاريخي معين على مجال آخر غريب عنها . ولاعبرة بذلك عندما يأتي من أمثال الأخوين طارو في كتابهما الرنان عن فاس وبورجوازيتها (30) لكنه مرفوض من قبل من له إلمام بالموضوع

II ـ التشكيلة الحضرية المغربية التقليدية : نموذج فاس

1 ـ **المدينة وجغرافيتها** : هل يجوز اعتبار فاس مدينة واحدة منسجمة في عصورها الكلاسيكية ؟ لقد كانت المدينة منذ أصولها الأولى مدينتين إحداهما على الضفة اليمنى لوادي فاس وهي مدينة الأندلسيين والثانية على الضفة اليسرى وهي مدينة القرويين ثم انضاف إلى هاتين الوحدتين مدينة ثالثة تضم أحياء العدوة والمخفية وبورجوع يوم تكاثر تيار المهاجرين من الأندلس. ومعلوم أن الدولة المرينية أقامت مدينة ثالثة لمخزنها وجيوشها فيما بات يسمى بفاس الجديد غربي الكتلة الحضرية الأصلية وفي الثلاثينات من القرن الخامس عشر [م] أقيمت مدينة خامسة لإيواء الجالية اليهودية وذلك فيما أصبح يعرف بالملاح حذاء دار المخزن في فاس الجديد بحيث لاوجود لمدينة فاسية موحدة لها

مركز واحد تنطلق منه كل الاتجاهات وتنتهي إليه كل الأزقة بل كانت كل مدينة تتماسك حول مسجدها الجامع وحول سوقها الكبرى باستثناء الملاح الذي كان ملتفا حول شارعه الرئيسي من كلا جهتيه . وكانت كل مدينة قادرة على أن تعيش عيشتها الخاصة وأن تقوم بشؤونها الذاتية في غنى تام عن جاراتها بدليل ما كان يفصل بين الجميع من الأبواب والحواجز الطبيعية كالنهر مثلا بين الأندلس والقرويين أو البساتين وفروع النهر بين فاس القديم وفاس الجديد وأشد ما كانت تبدو تلك المعاشرة الانفصالية يوم تكون الدولة في حالة ضعف وفي فتور من سلطانها فينعدم بذلك في آن واحد الحكم القادر على الفصل في النزاعات كما تنعدم تلك الكتلة السلطوية التي تشتغل القبائل في مواجهتها عن تصفية حساباتها الذاتية فتتوحد صفوفها لمدة من الزمن .

ولايخفى أن تلك التشكيلة الحضرية المجزأة بناء على طبوغرافية المدينة كانت تنم عن تقسيم أصيل يساير التقسيمات الموروثة فهو تقسيم قبلي إن لم نقل سلالي بل وتقسيم ملي قبل كل شيء . فحي الأندلس أصلا هو حي المهاجرين من الأندلس وحي القرويين حي من جاء من القيروان وبلاد الفاطميين يوم كان المغرب متأرجحا بين قرطوبة والقيروان . ولا أدل على أسبقية التقسيمات القبلية والملية من سكنى اليهود قبل إحداث الملاح في حي فندق اليهودي وهو ضمن حي اللمطيين شمال عدوة القرويين وحي اللمطيين هذا واضح الدلالة القبلية وقد تبلور في العصور الأولى من تاريخ المدينة(31).

ولكن التاريخ يدلنا على أن حي القرويين ازداد وزنه في المجموعة منذ أن أصبحت فاس هي عاصمة الملك في العهد المريني مما لايخلو من المفارقة لأن بني مرين كانوا قد أقاموا مدينة خاصة بهم في فاس الجديد إلا أنهم أقاموا في ذات الوقت عددا من المدارس حول مسجد القرويين فجعلوا من تلك الأحياء قطبا علميا وروحيا للمملكة برمتها فأحرزت فاس من يومئذ قصب السبق في أسباب التحضر ولما جاء دور الدولتين الشريفتين السعدية والعلوية كان من اللازم عليهما أكثر من غيرهما تدعيم أدوار فاس الثقافية فاشتد شأن المدينة في العصور الأخيرة سيما بعد اكتشاف قبر المولى إدريس في القرن الخامس عشر [م] وعناية السلطان المولى إسماعيل ببناء ضريح فاخر عليه وإقامة موسم كل سنة للتبرك به ومع ذلك عندما نطالع رسالة هذا السلطان إلى سكان فاس فإننا نراه يخاطبهم على أساس انقساماتهم الجغرافية والقبلية والسلالية وليس على أساس ما كان بينهم من التفاوت في الثروات فيقول :" وفي الحقيقة الأندلس واللمطيون هم أهل فاس وعمدة أهل فاس وأما غيرهم فما ثم إلا الدجاج الأبيض ومن لايعد لا في العير ولا في النفير من البلديين وغيرهم ..."(32).

2 - **بيوتات فاس الكبرى** : كانت فاس شأنها شأن كل الكتل الحضرية قديما وحديثا قائمة على بعض أشكال التفاوت وكانت تلك الأشكال تتمحي أو تنهار في لحظات التأزم والتسيب ولكنها سرعان ما كانت تعود إلى سابق الأعراف بمجرد العودة إلى السلم والسكينة ولعل المؤرخين لاينتبهون بما يكفي إلى أن ما كان يجري في البوادي من التغير ومن الارتجاج في الساكنة كان يحصل مثله تماما في المدن مع فارق واحد وهو أن المدينة كانت تتستر على تلك التقلبات الديموغرافية وراء أسوارها بينما كانت القبائل تخفي ذلك

وراء التنقل ووحدة الانتساب الوهمية . وكما أن القبائل القاطنة في سهل سايس منذ بزوغ الدولة العلوية مثلا ليست هي القبائل التي كانت تستوطنها أيام بني مرين فكذلك لم يكن سكان فاس في عصر أبي الحسن المريني هم سكانها في عهد المولى إسماعيل .

فمن البيوتات القديمة على شكل ما ذكرها ابن الأحمر ثم لخصها بعده عبد الرحمان الفاسي في السابع عشر(33) [م] لم يبق مذكورا منها بعد ذلك العصر سوى عدد محصور من الأنساب كآل الغرديس وآل القباب وبيت الصقليين إضافة إلى البيوتات المنتسبة إلى الأقاليم أو إلى القبائل كآل الفشتالي وآل الجزولي والزرهوني والورياغلي أو كألقاب الحرف كالسراج مثلا التي يتقمصها الناس جيلا بعد جيل لمجرد انحدارهم من تلك الجهات أو احترافهم بتلك الحرف وغني عن البيان أن هذه الألقاب من الصعب أن تفيد الاسترسال ولا الانسياق في النسيج الحضري .

أما إذا رمنا الوقوف على بيوتات فاس من خلال التقاط الدرر ونشر المثاني(34) فإننا نجدها قد تغيرت فطفت ألقاب أخرى لم تكن مذكورة فيما سبق. من ذلك قائمة الشرفاء حسبما رتبها المولى اسماعيل فبقيت على ذلك إلى حين الحماية الأجنبية ومن أولائك الشرفاء العلويون على اختلاف شعبهم والأدارسة وشرفاء جبل العلم. ومن وجوه المدينة في ذلك العصر"الأشراف" أو وجوه القوم غير المنتسبين للنسب الشريف لكنهم مرموقون في المدينة متصدرون كآل الفاسي وآل بني سودة وآل الشامي . ومن البيوتات المذكورة يومئذ بيوتات "البلديين" وهم جماعة ممن كان حديث العهد بالإسلام كآل جسوس وآل ميارة وآل الكوهن يضاف إلى كل ذلك الألقاب الجهوية والقبلية كالخصاصي والغزاوي والأندلسي والأوديي والدكالي والشرادي والسوسي وما إلى ذلك مما يثبت أن أصول البيوتات الفاسية كانت متنوعة مختلطة علما بأن اختلاف الألقاب لايغطي على عنف الأزمات التي كانت تؤدي أحيانا بأحياء كاملة من المدينة كما يشهد على ذلك القادري في عدة مقاطع من نشر المثاني . وكان لذلك من المضاعفات الاجتماعية ما وقف عليه الانجليزي جاكسون في أقاليم السويرة ولكنه ينطبق على باقي الأقاليم وفي المدن بالأحرى فإنه كتب قائلا على إثر وباء 1799 :" لقد تنقلت عبر ذلك الإقليم غداة إتيان الوباء عليه تمام الإتيان فرأيت الكثير من الخراب غير المسكون بعد أن كنت قد وقفت فيه على قرى مزدهرة ولما سألت عن سكان تلك البقايا المحزنة علمت بأن القرية التي كان عدد سكانها ستمائة نسمة لم ينج فيها من الهلاك إلا أربعة أشخاص [...] أما بعد مرور هذه الكارثة العنيفة الفتاكة فإنك ترى تحولا شاملا في الثروات وفي أسباب العيش فترى من كان قبل الوباء من عموم الفلاحين وقد أضحى ذا مال وله خيول ولايعرف حتى كيف يركبها [...] وكذلك ترى مواد التموين وقد انحطت أسعارها إلى الحضيض بسبب كثرتها [...] وترتفع في نفس الوقت أجرة الفعلة ارتفاعا كبيرا ..."(35) مما كان ينطبق مثله على سكان فاس وكان من مضاعفاته حركية اجتماعية عنيفة غير مرتقبة وتقلبات لاتستطيع الأعراف كتمانها في كل الحالات .

وهكذا كانت بيوتات فاس تنتسب على العموم إلى أربعة عناصر شأنها في ذلك شأن البلاد المغربية قاطبة فهي إما من أصل بربري وإما من أصل عربي ومن مهاجرة الأندلس

وإما من أصل يهودي وبذلك كان أهل فاس يميزون فيما بينهم إذا وقع الإلحاح عليهم في التمييز فلا محل في تلك التشكيلة للبورجوازية من الإعراب وإلا لوجب أن ندمج في تلك الشريحة كل من كان يشتغل بالتجارة الكبرى كأبي حسون السملالي صاحب إليغ فانظر إلى ما يمكن أن نصير فيه من المتاهات .

3 ـ **أنماط العيش العتيقة** : ولما كانت فاس مجموعة من المدن متميزة كان من اللازم أن تسلك كل واحدة منها مسلكها الخاص بها بحثا عن الرزق ولذلك كنت تجد حيثما قصدت من تلك الأجزاء الحضرية من يقوم بفلاحتها ومن يشتغل في الصناعة ومن يروج البضائع ويبدو أن الباحثين لم يعيروا ما ينبغي من الاهتمام بالنشاط الفلاحي لدى أهل فاس فإنه لايقل شأنا عن باقي القطاعات فإن كاتب هذه السطور نشأ في وسط بعيد كل البعد عن التجارة وعن الحرفة فنشأ في أحضان من كان شغلهم الشاغل إما العلم والتعليم وإما الفلاحة دون سواهما مما يكون عادة من وظائف المدن .ولعل سبب نشاط القطاع الفلاحي في مدننا كونها في الأصل واحات متناثرة في مجال يسيطر عليه الرعي والترحال وهل كانت فاس إلا واحة مسورةفي بسيط سايس قبل استقرار القبائل في عهد الحماية ؟ وهل تقوم الواحة إلا على أساس تربة صالحة ووفرة من الماء ؟ وقد كان لكل جزء من أجزاء المدينة مجالاته الفلاحية في الأحواز هذا فضلا عما كان داخل الأسوار من الأجنة والعرسات .

وقد يستطيع الباحث بعد إمعان النظر أن يقف على شيء من التخصص بحسب الأحياء وعلى تفوق قطاع على قطاع آخر من مدينة إلى أخرى فإن التجارة كانت مهيمنة في القرويين ولو لوجود القيسارية هنالك وهي السوق الكبرى أو عين السوق لوجود أنواع التجارات العليا كلها فيه كسوق البز والأقمشة الرفيعة وسوق الذهب والفضة وسوق العطارين . وكانت الصنائع مهيمنة في الأندلس ولو لمجرد قيام معظم الصناعات الملوثة في غربيه فيذهب مع الرياح الهابة من الغرب إلى الشرق على العموم ما يتطاير من روائح دور الدبغ أو دخان الفخارين فلا يتأذى بها السكان. وكانت الفلاحة تهيمن على حي العدوة ولو لمجرد أن الجزء الأكبر منه كان يدعى بالعراسي [جمع عرسة] فكان معظمه جنات وفدادين أما الوظائف العلمية فإنها كانت في كل مكان لوحدة الملة وحرص الجميع على القيام بالفرائض مع شفوف جامعة القرويين .

وهل كان يترتب على وجود ذلك التقسيم في الوظائف الاقتصادية تقسيمات طبقية أو بعض معالم التقسيم الطبقي ؟ لاجدال في أن التاجر في القيسارية كان أعلى رتبة من البقال في زقاق البغل مثلا . وصاحب الرياض الفسيح في العدوة مع ما له من الأملاك وراء زلاغ أو في قنصارة ببلاد الحياينة مثلا كان أعلى مقاما من الرباع المشتغل في " الجنانات " خارج الأسوار. وكذلك كان الدباغون العاملون في دار الدبغ أسمى درجة من الإسكافي المكب على غرز البلاغي في حانوته الضيق صحبة عدد محدود من المتعلمين ونفس الملاحظة تجوز في حق العالم الحبر المرموق بعلمه وتأصله في المدينة بالنظر إلى "الفقيه" المتواضع الذي يعلم الصبيان القرآن في الكتاب إما لأنه حديث عهد بالمدينة وإما لانهيار أوضاعه الاجتماعية لسبب من الأسباب . وقد تعري فترات التأزم والتسيب في

المدينة على بعض ما يوحي بالصراع الطبقي بين سكانها . من ذلك قضية مقتل الشريف المولى علي بوطالب على يد "واحد يدعى العماري رئيس الرميلة والكدان والصفاح من بني عمار أحد شعوب سكان جبل زرهون ورد على فاس جده فكان يسرح البقر حتى كفى فاشترى البقر لنفسه "(36) وسبب ذلك على ما رواه صاحب نشر المثاني نزاع بين الشريف المذكور والعماري ذلك في مسغبة عام 1150 [هـ] نشب من مزايدة علي "تليس[من القمح] جاء من البادية فاشتراه العماري بما شاء ولم يقدر أحد من المساكين يشتريه لما ساومه هو وأعطى فيه السوم" ولكن لما "جاء تليس آخر" تجرأ الشريف على الزيادة على العماري ففاز بالصفقة فكان من ذلك شجار وملاكمة خرج منها الشريف منتصرا " فدخل العماري إلى حانوته وأخذ كابوسا [...] وأخرجه في مولاي علي من خلفه وهو لايشعر" فأرداه قتيلا وقال القادري :"ثم في غده حمل السلاح شرفاء فاس الإدريسية وغيرهم وساروا إلى قتال العماري وأهل الرميلة والصفاح والكدان الذين ظاهروه ونصروه فاقتتلوا فسلم الله الشرفاء من الجرح والقتل وقتل العماري وعدة من أنصاره في القتال " فما تأويل هذا النوع من الصراع الذي كان يحدث منه الكثير في لحظات الفتنة وضعف السلطان ؟ هل كان صراعا طبقيا أم كان صراع العصبيات التقليدية ؟ فإذا اعتبرناه صراعا طبقيا فذلك في نظري لايتجاوز ما كان يقع في المدن الإيطالية في القرون الوسطى مثلا من الاصطدام بين الخاصة وكانوا يطلقون عليها لفظ Il Patoiziato وبين العامة أو الغوغاء في لغتنا وفي لغتهم Il Popolo أوبالفرنسية La Plèbe لكن قصة شرفاء فاس. والعماري المذكورة آنفا تكاد لاتخرج عن حيز الصراع العصبي وإن كان مسرحها بداخل أسوار فاس والحالة هذه فإن ما كان المجتمع المغربي يومئذ عليه من مستويات الإنتاج وأساليبه وأدواته كان لايختلف عما كانت عليه المجتمعات في العصر القديم . فتقسيم العمل كان في مراحله الأولى والمنتج كان هو البائع في آن واحد وأدوات العمل كانت لاتتميز عما كان معمولا به لدى اليونان والرومان من المحراث الخشبي إلى المعول اليدوي إلى الشفرة والمغرز. ودليل آخر على ذلك أن المدينة لم تكن تتميز عن البادية إلا من حيث تكتلها البشري النسبي وأما فيما عدا ذلك فإن المدينة كانت معتنية بفلاحتها مثلما كانت البادية قادرة على صناعة أدواتها المتواضعة ولذلك كان ما ينطبق على القبائل في البوادي من أسباب التفاوت الداخلي كان مثله ينطبق على المدينة ولقد ذهب نورمان سيكار إلى شيء من ذلك عندما قال :" إنك تكاد تجد ممثلين عن كل مستوى سوسيو-اقتصادي فقراء وأغنياء في كل حي "(37) ولعل أوضح مثال على ذلك الملاح نفسه الذي كان أحياؤه المطلة على باب الدكاكين أرقى بكثير من تلك التي كانت تطل على باب الجياف. وأوضح من ذلك قصة نزاع الشرفاء الطالبيين على ربيعة سيدي علي بوغالب فقد حصل أن رفض من كان مشرفا عليها منهم أن يدخلوا في القسمة اثنين من بني عمومتهم كانا ولدي أمة . لكن والدتهم لاذت ببعض أزواج المولى إسماعيل مشتكية لديها من ذلك الميز فلما أشعر السلطان بذلك أمر بأن تحتكر الربيعة على ذينك الولدين دون الباقي من الطالبيين"(38) . مما يوحي بأشكال الصراعات التي كانت تحرك المجتمع الفاسي ويثبت أن التقسيمات كانت عمودية على أساس طائفي وشبه عصبي ولم تكن أفقية على أساس المدخول أو المستوى

المعيشي ، وصورة ذلك واضحة في قائمة الموقعين على بيعة سيدي محمد بن عبد الرحمان ففيها ثلاثة مستويات ، مستوى الخاصة من أصحاب السيف من قادة الجيش والقبائل الجياشة وأصحاب القلم من الشرفاء والعلماء وشيوخ الزوايا ومستوى العامة وهم أرباب التجارات والحرف الكبرى أما الغوغاء وسفلة القوم وما إلى ذلك من الشرائح الاجتماعية الدنيا فلاذكر لهم في البيعة(39) . فلا وجود للبورجوازية لاحسا ولا معنى ولاينبغي في نظري إطلاق هذا اللفظ على أية فئة من فئات مجتمعنا العتيق لمجرد أن الأوربيين الذين تقاطروا على بلادنا في القرن الماضي احتاجوا إلى وصف ما كانوا يقفون عليه في مجتمعنا فنعتوه بما كانوا معودين عليه في ديارهم ومعلوم أن جانبا كبيرا من الوصف ينبعث من الذات فإن الفقيه الصفار التطواني مثلا عندما وصف المجتمع الباريسي في أربعينات القرن الماضي فإنه وصفه بما جاء ناطقا عن المغرب أكثر مما جاء دالا على أحوال فرنسا . ولاعبرة بفئة البلديين فالبلدي كل من هو من البلد (كما أن "بورجوا" في الأصل كل من هو من البورك) وتقول عن الذي يشاركك في المقام في بلدك إنه بلديك ، كما أن Citoyen هو كل من يقطن في Cité في الأصل . أما بعد أن أصبح لفظ Cité يعني البلاد برمتها وليس الحاضرة ، فإن الصفة انتقلت إلى مجموع السكان على اختلاف مشاربهم ، مما لم يحصل إلا مع انتصاب الدولة العصرية . ويبقى المشكل مطروحا لمعرفة ما هي الشرائح التي كانت تطلق عليها صفة البلدي ومن الذي أطلقها عليها ، أهم السابقون إلى سكنى فاس أطلقوها على أنفسهم أم من جاء بعدهم من باقي الآفاق من الأندلسيين والقيروانيين ومن البوادي المجاورة (40)؟

هذا ولا جدال في أن طارئا طرأ على المجتمع المغربي ابتداءا من 1830 حيث اشتد التسرب الأوربي وتفاقمت مضاعفاته بشكل حثيث مما صار يضع قواعد جديدة للتعامل المجتمعي . ويوم اختمرت تلك القواعد بعد الحماية عندئذ صار وجه المغرب يتغير وصار ينطبق عليه أوصاف جديدة .

III . البورجوازية المغربية وليدة الحماية :

1 ـ **البورجوازية الفرنسية أداة التغيير في المغرب :** لامناص من أن نحاول التعريف بمعنى البورجوازية في التاريخ الأوربي لندرك لماذا كان من المستحيل قيامها في المغرب قبل الحماية فندرك بالتالي أسباب تبلور صفوفها على العموم .

لفظ بورجوازية كما هو معلوم مشتق من لفظ "بور" بالفرنسية Bourg أو "بورك" باللغات الأنجلوساكسونية Burg أو "بوركو" باللغات المشتقة من اللاتينيةكالإيطالية والإسبانية والبرتغالية Burgo ومعناه القرية الممتدة أو الحاضرة وسكانها هم البورجوازيون [Bourgeois بالفرنسية وBurger بالألمانية (مع لزوم الانتباه إلى أن اللفظ في الألمانية يحمل المعنيين فهو المواطن وهو البورجوازي بحسب السياق) وBurguese بالإسبانية] ويثير الانتباه أن الإنجليزية تفضل كلمة Freeman أو الإنسان الحر لترجيحها المفهوم التاريخي الواسع على المفهوم الجغرافي الضيق لكلمة بورجوازية التي لاتفيد سكان المدن وحسب ، وإنما تفيد معنى آخر مضافا فهي مشحونة بالدلالات . وهي مفهوم صيغ في القرون الوسطى الأوربية يوم كان المجتمع هنالك تحت هيمنة الفيوداليين المالكين للأراضي

والمستخدمين للفلاحين فكانت الفلاحة هي أساس الإنتاج وكان من نتائج الصراع بين الفيوداليين وأقنانهم أن تولدت من ذلك طبقة جديدة تشكلت من كل من كان يفر من القهر الفيودالي أو يأتي غريبا من أبعد الأفاق كاليهود مثلا فكان هؤلاء جميعا يلوذون بالمدن والقرى فيتحصنون من وراء جدرانها ويرتزقون من التجارة والصناعة اللتين كان الفيوداليون في حاجة إلى منتجاتها ولذلك كانوا يتنازلون لسكان المدن عن بعض الحقوق ويغضون الطرف عن "حرياتهم" [Franchises] بأوفاق مكتوبة وعقود مضبوطة . وكانت أسماء بعض المدن واضحة الدلالة التاريخية مثل Villefranche في فرنسا وFreiburg في ألمانيا . ثم يوم انهارت صفوف الفيودالية مع بزوغ فجر العصر الحديث من جراء تناقضاتها الذاتية وصراعها مع العرش على السلطة فإن صفوف البورجوازية تعززت على النقيض من ذلك بفضل ازدهار التجارة الأوربية وانتشارها عبر العالم فتكدست الأموال في صناديقها وفي ما أنشأته من الأبناك وسارت بخطى سريعة نحو الثورة الصناعية والثورة السياسية فسيطرت منذ القرن السابع عشر في هولاندا وانجلترا ومنذ الثامن عشر في فرنسا والولايات المتحدة على أرقى ما صار يكتشف من وسائل الإنتاج وعلى مقاليد الحكم. ولما تمت لها تلك السيطرة على أسواقها الوطنية كان من الطبيعي أن تتشوف إلى السيطرة على أسواق المعمور كله فكانت الحركات الإستعمارية وكان التوسع الإمبريالي في القرن التاسع عشر وبداية العشرين . والبورجوازية بعبارة وجيزة هي تلك الطبقة الحرة الأوربية التي انتزعت من الفيودالية أول الأمر مجال المدن التي كانت تنشئها إنشاءا في كثير من الحالات وتستوطنها في عزة وإباء. ثم إنها الطبقة التي سيطرت بعد ذلك على أسواق المملكة وجعلتها حكرا عليها وتربعت بإثر ذلك على كراسي الحكم ومسكت بأيادي حكيمة بزمام الأمور باسم الديموقراطية وحقوق الإنسان وما إلى ذلك من الشعارات. وأخيرا فإنها جعلت أموالها مطية لتطويع العالم بأسره ولفرض منتجاتها وثقافتها على الجميع والبورجوازية إذن هي تلك الطبقة الأوربية المبتكرة لمدنها وللسوق الوطنية وللسوق الدولية والتي تولد من تناقضاتها الذاتية طبقة جديدة في القرن التاسع عشر هي الطبقة العمالية . قال كارل ماركس : "بمجرد ما تتحول البورجوازية من طائفة (Ordre) إلى طبقة فإنها تضطر لتنظيم صفوفها على الصعيد المحلي وعلى الصعيد الوطني كما تضطر لإعطاء بعد عالمي لمصالحها المشتركة "(41) .

وهذه الطبقة المتميزة في التاريخ هي التي جاء بعض عناصرها من فرنسا فأرغموا المغرب على الانضمام إلى السوق الفرنسية . وكان من ذلك ما كان من التغيير في البلاد في سنوات معدودات مما لم يسبق له مثيل في سالف العصور. وحيث لا يتسع المقام لتفصيل كل ذلك فيكفي الإشارة إلى أن الاستعمار إذا كان في الظاهر احتلالا واستغلالا للأرض فإنه في الأصل مقاولة Entreprise بنكية مالية لاستثمار الفائض من أموال البورجوازية الأوربية واستخراج الأرباح منها من الفلاحة إن كانت الفلاحة مربحة ومن الصناعة والتجارة بالأحرى لأنهما مربحتان حتما لمن يسيطر على السوق وكان المغرب عاجزا من جهة الرأسمال المذخر وكان مفتقرا لأدوات الاستثمار العصري وكانت خيراته الظاهر منها والباطن راقدة تنتظر من ينهض بها ومن يفكك البنيات العتيقة التي كانت

أسباب التغيير حبيسة في ثناياها إلى أن جاءت تلك الأسباب من الخارج لاستحالة قيامها من صفوفنا وذلك لانعدام طبقة بورجوازية مغربية وانعدام من يقوم مقامها مـن قريـب أو مـن بعيد فلاداعي لإطلاق إسم على غير مسمى.

2 ـ **تفكيك الهياكل الموروثة** : ومن مميزات البورجوازية الأوربية أنها نشأت على المسؤولية فهي التي أقامت أسوار المـدن يـوم كـانت فـي حاجـة إلـى الاحتمـاء وهـي التـي أطاحت بها يوم خرجت لاكتساح السوق الوطنية ثم السوق العالمية بعدها. أمـا فـي المجـال المغربـي فمـن علامـات انعـدام البورجوازيـة أن إحـداث المـدن وبنـاء أسـوارها كـان مـن مبادرات السلطان. وبالرغم من أن تلك المدن كان يحتشـد فيهـا مثـل مـا كـان يتشكل منـه بورجوازية المدن الأوربية فهي خليط من الشرائح الاجتماعية كما قـال وليـام بيتـيWilliam Petty في السابع عشر وردده بعده كارل ماركس (42) وبالرغـم من شهـادة صاحب المثـاني الذي قال إن "المـدن مـن أهـل الـورق (43) [بكسـر الـراء] فـإن عدم تطـور وسـائل الإنتـاج وأساليبه حال دون انصهار ذلك الخليط في بوتقة واحدة فبقيت الأسـوار القبليـة قائمـة حـول المدينة وبداخلها ، إلى أن كانت الحماية وجاءت بأدواتها الجبارة فهي التي وحـدت السـوق المغربيـة وهـي التـي جعلتهـا مجـالا متناسـقا مسترسـل التواصـل فتوحـدت فيهـا المعـايير والمكاييل والموازين التي كانت مختلفة من إقليم إلى إقليم ومن مدينة إلـى أخـرى بـل ومـن واد إلى إلى واد آخر . ومن أسباب توحيد السوق إدخال وسائل النقـل العصـري التـي كـان المغـرب مفتقرا إليها إلى حدود مطلع القـرن العشـرين فالعربـة كـانت حكـرا علـى السـلطان بينما كانت الجماهير المغربية لاتعـرف مـن أسـباب النقـل إلا الـدواب. وأمـا الأسـطول فقد انكسرت قواه منـذ عهـد أبـي الحسـن المرينـي ، وكـان فـي مجملـه أسـطولا للجهـاد وليس للتجارة. والحماية هي التي فتحت موانـيء البلاد على الخارج من جديد وهـي التـي شـيدت الطرق المعبدة والسكك الحديدية وجعلت الاتصال يسيرا بيـن أقصـى شـرق البـلاد وأقصـى غربها وبين أرفود في تافلالت وطنجـة فـي البغـاز فاشـتد الـرواج وتكـاثرت فـرص العمـل وصـار تجار فاس وتجار باقي الجهات ينفضـون عنهم الغبار ويشرئبون إلى أوسع مما كانوا يألفونه من المعاملات ، ومن أمارات ذلك الهجرة إلى الدار البيضـاء نافـذة السـوق المغربيـة المنفتحة من شبه لاشيء على السوق العالمية وكانت الدار البيضاء علامة أخرى علـى مـا كان للحماية من المضـاعفات وذلك من جهة اطراد النمو الديموغرافي بعد أن كفـت القبـائل عن الاقتتال وبعـد إدخـال أدوات التطبيـب الجمـاهيري والصحـة للعمـوم وأيضـا بفضـل مـا أضحـى متأتيا من تزويد السوق الوطنية بحاجياتها في السراء وفي الضـراء فقلت شيئا فشـيئا حدة المجاعة والوباء وساعد على ذلك من ناحية أخـرى العمـل بأسـاليب الثـورة الصناعيـة علما بأن القصد من ذلك هو الإنتاج الجماهيري.

وكان من عواقب الحماية في الأخير نفض الغبار عن الإرث الثقافي المغربي وتحرك الهمم لتجريده مما كان قد التصق به من الخرافات والرواسـب المشـوبة وذلـك عـن طريـق مقارنته بالثقافات الأخرى الناهضة المتوثبة فتبين من الاحتكاك الغث من السمين والصـالح من الطالح وما ينبغي الاحتفاظ به ليكون قاعدة للنهضة الوطنية وما لابأس بتركه لئـلا يبـق من المثبطات وهكذا صارت العوائق والحواجز التقليديـة تتـآكل فتنهـار وصـارت الفواصـل

الاجتماعية التي كانت عمودية فيما مضى تتحول إلى فواصل أفقية على شكل ما جرى في كل المجتمعات عقب الثورة الصناعية فخرج المغرب من طور الهيئات والطوائف المتكتمة كل واحدة منها على ما في صفوفها من التفاوت الطبقي إلى طور التوزيع الطبقي الازدواجي في المدن بين بورجوازية تسعى في المتمولات وطبقة عاملة تعيش من أجرة سواعدها .

3 ـ **نشأة البورجوازية** : إن التاريخ توقيت فلا مندوحة من محاولة ضبط تاريخ نشأة البورجوازية المغربية بناء على ما حددناه من المفاهيم . وحيث من المستحيل رصد أوقات طفوح العوامل الاجتماعية بنفس ماترصد بها موالد الأشخاص ووفياتهم أو مواعد المعارك من الضبط فلايمكن أن نقف على نشأة البورجوازية المغربية إلا بشيء من التقريب.وعندي أن أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات من قرننا هذا هي الحقبة التي تجلت فيها معالم التغيير الجماهيري في مجتمعنا من جراء هزات الحماية وحيث لايدخل التغيير على المجتمعات إلا عندما تتمسك الفئات الرائدة فيها بأسبابه فإن نخبة الحواضر المغربية صارت منذ تلك الحقبة تتحول إلى بورجوازية فصار اللفظ من يومئذ ينطبق عليهم لأمرين أولهما أنهم باتوا يدركون وضعيتهم الطبقية المتميزة وإن كان محمد بن الحسن الوزاني قد احتج على من كان من الاشتراكيين الفرنسيين يقول عن كتلة العمل الوطني إنها مجرد جماعة من البورجوازيين(44). كما أن علال الفاسي لم ير من البورجوازية إلا مساوئها فقال إنها الطبقة المنافقة(45) . الأمر الثاني وهو أخطر شأنا فلأن البورجوازية وظيفة أكثر مما هي موقع في التراب الوطني أو رتبة في المجتمع ولذلك يجوز في نظري أن نصف الخاصة المغربية التقليدية بأنها أرستقراطية من جهة سيطرة الجاه [الشرفاء وقواد المخزن مثلا] أو أنها أوليغارشية وهي سيطرة النخبة [كيفما كان سبب انفرادها بالسلطة] أو أنها أبلوطوقراطية وتلك سيطرة المال. ومن ذلك سيطرة اليهودي ابن مشعل يوم كان مسيطرا على شرق البلاد(46). فتلك مصطلحات واقفة عند حدودها اللفظية فلا خطر على المنطق العلمي من استعمالها في كل مكان وفي كل زمان مما لا يتأتى مع مصطلح البورجوازية لأن البورجوازية ثورة ولأنها ضرب من النضال فلاوجود للبورجوازية في المغرب إلا ابتداء من الثلاثينات من هذا القرن فيومئذ تبنت الشرائح الحضرية مسؤولية الإصلاح والإصلاح أمر عريض ممتد إلى كل مرافق الحياة. والبورجوازية هي التي ترسم معالم السوق الوطنية فتجعل منها مجالا موحدا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . وكان ذلك هو برنامج الحركة الوطنية منذ بلورتها الأولى لا في المنطقة السلطانية ولا في المنطقة الخليفية ومعلوم أن أقطاب تلك "الزاوية" المؤسسة [بكسر السن الأولى] كانوا من رجال المال أمثال أحمد مكوار والحسن بوعياد في فاس وعبد السلام بنونة في تطوان ولولا أموالهم لما كان لتنقلات الشباب الوطني من أمثال محمد بن الحسن الوزاني وأحمد بلافريج ومحمد داود والمكي الناصري أن تتم وماكان للصحف الوطنية الأولى أن تصدر مثل مجلة "المغرب" التي صدرت في باريس سنة 1932 للصدع بحقوق البلاد وبمطالبها وكان الممولان الرئيسيان لها هما أحمد مكوار وعبد السلام بنونة. وهذا أحمد مكوار يقول لعبد السلام بنونة يوم 15 دجنبر 1931 :" إن ما يبيته لنا

القوم لايحتمل التواني واستعداداتهم الظاهرة والخافية مخيفة تصور لنا شبح الخطر كما هو خالع العذار مكشرا عن أنيابه يريد ابتلاعنا بما لنا من ديانة وقومية ومميزات إلـى آخر ما أنتم به أدرى فمع هذا نبقى سائرين في تهورنا غير ضاربين لذلك حسابا. لا ، لا ، هذا شيء لايعقل فالواجب أن نمد الأيدي لتلبية نداء الله والوطن ...(47) . وغني عن البيان أن هذه الرسالة كتبت في لحظة الاحتجاج على الظهير البربري وهذا عبد السلام بنونة يكتب لشكيب أرسلان بتاريخ9 شتنبر1930 فيقول :" فليكن مولاي على ثقة من كون المغاربة استيقظوا من نومهم العميق بهذه الداهية الدهياء ومن لم يستطع أن يجهر بالقول فإنه يعمل لمقاومتها في خفاء"(48)، ويقول في نفس الرسالة : "فكرة مقاطعة البضائع الفرنساوية تسري سريان الماء بالعود [...] فعلى كل حال توجد بعض حركة لابأس بها ترمي إلى محاربة اقتصادية "مما يثبت الوعي الوطني لدى أولائك الرواد الذين لم يشيدوا السوق الوطنية ولكنهم تجندوا من يوم ما تأسست لانتزاعها من قبضة الاستعمار. وكان الحاج عبد السلام بنونة نموذج البورجوازي الثوري الواعي بنقائص الوطن الغيور على تنقيته من الشوائب التواق إلى تجديد أمجاده في هذا العصر وكان يعي أن لاسبيل إلى ذلك بغير النهوض بالتعليم وبغير إدخال أساليب العصر والمواكين على الإنتاج المغربي فهو بلا مبالغة أول مصلح في البلاد سواء بما أقام من المدارس أو بما أنشأ أو مول من الصحف أو بما شيد من المعامل لتوليد الكهرباء وصناعة السكر فكأنه رام أن يكون طبقة كاملة في شخص واحد .

وجاء بعده رواد آخرون وبورجوازيون جدد ، مولوا الحركة الوطنية من أمثال حمزة الطاهري والأخوين محمد وعمر السبتي ومحمد الغزاوي ممن ظنت الحماية غداة الحرب العالمية الثانية أنها تستطيع إشغالهم عن العمل الوطني بإشراكهم في بعض مقاولاتها فتلك كانت خطة المقيم العام إيريك لابون Eirik Labonne ولكن البورجوازية الوطنية ما كانت لتكتفي بالفتات وبالإنعامات الجزئية وهي تدرك أن السوق المغربية سوقها وكان النشيد الوطني يردد "المغرب لنا لا لغيرنا" .

وكان إلغاء الحماية سنة 1956 من أكبر إنجازات هذه البورجوازية الناشئة علما بأنها لم تقم بذلك بمفردها فإن الطبقة العمالية كانت إلى جانبها في تنظيم حركة الفداء في المدن ثم لما انضم الفلاحون إلى المعركة تحولت أداة النضال إلى جيش تحرير أرغم المعمر في حين قريب إلى التفاوض مع السلطان ومع الوطنيين على أساس الاستقلال. ولما لم تنفرد البورجوازية المغربية بتحرير المغرب فإنها عجزت عن الاستحواذ بمفردها على السوق الوطنية لضعف ما كان بيدها من الأموال فإنها لم تتوفر على أدنى بنك قائم من مجرد أموالها في عهد الحماية ولقد ظلت ملزمة بالاتكاء على الرأسمال الأجنبي إلى يومنا ويوم أقدمت الدولة سنة 1973 على محاولة إشراك الرأسمال المغربي في كل المقاولات الأجنبية بنسبة 50% على الأقل فإنه سرعان ماتبين عجز البورجوازية المغربية عن ذلك فاضطرت الدولة سنة 1983 إلى مراجعة قرارها ففتحت أبواب الاستثمار من جديد أمام الأجانب على مصارعها ولقد كشف الباحث السيد سعيد السعدي عن محدودية الرأسمال المغربي فأثبت

أن أقواه ما زال مذخـرا علـى الشكل العـائلي مثـل مجموعـة السـيد محمـد كريـم العمرانـي ومجموعة المرحوم علي الكتاني(49).

أما بعد فعسى أن أكون قد نبهت إلى ما في استعمال مصطلح البورجوازية في تـاريخ المغرب قبل الحماية من مخاطر الأناكرونية وإذا وقع المؤرخ في الأناكرونية فأين التاريخ ؟ فإن بعض المصطلحات منزوعة من المحايدة وحالما تستعمل في غير مكانها أو في غـير زمانها فإنها تخرج بالباحث من حيز العلم إلى حيز الخيال. والتاريخ علم الملموس بالدرجـة الأولى ولقد درست الأجيال المتلاحقـة مـن البـاحثين تـاريخ اليونـان وتـاريخ الرومـان دون اللجوء إلى لفظ البورجوازية لأنه كان مجهولا في تلك الأزمنة. وهل يخطر بــبال أحــد أن يصف قريشا بأنها من البورجوازية لا لشيء إلا لأنـها كانت تتعاطى التجـارة ؟ وهـل أقـدم الباحثون غير العرب على ترجمـة لفظ "الحديـث" أو لفـظ "الجهـاد" أو لفـظ "الفقـه" ؟ فهـذه مصطلحات حضرية مشحونة بالدلالات مضبوطة الآفـاق وهـي صفحـات تاريخيـة مختزلـة في كلمات مما لاسبيل إلى استعماله إلا في مكانه وفي زمانه وذلك شأن لفظ البورجوازيـة فإنه يوحي بأحوال وبتقلبات لم يكن منها شيء في مجالنا قبل الحماية ولـم تتبلـور صفـوف هذه الطبقة شيئا ما في المغرب إلا ردا على الاستعمار وعندما حملها مجرى التـاريخ العـام مسؤولية قيادة الحركة الوطنيـة وخلافـة البورجوازيـة الأجنبيـة فـي ترتيـب شـؤون السـوق المغربية وكون هذه الطبقة ما زالت مهزوزة الأركان في مجتمعنا دليل قطعي على حداثـة عهدها بالوجود .

الهـوامـــش :

1) ـ أنظر ص 488 من: Roger Le Tourneau - Fès avant le Protectorat , Casablanca, 1949

2) ـ المرجع السابق ص :488 .

3) ـ أنظر ص 16من R. Le Tourneau - Les Villes musulmanes de l'Afrique du Nord (Alger,1957)

4) ـ م . س. ص : 26.

5) ـ م. س. ص :45 .

6) ـ م. س. ص: 65.

7) ـ م. س. ص: 16.

8) ـ م. س. ص :31.

9) ـ أنظر ص :399 من Jean-Louis Miège- Le Maroc et l'Europe (1830-1894) P.U.F,Paris,1962,T.IV

10) ـ م. س. ص :400.

11) ـ م. س. ص: 402.

12) - م. س. ص : 404.

13) - م. س. ص : 403.

14) - م. س. ص : 405.

15) - م. س. ص :406.

16) - م. س. ص :407.

17) _ أنظر ص :226 مـن Driss Ben Ali-Le Maroc précapitaliste ,Rabat, Socièté marocaine des Editeurs, 1983

18) - م. س. ص :236.

19) - م. س. ص:235 .

20) _ أنظر ص : 105مـن Abdallah Laroui - Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912) Paris, Maspéro, 1977.

21) - م. س. ص :130.

22) - م. س. ص :285.

23) - م.س. ص: 423.

24) - م. س. ص:428.

25) - أنظر ص :125 من Abdelahad Sebti - Aristocratie citadine, pouvoir et discours savant au Maroc pré-colonial- Thèse IIIe cycle, Paris VII, 1984.

26) - م. س. ص: 51.

27) - م. س. ص :123.

28) - م. س. ص :153

29) - م. س. ص: 209.

30) - م. س. ص :202.

31) - Jean et Jérôme Tharaud , Fès ou les bourgeois de l'Islam ,Paris , 1930.

32) - أنظر: - Norman Cigar , Une lettre inédite de Moulay Ismaîl aux gens de Fès, Hesperis: Tamuda, 1974, p p :105 - 118.

33) - إسماعيل ابن الأحمر : بيوتات فاس الكبرى . الرباط. دار المنصور للطباعة والنشر 1972 وكان قد لخصه عبدالرحمان الفاسي في السابع عشر [م] ونشر في طبعة حجرية في فاس.

34) - محمد بن الطيب القادري : نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشـر والثـاني . تحقيـق محمـد حجي وأحمـد التوفيق. الربـاط ، مكتبة الطالب 1986.

35) - أنظر : James G. Jackson, An Account of the Empire of Morocco 3d edit. 1968, pp 173-174.

36) - محمد بن الطيب القادري : م. س. المجلد 4 ، ص :224 .

37) - أنظر: -Norman Cigar, Socièté et vie politique à Fès sous les premiers alaouites, Hesperis: Tamuda, 1978, p 114(p p 93-173).

38) ـ محمد بن الطيب القادري : م. س. المجلد 4. ص :228

39) ـ أنظر نص البيعة وقائمة الموقعين في مجلة الوثائق . العدد الثاني ص :352-337 مديرية الوثائق الملكية . الرباط 1976.

40) ـ Mercedes Garcia-Arenal, les Bildiyyin de Fès, Un groupe de néomusulmans d'origine juive, Studia Islamica, 1988, p p 113-143.

41) ـ Karl Marx, Lidéologie allemande; p.105 ,Paris , Editions Sociales , 1968.

42) ـ Karl Marx, Contribution à l'étude de l'économie politique , Paris, Editions Sociales , 1957.

43) ـ محمد بن الطيب القادري : م. س. ج 4 . ص : 156

44) ـ محمد بن الحسن الوزاني ، حياة وجهاد ، الدار البيضاء ،1984 ، ج 3 ، ص :108(على سبيل المثال).

45) ـ علال الفاسي : النقد الذاتي ، طنجة 1947 ، ص :9.

46) ـ ينظر إلى جانب المراجع المغربية المعروفة (الإفراني والزياني والناصري مثلا) مقال :
De Cénival, P, La légende du Juif Ibn Mech'al... Hesperis, 1925, p p 137 - 218.

47) ـ الطيب بنونة ، نضالنا القومي ، طنجة ، مطبعة جسوس ، 1980 ، ص :286.

48) ـ المرجع السابق ، ص :388.

49) ـ Mohamed Saïd Saadi , Les groupes financiers au Maroc .
الرباط ، نشر عكاظ ، 1989.

المجتمع الفاسي خلال العهد السعدي التراتبية والصراع **

ذة. نفيسة الذهبي*

إذا كان من الصعب استيفاء الحديث عن مكونات مجتمـع مثـل مجتمـع مدينـة فـاس (1) نظرا لانعدام المصـادر الكمية التـي تسمح بـالتدقيق والمقابلـة فـإن الشـرائح الاجتماعيـة المؤسسة ، أو التي وفدت علـى المدينـة في شكل هجرات اندمجت فيمـا بينهـا وأحسـنت استغلال الموارد الطبيعية وإمكانات المجال لتصبح فاس ــ العاصمـة الإدريسـية المنشـأة ــ نموذجا حضريا متطورا في مغرب القـرون الوسـطى صـح فيـه قـول مؤلـف المعجب بـأن احتياج المدينة إلى العطـر الهنـدي استثناء لأنهـا فيمـا عـدا ذلـك كـان بإمكانهـا أن تحقـق اكتفاءها الذاتي(2).

من المؤكد أن التطـور المشـار إليـه فـي سياق هـذه الشـهادة يرجـع إلـى التكـامل فـي الأدوار الوظيفية بين تلك الشرائح والفئـات بعـد أن اسـتغلت الـثروات الثابتـة والمنقولـة ، واكتسبت المهارات الحرفية المتنوعـة ، والمؤهـلات الفلاحيـة والتجاريـة...ليصبـح مجتمـع المدينة مجتمعا انصهرت فيه العناصر البشـرية المختلفـة وأقـامت حياتهـا الاقتصـاديـة علـى أساس اعتبار المصالح المشتركة. غير أن مكونات المدينة وتاريخها خلقا كثيرا من عناصر التنافر والتنـاقض وهـو ماسـنحاول تلمـس بعـض معالمـه فـي إطـار الحديـث عـن التراتبيـة والصراع وقد قسمنا حديثنا إلى ثلاث نقط :

- مكونات المجتمع :

العناصر الأساسية التي تألف منها مجتمع فاس هي :

* - العنصـر البربـري : الذي شيدت المدينة في مجاله الجغرافي والقبلي(3).
* - العنصـر العربـي : ويتمثل أساسا في الهجرات الأندلسية من قرطبة بالخصـوص (4) ثـم من غيرها من الحواضر وقد سكن الأندلسيون الأوائل في العـدوة الجنوبية على الضفة اليمنى لواد فاس وهي العدوة التـي حملت اسمهم . أما العنصـر القادم من القيروان فقد اسـتوطن العـدوة الشمالية على الضفة اليسرى من الواد وسميت باسمهم أيضـا(5).
* - اليهـود: استوطنوا المدينة منذ عهود مبكرة وقد قدموا إليها مـن جهـات مختلفة وعبر مراحل تاريخية متفرقة (6) واستطاعوا الاندمـاج فـي بنيتها الاقتصـادية بسبب اشتغالهم بعدد من الحـرف والأعمـال التجارية مما جعل لهم حضورا بين باقي الفئات غـير أن محاولـة الاندماج مع المسلمين والسعي إلى تـحقيق المسـاواة سـتجعلـهـم

* - أستاذة باحثة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة.

يدخلون في حلقات من الصراع سوف نعودلرصدها لاحقا.
والملاحظ عموما هو أن الهجرات من فاس وإليها لم تتقطع على مدى تاريخها سواء من القبائل والمدن المغربية أو من حواضر الغرب الإسلامي ولو أنها اختلفت تبعا للظرفيات التاريخية مابين هجرة كثيفة أو هجرات متفرقة.
ونقف عند ذكر المجموعات السكانية الجديدة منذ العصر المريني وبعد بناء فاس الجديد أو "المدينة البيضاء" ظهرت فئات لها صلة بمؤسسات المدينة العسكرية ، ووظائفها القائمة أساسا على خدمة السلطة المرينية وهو ما يفصح عنه نص ابن خلدون بعد حديثه عن الظروف العامة التي انتهت بتمهيد أمر المغرب لأبي يوسف يعقوب بن عبد الحق (7) يقول :"...رأى أن يختط بلدا يتميز بسكناه في حاشيته ، وأهل خدمته ، وأوليائه الحاملين سرير ملكه..."(8) وتتعزز الإشارة إلى الطابع المخزني بحديث مؤلف وصف افريقيا عن تقسيم المدينة الجديدة إلى ثلاثة أقسام على أساس الوظيفة والخدمة المخزنية(9).
وإذا كان نزوع السلطان لاختيار إطار بشري يثق به واضحا فإننا نستشف من نفس المصادر أن العناصر القادمة معه إلى فاس كانت تنتمي إلى قبائل مختلفة من المغرب كما أن هناك إشارة صريحة إلى وجود عناصر من أهل الشام ضمن الحرس الخاص بالسلطان .
أما بخصوص اليهود فقد ارتفع عددهم في المدينة الجديدة بعد أن استقدمهم السلطان أبوسعيدعثمان(10) من المدينة القديمة وذلك عقب الثورة التي ذهب ضحيتها عدد كبير منهم (11) ثم سمي من نجا منهم بالمهاجرين، وقد ذكر أبو القاسم الزياني هذا الإسم وعقب قائلا "فكانوا يعايرونهم بذلك فصار ذلك الاسم علما على من أسلم منهم إلى الآن"(12) والملاحظ ان تسميتهم خضعت للتطور فعرفوا بعد هذا التاريخ "بالاسلاميين"(13) ثم "بالبلديين"(14) ، ولاشك أن وصول الهجرات الأندلسية المتأخرة بعد سقوط غرناطة وصدور قرارات الطرد خلال القرنين 16م و17م قد ضاعفت نسبة العنصر الأندلسي داخل المجتمع الفاسي باعتبار توفير شروط العيش الذي اعتاد عليه الأندلسيون ولوجود روابط روحية ، وعلمية تنامت بين العدوتين عبر فترات تاريخية طويلة (15) وقد حظيت فاس بإقبال من عامة الأندلسيين وخاصتهم (16)كما استقبلت أفواجا من المهاجرين التلمسانيين بعد أن رجحت كفة السعديين ، وظهرت بوادر الاستقرار ، وإن كانت العلاقات والهجرات العلمية مع تلمسان أقدم من هذا التاريخ وخاصة هجرة العلماء ومنها استقرار أسرة الشيخ أحمد المقري(17).
واستقطبت فاس هجرات بدوية من سهول المغرب وجباله (18) كما تعرضت جل مصادر الفترة الحديثة لقبائل الجندية التي عمرت فاس الجديد وأهمها شراكة ، الأوداية ، شراردة ، أولاد جامع وأهل سوس وأهل تافيلالت الذين تزايد عددهم بعد المرحلة السعدية (19) .إلى جانب الأفارقة السود الذين وجدت منهم نسبة هامة إلى حدود العهد العلوي الأول
يتبين من كل ذلك أن هناك عمليات استقبال جديدة في فاس خلال المرحلة الحديثة التي نعنى بها والتي لم تعرف فيها الفئات كثيرا من الانسجام بفعل التسابق إلى الحظوة بالمكانة الاقتصادية والاجتماعية المناسبة ، كما أن الحديث عن أسباب التوتر التي كانت

تظهر أثناء الأزمات بين سكان العدوتين ، أو بينهم وبين سكان فاس الجديد ستزداد وضوحا في المرحلة المدروسة نظرا لبروز تناقضات أخرى زادت من حدة التفاوت المادي والمعنوي لذلك سوف نلاحظ وجود صراعات حادة وقوية، بل دموية أحيانا أذكتها عناصر التراتبية ومقاييس المجتمع التي لابد لفهمها من تقديم وصف عام لخلايا المدينة :

1 ـ مجتمع فاس القديم :

اندمجت عناصره بحكم تقارب المصالح ، وتماسك العلاقات غير أن كل الدراسات الحديثة تؤكد على أن وحدات هذا المجتمع نفسه وحدات مركبة يميز بينها التفاوت المادي والمعنوي ، لكنها تنسى خلافاتها أمام الأزمات السياسية الكبرى التي شهدها تاريخ المدينة بوجه عام.

ـ ظل أهل فاس العتيقة يمثلون مهرة الصناع ، ومراكز الإنتاج ومقر الأسواق العامة والمختصة(20).

ـ تكونت داخل المدينة القديمة فئة من الأغنياء أصحاب رأس المال الذين عملوا على تنشيط التجارة، وتوسيعها، وبذلك كان لهم وزن وتأثير على اقتصادها ، وبالتالي على سياستها.

ـ توفرت في أسواقها السلع الاستهلاكية ، والمواد التكميلية المحلية أو المجلوبة مما ساعد على خلق مظاهر حضارية بدت في الرونق المعماري ، وفي مستوى العيش والذوق بشكل عام.أما المجموعات الكبرى التي تألفت منها المدينة القديمة فهي:

* سكان الأحياء الواقعة في شمال غرب المدينة ونجد ضمنها : الطالعة ، الشرابليين ، فندق اليهودي ، الصاغة ، سويقة ابن صافي ، زقاق الحجر ، زقاق الرمان ، القطانين ، كرنيز ، وتدعى هاته المجموعة اللمطيين ـ نسبة إلى لمطة وهي المنطقة البربرية شمال فاس ـ وجل هؤلاء ارتبطوا مع بوادي المنطقة ، وكانت لهم وحدتهم وسماتهم السياسية القوية.

* سكان العدوة(21) وتدخل فيها أحياء : المخفية ، الكدان ، الأقواس ، الجزيرة ، سيدي العواد ، وسكانها أقدم المستقرين ومن بينهم عائلات كانت لها الكلمة المسموعة في توجيه سياسة المدينة ، إن لم نقل سياسة البلاد .

* سكان عدوة القرويين الأندلسيو الأصل وقد سكنوا أحياء : السياج ، العيون ، القلقليين ، رأس الجنان ، الجرف ، الدوح. وكان لهم اتصال وثيق بأهل العدوة ودور في سياسة المدينة ـ رغم حداثة الاستقرار(22).

2 ـ مجتمع فاس الجديد :

ـ ميزه الطابع البدوي ، والطابع العسكري المخزني بالمدينة مع ملحقاتها ، قصبة الشراردة ، وقصبة الفيلاليين ، وقصبة أبي الجنود التي ظلت منذ نشأتها موطنا لرؤساء الجند وعائلاتهم ، إلى جانبه رجال المخزن(23).

* لم تتوفر لسكانها ـ بحكم التاريخ والوظيفة ـ خبرة سابقيهم ، أو كفاءتهم سواء في الحرب والتجارة، أو في اكتساب العلم وتوارثه.

* ضمت المدينة أكبر نسبة من اليهود ، وهم الذين وكلت إليهم أعمال الصياغة ، فلم يكن المسلمون يقبلون كثيرا على ممارسة هاته الصناعة : " إذ يقال إن بيع المصوغات ... بثمن أعلى مما يساويه وزنها يعتبر ربا "(24) . وقد وجدت مراكز الصاغة بقرب دار السكة وكان أمينهم يحتفظ بقالب المعادن ، وأختام النقود:"فلا يمكن أن يصنع بفاس خاتم أو أي شيء من الفضة والذهب إذا لم يكن المعدن مختوما بقالبه"(25).

- لاتعنى هاته الإشارات أن هناك انقطاعا بين المدينتين بل الحاصل أن التعاون والتكامل طبعا علاقتهما العامة ، ولم يظهر الخلل إلا في فترات الاضطراب .

بعد هذا الوصف الأفقي لابد من الإشارة إلى وجود عمال مارسوا مهنا اعتبرت محتقرة من قبل الفاسيين عموما ، كالعمل في الحقول ومعاصر الزيت ، والمطاحن ...(26) كما وجدت فئات من الغرباء ، والعبيد ، والمشردين.

والواضح أن المدينة خضعت لعدة مؤثرات ، وأن علاقات سكانها كانت معقدة حتى داخل الفئة الواحدة مما يدفعنا إلى طرح بعض التساؤلات الخاصة بمظاهر الصراعات وأسبابها ، وأيضا بنوع التراتب والمقاييس التي تحكمت فيها .

.مقاييس التراتب :

لم يأخذ التفاوت في فاس - ما قبل الرأسمالية - نفس الحدة التي قد يتصورها الباحث للصراعات الاجتماعية. غير أن المؤكد هو وجود أسباب خفية أذكت التمايز، وقننت التسامح في آن واحد، أسباب دعت إلى قيام مواجهات دموية أحيانا ، ولم تسمح بتجاوز حدود الخلافات والمناقشات أحيانا أخرى. وقبل أن نتعرض لذكر التناقضات التي ظهرت بين أهل فاس ، أو مع أهل فاس في جل فترات التغيير السياسي سوف نعمل على تحديد مقاييس التراتب.

أ - مقياس النسب :

- **الشرفاء** : أخذ مفهوم الشرف منذ تأسيس الأدارسة الحسنيين بعدا خاصا داخل فاس ، فالشرفاء "معظمون بها أكثر من غيرها من البلدان"(27). ويقترن بهذا التعظيم مدلول مصطلح "البركة" التي يمكن اعتبارها استمدادا من كل مايقرب من الرسول ص ، والتفاؤل به. ولاشك أن هذا الشعور الذي يتحدث عنه ابن السكاك إلى حدود تاريخ وفاته في مستهل القرن 9هـ / 15 م ظل نافذ المفعول ، مؤثرا على العاطفة الشعبية مما جعل العامة يتقربون من الشرفاء وخاصة أثناء الأزمات ، فالأدارسة مثلا "تبرك الناس بشهادتهم في الصدقات ، ويتوسلون بهم في الشفاعات ، ويستسقون بأطفالهم في الاستسقاءات"(28) .

كما حظي الأشراف إلى جانب تقدير العامة بعناية السلاطين منذ عهد أبي عنان المريني ، وإن كان الأمر قد اقتصر على فروع معينة آنذاك - وخاصة الأدارسة - فإن بداية الدول الشريفة كانت منطلقا لترسيخ هذا المفهوم ، ولتطوير مؤسسة النقابة التي وجدت رسميا منذ العهد المريني وأصبح لها نقيب يمثل نوعا من المرجعية والرقابة على سائر الأشراف(29).

وربما يكون للحظوة والإعفاءات ، وإغداق المنح عليهم تأثير في ظهور انتحال الإنتساب وظهور المختصين في ضبط الأصول الشريفة بعد أن تشدد السلاطين في تمييز

الصرحاء من المنتحلين(30). أما الفروع التي وجدت بفاس حتى العهد السعدي فكانت متعددة ، منهـا أحفـاد المولـى إدريـس كـالجوطيين والعمرانيين ، ومنهـا الطـارئين كالصقليين،والعراقيين،والقادريين،لكن الحديث عن الشرفاء كأصول لايعني أنهم كونوا فئة اجتماعية متماثلة بل كانوا فئة مركبة مختلفة من حيث المستوى الاقتصادي ولذلك صنفهم ابن السكاك على أربع مراتب :

* فمن كان له أبوة قائمة بدار السلطنة قيل له سيدي سيدي.
* ومن كان من أبناء الأغنياء والتجار قيل له سيدي الشريف .
* ومن كان أبوه مقتصدا ليس بغني ولا مفتقر لأحد قيل له الشريف .
* ومن كان مفتقرا ، أو في صنعة خاملة كالحياكة قيل له الشريف بالتصغير(31).

والواضح أن التمايز بالثروة والوجاهة يشمل جميع فئات المجتمع بدون استثناء لكن الهالة التي أحيط بها ذوو النسب الشريف مردها في الغالب هو اعتقاد العامة فيهم وأكثر من ثرائهم كما أن الخلافات التي طبعت تاريخ هذه الفئة مع باقي العناصر تتعلق غالبا بمبالغات بعضهم ، وبظهور نوع من الاستعلاء والتعصب وربما من هنا جاء الخلاف بينهم وبين البلديين مثلا فضلا عن كون المنافسة قد تظهر أحيانا بين فرعين شريفين دفاعا عن المكتسبات المادية(32).

وكيفما كان الاستنتاج حول ترتيب العلاقات مع الشرفاء فإن وزن الشرف كان كبيرا داخل المدينة ، وقد أصدر السلطان السعدي أحمد المنصور رسوما سلطانية تثبت شهرة شرفاء فاس ، ونسبهم عدت بمثابة موجب شرعي لحقوقهم (33).وسوف نلاحظ في العصر العلوي الأول مسايرة السلاطين لهذا النهج وحرصهم على ضبط الأنساب الشريفة ومراعاة حقوق هذه الفئة مع إصدار بعض القرارات الجديدة(34)

* **العنصر العربي الأندلسي:** مثلت الفئات العربية الأندلسية نسبة هامة ضمن مكونات المجتمع الفاسي . ويظهر أن هاته الجماعات ظلت تفتخر بأصلها الشيء الذي جعل عددا من علماء فاس ينكرون ذلك ويتهمونهم بجهل التطور الذي يحصل في الأنساب كقولهم : " لأنهم ظنوا أن الأندلس لم يسكنها غير الأوس والخزرج من الأنصار وما دروا أن الحملات والهجرات الإسلامية إلى الأندلس تعددت ، وشملت أخلاطا من الأعراب ، والبربر بالإضافة إلى القوط ، والصقالبة ، واليهود وغيرهم ممن اعتنقوا الإسلام وامتزجوا امتزاجا كاملا بالمسلمين "(35).

وما يستنتج من تتبع سيرتهم داخل المجتمع إلى جانب الملاحظة السابقة هو كونهم ظلوا يؤلفون مجموعة محافظة على مكانتها ، وعلاقاتها ، كما أنهم مثلوا قسما هاما من ذوي الجاه ، والثروة ، والعلم كما وجدت نسبة كبيرة منهم ضمن العامة.

* **البلديون** : مصطلح استعمل في نصوص التاريخ الحديث لتمييز اليهود الذين أسلموا وليس لهم أصل ينسبون إليه غير البلد وقد طرحت مسألة العلاقة بينهم وبين المسلمين عدة قضايا مردها إلى نظرة كل منهم للشكل الأمثل في المعاملات وكان التوتر في العلاقات بينهم سببا في عدد من الأحداث والصراعات.

ب ـ مقياس الثـروة :

من الواضح أن المجتمع الفاسي كغيره من المجتمعات الحضرية ضم في تشكيلته أربع مستويات :

* الأغـــنـيـــاء : تستعمل المصادر هذا المصطلح كمرادف لكلمة"الخاصة" أو كقسم هام منهم ، والملاحظ أن أصحاب الثروة في فاس هم زيادة على الأعيان كل من توفرت له الإمكانات المادية ، كالتجار الكبار ، وملاك الأراضي ، ورجال السلطة والسياسة.

* التـــجـــــار: ساهم تطور المعاملات التجارية والنشاط الحرفي في تنمية دور التاجر ، وفي خلق مستويات تجارية.

* الطوائف الحرفية : يمثلها المشتغلون بالحرف سواء كانوا مأجورين عمالا أو أصحاب رؤوس الأموال ، كما يندرج فيها الصناع المبتدئون والملاحظ أن القطاع الحرفي كان يستوعب أكبر نسبة من العامة(36).

* العـــبيـــد : إن تحديد عددهم أو أصولهم أو الحديث عن فترات دخولهم إلى فاس أمر عسير لكن جميع المؤشرات تدل على أنهم مثلوا جزءا من تجارة المغرب(37) وأنهم وجدوا بكثرة في مدينة فاس ، وخدموا الفاسيين في بيوتهم وقصورهم ومستغلاتهم وربما تتجلى أهمية الخدمة وارتفاع النسبة في رد الفعل الذي سيعرفه مجتمع فاس أمام قرار السلطان العلوي المولى إسماعيل بجمع الحراطين لتكوين جيش العبيد أما تجارة الرقيق في فاس فلم تنته إلا بقرار منع صادر عن المخزن العلوي في مستهل القرن العشرين.

ج ـ مقياس العلـم :

لن نقف في هذا السياق عند التساؤلات كيف ؟ ومتى يعتبر الشخص عالما(38) ولكننا نهدف إلى إظهار دور النخبة المثقفة ومدى تأثيرها سواء في مجال المشاركة والتدريس ، أو في ميدان الاضطلاع بالوظائف الشرعية والقانونية . لذلك قسم الدارسون العلماء إلى مجموعتين (39)، مجموعة تشغل الوظائف الشرعية مثل القاضي ، والمفتي ، والخطيب ... أو المناصب الاقتصادية كالمحتسب ، والأمناء (40).

ومجموعة ثانية تشغل وظائف التعليم ، وإن عد التدريس في المرتبة الثانية بالمقارنة مع الوظائف المشار إليها ، فإن مهمة التعليم وخاصة بجامع القرويين لم تكن توكل إلا لكبار العلماء فهم الذين يستحقون لقب "عالم" أكثر من غيرهم (41).

ويتعين على الباحث تصور نوع التفاوت الذي تمثله الدرجات العلمية ، والمناصب ، وهو مايظهر على مستوى الأجور الممنوحة ، والهبات ، والهدايا المخزنية السخية أحيانا نظرا للدور المعنوي الذي يلعبه الأساتذة من حيث التوعية الدينية ، وخلق الائتلاف بين العامة وفي إطار التوفيق بين الواجبات الشرعية وما يتطلبه جهاز الدولة من تعديلات أو إصلاحات أحيانا.

ونشير عموما إلى أهمية مكانة الأساتذة في العصر السعدي الزيادة التي عرفتها أجورهم مع بداية الدول الشريفة(42) مع مراعاة المراتب في العطاءات(43).

. بعض مظاهر الصراع داخل فاس :

قبل التعرض للمثالين المقترحين لإبراز هذا الصراع لابد من الحديث عن نقطتين لهما تأثير واضح على فهم ميكانزمات العلاقات داخل هذا المجتمع أولهما :

* مصطلح أهل فاس : وهو مفهوم يرتبط منذ العهد السعدي بمدى تأثير فئة اجتماعية مركبة في سير الحياة السياسية ، وكل من درس هذا المجتمع يرى أن المدينة القديمة بدت مستبدة بأهم عناصر هاته الفئة وبالتالي مثلت مركزا لاتخاذ القرار وتوجيه الأحداث الكبرى خلافا لسكان فاس الجديد الذين كانوا في صفوف الحكام في جل الأحيان والذين يستبعد إدخالهم ضمن أهل فاس في العصر السعدي مثلا(44).

لكن الإشارة إلى التأثير والوزن لاتغنينا عن استقراء ما جاء في مصادر المرحلة حول هذا المفهوم ، وبعده السياسي .

نقرأ مثلا عند مؤلف تاريخ الدولة السعدية التاكمدارتية " فأرسل إلى أعيان فاس من الفقهاء ، والأشياخ ، والأمناء والخاصة من الناس ، ومن كان حاضرا من أعيان القبائل" وفي سياق آخر يقول :"... ولما وصل إليه خبر موت والده بايعه أهل فاس خاصة وعامة من فقهاء وغيرهم "(45) والمؤلف هنا يعمم ولكنه يعرف "بالأعيان" ثم يضيف "الخاصة" على أنهم أصحاب الوزن والتأثير داخل المدينة . ويتضح الأمر أكثر عند أبي القاسم الزياني فأثناء استعراض بعض الرسائل الموجهة إلى أهل فاس يقول :" فلايتمنى زوال السلطان إلا فاسق أو ظالم ... كما وقع مع أهل فاس ومن تبعهم من خوارج الأجناس لما وقعت الفتنة الكبرى"(46) ولاشك أنه يقصد ذوي التأثير الذين يتزعمون بعض الحركات أو الثورات المعارضة للسلطان وهو يذكر مصطلح أهل فاس بنوع من التحديد في سياق آخر بقوله :" وأهل فاس هم عامة الأشراف من أولاد مولانا إدريس، وأهل الخير من كل الأصناف ممن له أصل نفيس"(47) .وفي كتابات ابن زيدان يأتي على ذكر أهل فاس بتعيين البعض منهم والتلميح إلى كونهم يؤلفون لفيفا كقوله :" طلع الشرفاء والفقهاء من فاس لأداء واجب التحية والتهنئة ... ثم من غده طلع إليه بقية لفيف أهل فاس فقابلهم بالحلم والإغضاء"(48).

فاستعمال المصطلح يدل على وجود عدة شرائح جمعتهم المصلحة المشتركة ودافعوا عن نفس الأهداف. وهو بهذا المعنى يوافق "أهل المشورة" و"أهل الحل والعقد" "والخاصة" لكنه من حيث الاستعمال اختص بفاس وربما طبع مدلول أهل فاس بطبيعة المراحل التاريخية التي عاشتها المدينة فكانوا هم القوة الثانية إلى جانب السلطة المركزية القوية وهم القوة التي تملأ الفراغ السياسي في فترات انعدام تلك السلطة.

* مسألة تجنيد رماة فاس : شمل الإعفاء من الخدمة العسكرية فئة الأشراف والعلماء والأولياء والطلبة بينما مثلت فئتا الأندلسيين واللمطيين المجموعة التي تكلف بتقديم الرماة وتجنيد عدد معين منهم سنويا . ويظهر أن مسألة التجنيد هاته ستكون من بين أسس الفوارق وأسباب النزاع في فاس أما عن تطور هذه الخدمة ورؤية المخزن لها منذ أيام الأدارسة فيمكن تتبع بعض فصولها من خلال الرسالة التي كتبها السلطان سيدي محمد ابن عبدالله بهذا الشأن(49).

واعتبارا لطبيعة الصراعات واختلاف ظرفيات حدوثها فقد اخترنا في الفترة التي نعنى بها مثالين أحدهما اجتماعي والآخر سياسي:

أ ـ اجتماعيا : نبدأ بإثارة موضوع الصراع بين المسلمين والبلديين فقد قام بين الفئتين خلاف صريح وطويل حول استثمار الأموال وكيفية ممارسة الأعمال التجارية بوجه خاص، ويعود تاريخ الخلاف إلى العهد المريني عندما حاول السلاطين إبعاد المسلمين من أصل يهودي من الحرف التي يحتمل فيها الغش وأصبحوا يزاولون حرفا خميلة وثانوية. وقد نظر فريق المسلمين إلى أن مرد هذا الفصل هو السعي لتحقيق علاقات إنسانية ومعاملات مبنية على المبادىء الإسلامية الصحيحة بينما نظر البلديون إلى هذا التميز على أنه تجاوز لمبدإ المساواة. ومع التطور الذي عرفه مجتمع فاس في المرحلة الحديثة وخاصة بعد ازدياد النسب العددية وكثرة الهجرات والتطور الحرفي والتجاري أخذت المسألة بعدا آخر وترتب عنها ظهور فريقين أحدهما متشدد والآخر يدعو إلى التسامح ومن جملة الفقهاء الذين تشددوا ونددوا بتجاوز البلديين لحدود المعاملات الإسلامية الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي(50).

وقد تسبب نفور الفاسيين منهم في ظهور العديد من الاضطرابات ، والتعصب ، وهو ما بدا في مسألة منعهم من تولي المناصب الشرعية السامية كالقضاء ، والفتيا، والإمامة ، والخطابة مهما تعدد أجدادهم أو علا كعبهم في ميدان المعرفة ، ومن ذلك موقف الشيخ عبد الواحد الحميدي من أحمد المنجور فعندما أمره السلطان أحمد المنصور ليصلي بالناس منعه الحميدي فقال له السلطان :"دعه فقد قدمه علمه"فقال الحميدي "إن قدمه علمه فقد أخره نسبه"(51) وتسري نفس الملاحظة على فقهاء اشتهروا بعلمهم وصلاحهم مثل الشيخ رضوان الجنوي ، ومحمد ميارة وغيرهم.

أما في ميدان التجارة فلم يسمح لهم بدخول القيسارية (52) أو ارتياد الأسواق التي تحزب فيها المسلمون ضدهم وكان هذا المنع وما يوحي به من آثار سببا في استصدار كلا الفريقين لمجموعة من الفتاوى(53) لتأييد هذا الطرف أو ذاك لكن الأمر تجاوز الفتاوى أحيانا ليصل إلى حد المواجهة الدموية التي تكررت عدة مرات، ثلاث منها خلال العهد السعدي (54) وقد اخترنا مثالا من بين المواجهات التي عاشها المجتمع الفاسي وهو حادثة اغتيال الشيخ القاضي أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني (55) بطريقة شنيعة على قارعة الطريق ، وهو أحد علماء القرويين ورجال الفكر المبرزين. ويظهر أن الأسباب معقدة ومترابطة لكن الحادث ارتبط بسببين مباشرين :

أولهما : كونه استثار حقد البلديين نتيجة حكمه ضدهم أيام عبد الله بن محمد الشيخ المامون وقد لخص مؤلف التحفة القادرية (56) هذا الموقف أثناء حديثه عن القاضي المذكور وأوضح أنه اتبع في ذلك سنة من سبقه واعتمد مبدأ الترجيح بعد النظر في الفتاوى المعروضة عليه فحكم بالمنع.

وثانيهما : بعد مطالبة السلطان عبد الله ـ وهو يحارب عمه زيدان ـ بتجهيز ثلاثة آلاف رجل للحركة وشق الأمر على اللمطيين فطلبوا وساطة القاضي الغساني إلا أن السلطان رفض الطلب فاتهم القاضي بالميل إلى السلطان وإلى الجناح الاندلسي باعتبار أصله.

ولاشك أن أخذ السلطان بثأر الشيخ وقتل عدد كبير من اللمطيين ستكون لـه عواقب أخرى ، وأنه سيثير مزيدا من الحساسيات الفئوية مهما كـان نصيب الصحـة فـي حيثيات أسباب وفاته (57). أما الملاحظة التي نبديها في نهاية العهد السعدي فهـي أن البلديين الذين تعرض لذكرهم كل من كتب عن مجتمع فاس (58) قد بدأوا يستغلون ظروف الاضطرابات السياسية ، وأخذوا يسلكون أسلوبا جديدا لبلوغ مقاصدهم وهو إغداق الهدايا والبحث عن أسلوب مرن لإقناع السلاطين بوجهة نظرهم ولذلك طلبوا من القاضي أبي عبد الله المري التلمساني أن يتوسط لهم عند السلطان محمد الحاج الدلائي واعدين بهدية وبخراج سنوي لكليهما . لكن السلطان منعهم فمكثـوا كذلك إلى عهد المولى الرشيد الذي أذن لهم في تعمير الأسواق شريطة تمييز حوانيتهم بعلامات ليكون المشتري على بينة منهم (59) ولم تسقط تلك العلامة إلا بعد وفاة المولى إسماعيل واختلال النظام من جديد. وكل ما ذكرناه بهذا الخصوص ينم عن مدى التعقيد الذي يكتنف هذا الموضوع ويجعله مادة لبحث مستفيض.

ب - سياسيا : برزت الخلافات والصراعات الفئوية أيام الاضطراب الذي عرفته مدينة فاس في نهاية العهد السعدي وخاصة في فترة استبداد عبد الله بن محمد الشيخ المامون (60) الذي دخل في حروب مع عميه، ومع الخارجين عن السلطة السعدية وترك أمر إقرار النظام في المدينة لجنده من شراكة (61) والتلمسانيين الذين عاثوا فسادا ، وتسببوا في كثير من المحن إلى جانب هجمات قبيلة الحياينة التي استغلت الفراغ السياسي لقطع السبل ، والقيام بعمليات السلب والنهب حتى عم الخوف والتوتر وانتهى الأمر بعزم أهل فاس على اختيار رئيس من بينهم.

وأول من عين من أهل المدينة هـو الشريف سليمان الزرهوني (62) الذي قام لقتال شراكة والحياينة وعمل على توفير ظروف حماية المدينة لكنه لم يوفق تماما في مهمته فسرعان ما ظهر التنافس التقليدي حول من يختاره أهل فاس فازدادت الصراعات حدة وتعددت القيادات حتى غدا جو فاس كما وصفه مؤلف تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية جو" محن وشرور وفتن ، وهرج ومرج ، وخراب وفساد"(63)، وقد بلغ عدد المرشحين لمنصب رئاسة فاس تسعة أشخاص أغلبهم من اللمطيين دون أن يتمكن أحدهم من تحقيق الأمن المنشود داخل المدينة. وإذا كان هذا الجانب بالذات رهين بظرفية تاريخية عامة ، وبضغوط مورست على الفاسيين خارجيا فإن الحلول المقترحة والاختيارات كانت أساسا من صنع رجال الدين والعلم وهذه الفئات ذاتها هي التي وجدت في شخصية المجاهد العياشي (64) الرجل المناسب لإخراج المدينة من جوها المشحون فكاتبته وتلقت منه الاستعداد والقبول .وعندما خضعت المدينة للدلائيين وجدوا أنفسهم أمام نفس الصراعات(65).

نخلص من هذه اللمحة السريعة إلى أن تأثير تراتبية مجتمع فاس وصراعاته الطويلة قد تجلت بشكل واضح خلال العهد السعدي ، ولكنها لم تختف عبر الفترات التاريخية اللاحقة...

الهوامش :

*) - انصب اهتمامنا في هذا العرض على دراسة مجتمع فاس كقسم ممهد لموضوع رسالتنا الجامعية حول " الزاوية الفاسية وتطورها " وذلك بغاية تقريب معالم الإطار البشري الذي أنشئت فيه الزاوية.

1) - مصادر تاريخ تأسيس فاس وتعميرها وفيرة نحيل القارىء بخصوصها على :

- فاس - كشاف المراجع البيبليوغرافية للتراث الثقافي ، منشورات وزارة الشؤون الثقافية ب.ت.

- م مزين - فاس وباديتها - مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549م - 1637م منشورات كلية الأداب الرباط1986 في جزءين.

2) - المراكشي : المعجب 564(بتصرف) وترد نفس الإشارات حول ش . الإدريسي نزهة المشتاق ج3.246.

- مجهول : الاستبصار :181. - ابن أبي زرع : روض القرطاس ، 33.

3) - تتمثل الأصول البربرية الفاسية في قبائل : زناتة ، غمارة ، صنهاجة ، انظر ما جاء بشانها عند :

Gailard(H) ,Une ville de l'Islam - Fès. - J. andré Editeur, Paris , 1905. p : 28-29.

كما يمكن استقراء أسماء البيوتات البربرية الأصل ضمن الأصول التالية :

- مجهول : ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم. - تحقيق وتعليق ذ:عبد القادر زمامة ، مجلة البحث العلمي . ع :4-5.

- ع - ابن سودة : بيوتات فاس قديما وحديثا ، مجلة البحث العلمي ، ع :22-23.

- ع - ابن هاشم الكتاني : زهرة الآس في بيوتات فاس. مخطوط خ.ع ،1281 ك.

- ع - ابن عبد القادر الفاسي : ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم .خ .ع :1394 د.

4) - أول هجرة أندلسية من قرطبة وصلت إلى فاس بعد ثورة الربض سنة 202 / 817م.

5) - بنيت عدوتا الأندلس والقرويين ، حسب علي الجزنائي - الأول في ربيع الأول عام 192هـ ، والثانية في السنة الموالية . انظر زهرة الآس. المطبعة الملكية :24-25. غير أن الباحث ليفي بروفنصال ذهب إلى كون العدوة الأولى يعود بناؤها إلى عهد المولى إدريس بن عبد الله سنة 172هـ ، والثانية من إنشاء ولده حوالي عشرين عاما. أنظر : تأسيس مدينة فاس ، مجلة البحث العلمي ع31 ورغم الاختلاف المشار إليها ين المصدر والمرجع يبقى المؤكد هو كونهما عدوتان إدريسيتان.

6) - جعل ر - لوطورنو الجماعات اليهودية التي سكنت فاسا مكونة من أربعة عناصر هي :

- اليهود المقيمون منذ التأسيس : وهم المذكورون في روض القرطاس. - يهود جاءوا من إسبانيا : مازال الكثير منهم يحمل ألقابا إسبانية . - يهود تادلة الذين جاءوا أيام المولى الرشيد. - يهود سوس الذين جاءوا أيام المولى إسماعيل .

فاس قبل الحماية . ترجمة نيقولا زيادة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1986 في جزءين ،ج 1:271.

7) - يعقوب بن عبد الحق بن محيو المريني ، بويع بعد وفاة أخيه أبي بكر بتاريخ 29 رجب 656هـ وقد اشتهرت حركاته الجهادية إلى بلاد الأندلس.توفي في 22 محرم عام 685هـ بالجزيرة الخضراء. ا - ابن القاضي:جذوة ، القسم الثاني:556 رقم 648.

8) - ع - ابن خلدون : العبر ج 7 : 404 (طبعة بيروت).

9) - ح - الوزان : وصف أفريقيا ، ج 1 : 218-219. وقد تعرض لمؤسسات فاس الجديد الأستاذ : م. المنوني : فاس الجديد مقر الحكم المريني ، مجلة البحث العلمي .ع : 11-12 . 1967.

10) - أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني ت 731هـ / 1331م اعتنى بالحياة التعليمية ، وشيد عددا من المؤسسات وأشهرها مدرسة العطارين بإزاء جامع القرويين .

1 ـ ابن القاضي : جذوة ، القسم الثاني 456 رقم 457.   2 ـ الناصري : الاستقصا ، ج3 ـ 103-112.

11) ـ يصف ابن أبي زرع هذه الأحداث ، ويذكر أنه مات من اليهود في هذه الثورة مايزيد على اثنى عشر ألفا حتى كفهم أمير المسلمين عنهم .روض القرطاس : 404.

12) ـ ا ـ الزياني : ذكر قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين خ . ع ،270 ك آخر مجموع :470.

13) ـ قد يرتبط هذا الاصطلاح في ذهن الباحث بالمدلول الديني أولا "فالمهاجرين" هو تمييز للسابقين بالإسلام من بينهم وربما جاءت تسميتهم " بالإسلاميين" ـ بعد ذلك ـ لانعدام أصول معروفة ينسبون إليها . حول المصطلح أنظر :

ا ـ الزياني : المصدر السابق :474. ـ مجهول : تقاييد ونقول في تاريخ المغرب خ. ع. 2581 د سابع مجموع .

ـ م ـ حجي : الحركة البكرية ، ج 1:267.

14) ـ عرفوا منذ المرحلة الحديثة "بالبلديين" وهو مصطلح ظهر خلال العصر السعدي كما يرى م. مزين . أنظر :فاس وباديتها ج2:556. أو بعد العصر السعدي كما رجح م حجي . أنظر : الحركة الفكرية ج1 : 273.

15) ـ يأتي الأندلسيون في الدرجة الأولى بالنسبة للعناصر الطارئة على المغرب فقد استمر تنقلهم إلى العدوة الجنوبية طوال ثمانية قرون .   م ـ حجي : الحركة ، ج 65.1.

16) ـ انتقل إلى فاس عدد من تجار الأندلس وعلمائها وأعيانها كما استوطنها أبو عبد الله ملك غرناطة بعدضياع ملكه سنة899 هـ /1494م برفقة مايزيد على الألف من أهله ، وأصحابه ، وأقام بها قصورا ودورا على الأنماط الغرناطية .

م ـ ابن تاويت : فاس جولة في أحداثها الكبرى ، مجلة المناهل ع5 .   م ـ مزين : فاس وباديتها ج 1 - 121.

17) ـ يشير إلى ذلك في كتابه **نفح الطيب** عند ذكر حلول بعض أفراد أسرته بفاس منذ القرن 6 هـ بقوله : " وكان الذي اتخذها من سلفنا دارا بعد أن كانت لمن قبله مزارا عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقري صاحب الشيخ أبي مدين "

ج5. (203 طبعة بيروت).

18) ـ تتبع م مزين أطوار تعمير مدينة فاس والهجرات التي وصلت إليها قبل العهد السعدي وخلاله . أنظر : فاس وباديتها ج1-177 ومابعدها.

19) ـ حول قبائل الجندية والعناصر التي استخدمها السلاطين أنظر : م ـ الافراني : نزهة الحادي : 98 - 99.

ا ـ الزياني : البستان الطريف . خ. ع 1577د ،30. ا ـ ابن الحاج : الدر المنتخب المستحسن . خ. ع 12184 ، ج 112.6.

20) ـ يعتبر التخصص في إنتاج سلع معينة داخل أحياء المدينة القديمة سمة من سمات المدينة الإسلامية على العموم.

21) ـ الإسم الذي أصبحت تعرف به عدوة الأندلسيين القديمة تميزا لها عن معسكر الأندلسيين النازحين إثر احتلال غرناطة ، وخاصة بعد أن ظهر الصراع بين العدوتين الإدريسيتين مع مستهل ق17م ، وانقسمت عدوة القرويين إلى قسمين : قسم خاص باللمطيين وآخر الأندلسيين . أنظر : لوطورنو : **فاس قبل الحماية** . ج : 1 - 123 - 124.

22) ـ اعتمدنا في هذا التقسيم على دراسة الأستاذ م. مزين : **فاس وباديتها** ج :1 - 237.

23) ـ ربما كانت هاته التشكيلة من أسباب الخلافات والمعارك بينها وبين المدينة القديمة حسب استنتاج : لوطورنو : **فاس قبل الحماية** ،م. س.

24) ـ ج ـ الوزان : **وصف افريقيا** ، ج: 1 - 219.

25) ـ نفس المصدر والصفحة .

26) ـ تأكد من معرض حديث الشيخ محمد بن عبد السلام القادري أن عصر الزيتون مثلا عد من الحرف التي لايتعاطاها أهل البلدة أبدا : "إنما يتولى القيام بها الغرباء الذين لا بال لهم" . **المقصد الأحمد** ج :1. ، ص :50. في التعريف **بسيدنا أبي عبد الله أحمد** مطبعة حجرية في جزءين.ج .1 ص.5.

27) ـ ابن السكاك : " **نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام**" ص :13.

28) ـ الجزنائي :**جنى زهرة الآس** ، ص : 28.

29) ـ أولى م. القبلي عناية خاصة لتوضيح تطور هذا المفهوم أنظر : مساهمة في تاريخ التمهيد لدولة السعديين . مجلة كلية الأداب ـ الرباط ـ ع 3 - 4 .

30) ـ من جملة السلاطين الذين عرفوا بتشددهم في هذا الباب المولى الرشيد العلوي الذي كان " مضروبا في تحقيق الشرف بالبحث الشديد ، يفوض في ذلك لذوي العلم والدين من أهله " الحوات : " **السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر من أعقاب الشيخ عبد القادر** خ . ع 1219 د ـ أول مجموع.

31) ـ نصح ملوك الإسلام ص :14.

32) ـ وقفنا على مثال من هذا الخلاف في العصر العلوي الأول وذلك بين الشرفاء الدباغين والفضيليين أنظر :

ع . ابن الخياط : التحفة القادرية في مناقب الشريف الوزاني ، خ ع 2321 ك، ج2 ، ص 355ومابعدها.

33) ـ القادري : كناشة ، خ ع 1574 د ، ص: 235 ومابعدها.

34) ـ أصدر المولى إسماعيل مثلا قرارا يمنع زواج العلوية من الشريف وهو يوحي بنظرة مخزنية في الغالب ، ولا علاقة له بمسألة القرابة في الأصول . أنظر الإشارة عند ا ـ ابن الحاج : الدر المنتخب خ م 12184 ، ج 313.7

35) ـ م. حجي : الحركة الفكرية ج :1 - 273.

36) ـ أنظر دراسة ر. لوطورنو : فاس قبل الحماية ج :1 - 429. ـ م ـ مزين : فاس وباديتها ج :2-562-563 .

37) ـ وصلت أكبر نسبة منهم عن طريق تنبوكتو ، وتوات وكانت تجارة الرقيق تتطلب سماسرة ، وأسواقا للنخاسة ومنتصبين في الميدان . أنظر ماجاء في كتاب **فاس قبل الحماية** ج : 1- 295-298.

38) ـ ترد كلمة "العالم" مرادفة "للفقيه" ، أو ترد كصفة عندما تستعملان معا. لتتبع أنواع الاختصاص ، ونوعية المدارس يمكن الرجوع إلى دراسة :ع. حوسني "العلماء في المجتمع المغربي في القرن 19م د.د.ع - الرباط 1993-1994.

39) ـ اتبع عبد الله العروي هذا التقسيم كما وضح في عمله الهرمية التي عرفتها بعض المناصب الشرعية وخاصة القضاء. م.س ص:98-99.

40) ـ لمنصب الأمناء حساسيته وخصوصيته في الدولة أنظر ما جاء عند : ع . ابن زيدان : العز والصولة ج :2 ، ص :61-71.

ر. لوطورنو : فاس قبل الحماية ،ج 1 - 436-437

41) ـ ع . العروي : م. س.

42) ـ كانت تمنح للأساتذة أجورهم عن طريق الأحباس أو تقديم المواد الغذائية والألبسة أو الهبات السلطانية التي تميزت بالسخاء في عهد المنصور السعدي كما يشير الفشتالي في مناهل الصفا (تحقيق عبدالله كنون 155).

43) ـ كان العلماء دائما على مراتب وطبقات وهو ما يذكره ا – ابن الحاج أثناء حديثه عن زيارة المولى اسماعيل لفاس ولو أنها إشارة متأخرة عن هذا العهد فهي صريحة في بابها بقوله :"أرسل لعلماء فاس ، وأنزلهم على طبقاتهم وأكرمهم على مقتضى مراتبهم" الدر المنتخب ج7 - 369.

44) ـ م. مزين : فاس وباديتها ، ج1-237.

45) ـ وردت الإشارة الأولى أثناء الحديث عن دولة مولاي عبد الله السعدي بينما تهم الثانية ذكر بيعة محمد بن عبد الله الغالب. ص : 31و40.

46) ـ يقصد الزياني بالفتنة الكبرى أحداث الهزيمة التي لحقت بالسلطان المولى سليمان . أنظر : تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء خ ع 241ك . ص : 149 ومابعدها.

47) ـ المصدر نفسه ، ص : 190.

48) ـ عند حديثه عن انقسام مدينة فاس حول بيعة أحمد بن محرز تم تجديد البيعة للمولى إسماعيل .

49) ـ ذكر السلطان في رسالته بمختلف المراحل التي مر بها تاريخ تجنيد الرماة وبين أن الأشراف واللمطيين ظلوا مجبولين على الوفاء عكس الأندلسيين الذين كونوا مجموعة معروفة بالغدر، مجهولة الأصل وذكر بخياناتهم وبانتقالهم من الجندية إلى المغرم عدة مرات :أنظر : ا. الزياني : تحفة النبهاء 190 - 193.

50) ـ كتب الفقيه المغيلي ت حوالي 1523/930م مستنكرا سيطرة اليهود على الاقتصاد واحتقارهم لفقراء المسلمين وعنوان مؤلفه هو :مايجب على المسلمين من اجتناب الكفار ومقاطعتهم ، لذلك عارضه معظم الفقهاء في أقطار المغرب الثلاثة وكانت لعلماء فاس معه مناظرة بعد أن جاءهم من توات بقصد إقناعهم برأيه . انظر تفاصيل الحملة التي قادها هذا الشيخ عند : م. حجي : الحركة ج : 1-168ومابعدها و ج2-631.

51) ـ م. الأفراني : نزهة 173.

52) ـ يظهر أن الاتجار داخل القيسارية حيث سوق المواد الرفيعة كالملف والحرير والكتان كان ميزة قبل أن يعتبر وسيلة للكسب .

53) ـ من الكتب التي جمع فيها أصحابها نصوصا خاصة بإباحة هذا الحق للجميع كتاب الشيخ محمد ميارة : نصيحة المغترين وكفاية المضطرين بالتفرقة بين المسلمين بما لم ينزله رب العالمين ولا أخبر به الصادق الأمين، ولا ثبت عن الخلفاء المهتدين ، خ ع 923ك أول مجموع . أما الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي فإنه وجد أن فتاوي المنع وهي الأكثر عددا قد أسقطت من كتاب الشيخ ميارة وخاف أن يظن أن المنع لهم من ذلك هو محض ظلم ولايستند على حجج فجميع هذه الفتاوى وختمها بشواهد تجد أنهم لايمنعون إلا في حالة ظهور الغش من أحدهم أو سلوك ما يخالف الشرع لم نقف على هذا المصنف ولكن أبا القاسم الزياني ذكره في قصة **المهاجرين** وعلق قائلا :" وتأليف سيدي محمد الفاسي أحسن من تأليف ميارة وأوضح منه وأثبت حجة ، وأوضح دليلا يظهر ذلك بالتأمل " ص :491.

54) ـ موجز التفاصيل التي أوردها م . حجي : ـ مواجهة عام 934هـ /27-1528 م عندما حاول أحد الإسلاميين وهو أحمد بن ابراهام المكناسي أن يقيم حانوتا داخل القبة الكبرى بالقيسارية ورجع أمره إلى الأمير أحمد الوطاسي محتجا بشهادة لفيفة وبعد استفتاء الفقهاء تلقى الأمير سبعة عشر جوابا اثنا عشر منها لفقهاء فاس وانتهى الأمر بالسماح لهم كسائر المسلمين وأصدر مرسوما بذلك :

ـ في مطلع ق11هـ / 17م تجدد اعتراض التجار عليهم وانتهى الأمر أيام إمارة ولي العهد محمد الشيخ المامون بإصدار ظهير سنة 1010هـ /1601م تعتبر فيه أسواق المسلمين شيئا واحدا.

ـ خلال مرحلة الاضطراب عاد المسلمون لمضايقة الاسلاميين وتزعم حركة الاعتراض على هذا الموقف الشيخ محمد ميارة عبر كتابة المشار آنفا . الحركة : ج 1- 271 - 280.

55) ـ القاضي ابن أبي النعيم الغساني ت 1032هـ /1623م عمل مدرسا ، وقاضيا ومفتيا . المرجع نفسه ج :2-367

56) ـ القادري عبد السلام بن الخياط : التحفة القادرية في مناقب الشريف الوزاني ، خ ع 2321 ك في جزءين ،ج:158.-156-1

57) ـ قيل أيضا أن القاضي الغساني قتله اللصوص ، أو قتله اللمطيون بسبب موافقته على تسليم مدينة العرائش من قبل ، كما قيل أن ذلك كان بسبب ميله إلى عبد الله السعدي الذي لم تحمد سيرته في فاس . هاشم العلوي : التقاط الدرر ج :2-801 هامش 5(بتصرف).

58) ـ ممن تعرض لمسألة البلديين : م. السائح في مقاله : مجتمع فاس في ق 11 هـ ، وقد أكد أن للمسألة بعدا اقتصاديا وليس دينيا واستشهد ببيتين من إنشاء ابن عمرو عثمان اليوسي :

هذا وقد كان بفاس فرقتان * ملتهم واحدة لا ملتان

قد لقب أحدهما المهاجرين * أخراهما تدعى الحضور الفاخرين

مجلة دعوة الحق ع 2 س 11 دجنبر 1967. 99.

59) ـ كان الشرط الذي تم العمل به أيام المولى الرشيد هو "أن يجعلوا كلخة من ذراع يحملون بها غلاق الحانوت ... بحيث لايرتفع غلاق المهاجرين على غلاق غير المهاجرين " وبعد عهد المولى إسماعيل أصبحوا يحملونها بالعصي كغيرهم .

ا. الزياني : تحفة النبهاء 491.

60) ـ عبد الله بن محمد الشيخ المامون يسمى مولاي عبد الله السعدي الصغير (ت 1033هـ / 1623م) استبد بالحكم منذ عام 1022هـ / 1617م ، وقد اعتمد سياسة العنف ودعته حاجته للجند إلى استعمال شراكة والتلمسانيين والتغاضي عن تصرفاتهم "بهم كان يستعصم حتى أعطاهم أجنة الناس وديارهم". م. الافراني : نزهة 233. ا ـ ابن الحاج : الدر المنتخب ج 5 - 258.

61) ـ وصلت هجرات عديدة من قبائل شراكة منذ أيام المرينيين ، كما وصلت جماعات تركية مع أبي حسون الوطاسي . وفي أيام عبد الله اتخذ من أعراب المنطقة الشرقية جيشا خاصا في فاس غير أن طيشهم وفسادهم تسبب في طردهم والنفور منهم ولن يتم القضاء عليهم إلا بتعاون مع المجاهد العياشي ثم الدلائي .أنظر : م. حجي : الزاوية الدلائية 148.

62) ـ سليمان بن محمد الشريف (يلقب بالأقرع) مجهول : تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية 108.

63) ـ أنظر ص :109.

64) ـ قدم م. مزين جدولا مفصلا بأسماء الرؤساء السياب الذين حكموا فاس خلال هذه الفترة . فاس وباديتها ج :1 - 241.

65) ـ محمد بن أحمد المالكي الزياني السلوي ت 1051هـ /1641م ، قام بعمليات الجهاد من سلا وبلغ نفوذه إلى مدينة فاس بعد أن استنجد به علماؤها . ـ ع . الشاذلي : الحركة العياشية ، منشورات كلية الأداب الرباط 1982 .

66) ـ أنظر حول تفاصيل خضوع فاس للدلائيين والنزاعات التي ظهرت بين قائدهم وبين القيادات ،فاسية .

م. حجي : الزاوية الدلائية 208 ومابعدها .

التشكيلة الاجتماعية لمدينة الرباط خلال القرن التاسع عشر

ذ. عبدالإله الفاسي*

إن دراسة وسط اجتماعي لمدينة أو قرية ما ، والتي تدخل في إطار مونوغرافية تتوخى تحصيل معطيات تنضاف إلى حصيلة مونوغرافيات أخرى قصد تجميعها للخروج بنظرة شاملة للمجتمع المغربي تسعى نحو التكامل والاكتمال ، لابد لها - أي لهذه الدراسة - أن تدخل في الاعتبار خصوصيات الموقع جغرافيا وتاريخيا . إذ أن التأثيرات البيئية من جهة أولى والحضارية من جهة ثانية من شأنها أن تخلق احيانا تفردا في التشكيلة الاجتماعية للموقع المدروس . والأمر هنا يختص بمدينة مرسى ، بالنسبة لمدن أخرى قد تكون مراسي أولا تكون .

ولابد أن ترتكز هذه الدراسة ثانيا على رصد كل المقاييس التي كان لها أن تحدث من الفروق والتمييزات الاجتماعية مالا ينحصر في الغنى والفقر فقط ، بل مايتعدى ذلك إلى مقاييس كثيرة التنوع كما سيأتي .

1. أثر الموقع الجغرافي في التشكيل الاجتماعي للمدينة :

إن موقع مدينة الرباط كميناء بحري ونهري جعل المدينة في انفتاحها على المحيط الأطلنتي تتلقى تأثيرات مختلفة خلقت مظاهر معينة من حركة دائمة لعبور نهر أبي رقراق ورسو السفن وشحنها وإقلاعها ووجود الديوانة بأمنائها وكثبتها وعدولها ومخازنها ومستودعاتها ومن نشاط للبحارة والحماليين وغير ذلك مما خلق تقاليد معينة سيأتي الحديث عنها.

كان من شأن هذا الموقع البحري أن يوجد صنفين اجتماعيين :

أ - رياس البحر : وهو الاسم الذي نصادفه في الوثائق لرؤساء السفن . لقد أصبح هذا الصنف يندثر شيئا فشيئا خلال القرن التاسع عشر في الرباط أو غيرها من مراسي المغرب، ولكن تأثيرهم الماضي منذ الهجرات الأندلسية في بداية القرن السابع عشر وشفوفهم أيام السلطان محمد بن عبد الله عندما كانوا يفوقون 1120 في العدوتين ، وادوارهم في محاربة التهريب والحركة التجارية الملاحية ونقل الحجاج ... الخ ، جعل صيتهم يصمد إلى مابعد العهد الرحماني - فهيئة رؤساء البحر ظلت موجودة وإن تناقص أفرادها إلى حد كبير . وظل لرؤساء البحر الباقين دورهم كتقنيين في القوانين البحرية

* أستاذ باحث بكلية الآداب - القنيطرة.

المنظمة للعلاقات مع الأجانب تجاريا وملاحيا وبروتوكوليا . وفي تعليم الشبان شؤون الملاحة نظريا وعمليا (1).

لقد ظلت هذه الهيئة موجودة في الرباط حتى بعد معاهدة منار أشقار (كاب سبارطيل) التي وقعت سنة 1864 والتي تسجل انتهاء الأسطول المغربي ، فانتقل الرايس البحري من دوره القديم كملاح إلى دور الإداري في الميناء. وأصبح يلقب برئيس المرسى أي المشرف على عمليات رسو السفن وإقلاعها وإصدار الأوامر للبحرية بقيادة المراكب نحو السفن الراسية في عرض البحر لحمل السلع والركاب أو بالتدخل في عمليات الإنقاذ إذا ما تعرضت سفينة ما لمكروه .

من جهة ثانية كانت هيئة رياس البحر معروفة بلباسها الجميل وبمركزها كهيئة ضباط سامين في الجيش البحري فكان الرئيس عبد الرحمان بريطل الرباطي يسمى عند الأوربيين بأميرال الأسطول المغربي أيام السلطان المولى عبد الرحمان - وكان السلطان يعتني بهذه الهيئة التي كانت محرزة على تقدير الناس والمخزن لأن أفرادها مجاهدون بالدرجة الأولى وهم يحملون الألقاب التركية مثل باش رايس ، والأليكانجي أي نائب رئيس السفينة وباش طبجي ورايس عسة ... الخ .

ب - البحرية : هم نوعان ، بحارة الأسفار الذين يصحبون الرايس في أسفاره البحرية في السفن المبحرة بين المراسي المغربية أو المسافرة إلى الموانيء الأوربية قصد التجارة بعد انتهاء القرصنة . والنوع الثاني نعني به البحارة الفلايكية المقتادين للركاب والسلع من السفن إلى الميناء أو العكس.

كانت هيئة البحارة متميزة بلباسها الخاص وبقوة اجسام أصحابهاكما لاحظ بعض الكتاب الأوربيين(2). ويحكي لوي برونو Louis Brunotبعض الحكايات المستلهمة من التاريخ حول بحارة الرباط وكيف انهم كونوا فئة ملتحمة متضامنة وقفت ضد تعسف رئيس المرسى ، أو تبعث رئيسها في مرحلة تاريخية سابقة عندما اتحدث مع رئيسها المسمى المعطي الذي تحدى مخزن أحد سلاطين القرن الثامن عشر(3) .

كان التحام البحارة وتضامنهم يفسر بانضوائهم في حنطة كغيرهم من الحرفيين الآخرين والحنطة تنظيم اقتصادي واجتماعي ، ولكن هذا التضامن يفسر أكثر بالترابط العقدي الروحي إذ كا ن لهم ولي يعتقدونه ويقدسونه وهو سيدي عبدالله اليابوري الذي يوجد ضريحه في مقبرة العلو قرب برج الدار(4) وكانوا يتوسلون به عندما تهب العواصف البحرية أثناء محاولاتهم اختراق الحاجز البحري أثناء التوجه إلى السفن أو الإياب منها بمراكبهم . فيرددون "أسيدي الحاج عبد الله اليابوري غثنا ، آمين يا الله " مجيبين بذلك "مولى الذمان" وهو البحري الذي يقود المركب ، والحريص على ألا تفوق السلع المنقولة بالمركب حدها الأقصى من الوزن .

وللتدليل على حضور البحريين في المجتمع الرباطي أن البراح عندما ينادي في الناس لإخبارهم بقراءة رسالة سلطانية،وذلك ما كان يقع في المسجد الأعظم يقول :"يابحرية ياطبجية ياكبار أهل البلد توجهوا إلى المسجد لسماع رسالة سيدنا "(5).

بسبب وجود المرسى كانت وظيفة الأمانة جزء لايتجزأ من نشاط الميناء لذلك كان هناك نوع خاص من الموظفين هم أمناء المرسى التي تدل الوثائق على أن الرباط منحت العدد العديد منهم ، فالأمناء بالمرسى صنف اجتماعي لولا وجود البحر والميناء لما وجدوا في الرباط وفي الموانيء الأخرى طبعا مثلهم مثل رياس البحر وسائر البحارة الآخرين .

II - أثر الحضارة والتاريخ :

لعب الماضي دورا كبيرا في الوظيفة التي أحرزتها المدينة منذ زمن بعيد وهي الوظيفة العسكرية لذلك سميت رباطا فكانت مربطا للخيل ومعقلا للجيوش المنطلقة نحو الأندلس ابتداء من عهد الموحدين وبنيت بها التحصينات الدفاعية كقصبة بني تاركة أو المهدية أو القصبة الأندلسية أو قصبة الأوداية وهي ألقاب أطلقت على الموقع نفسه. وحصنت المدينة بالأسوار ، ولما حل القرن التاسع عشر كانت مركزا لتجميع الحركات المنطلقة نحو الغزو أو التأديب وكان لكل ذلك تأثير عميق في نشوء أصناف سكانية تعتبر جزء لايتجزأ من التشكيلة الاجتماعية للوسط المديني الرباطي . إذ أن الوظيفة العسكرية أوجدت هيئة الطبجية والبونبجية أي الجيش المكلف بإطلاق البارود من البنادق والبومب من المقالع والمنجنيقات والمدافع ـ كما أن الوظيفة الحربية أوجدت جيشا رباطيا دارا وقرارا يتكون مما يأتي :

أ - العسكر أو المخازنية : يوجد تحت تصرف العامل أو القائد كان يبلغ قبل الحماية حوالي 200 فردا (6) من المشاة .

ب - التواركة : وهي ميليشيا أو قبيلة عسكرية أصلهم من عبيد البخاري ومن أهل سوس وهم جزء من الكيش لايؤدون الضريبة يتكونون مابين فرسان ومشاة من 1550 محاربا لهم رئيسهم هو قائد التواركة وقد كونوا في الحقيقة مجتمعا منعزلا عن باقي السكان تقريبا يتصاهرون منهم(7) .

ج - الأوداية :كانوا جيشا صغيرا يتكون من 200 رجل وخاصا بحراسة القصبة المسماة باسمهم ـ كانوا تحت تصرف قائد الرباط وهم من المشاة أما الأوداية الآخرون فيقطنون المنطقة الممتدة مابين تمارة وبوزنيقة ـ والذي يهم هنا هم الأوداية الموجودون بالمدينة بالقصبةوالذين سكن أعيانهم بها ـ بينما قطن الآخرون النوايل. ولم يندمج الأوداية مع باقي سكان الرباط (8) .

III - التصنيف الاجتماعي على الأساس المادي :

إضافة إلى أثر الموقع الجغرافي ومفعول التاريخ والحضارة ، في تشكيل المجتمع عامة وفي تبلور المجتمع الرباطي بالتخصيص، تبرز عناصر أخرى متعددة تتحكم في خلق أصناف معينة من السكان من أبرزها المقياس المادي المنبني على المداخيل والأجور والتي من شأنها التمييز بين مختلف مجموعات المدنيين وتقسيمهم إلى طبقات أو فئات ، وقد أمكن التمييز على هذا الأساس بين ثلاث فئات في المجتمع الرباطي هم : الأغنياء ، ومتوسطوا الحال، والفقراء.

ـ الأغنياء: يجب أولا حصر مفهوم الغنى أي ماهو الحد الذي يفصل بين الغني ومن هو دونه من الناحية الحسابية خصوصا وأن مجتمع القرن الماضي كان ـ طبعا مخالفا للمجتمع الحالي في كل جوانبه خصوصا بعد تطور مفاهيم مثل الاستهلاك والضروريات والكماليات ... الخ . واختصارا للقول يمكن أن نحسب غنيا كل من كان له فائض عن ضروريات أسرته سنويا ـ إن الأمثلة عن ثروات الأغنياء ليست كثيرة لدينا ولكن أرقام معاملات بعض التجار الرباطيين المشتغلين بالتصدير والاستيراد في أواخر القرن الماضي ـ وتركات بعض رجال السلطة المحليين تبين أن الأغنى هم هؤلاء بالذات أي كبار التجار وكبارموظفي المخزن .

لم يكن التوظيف مع المخزن يجلب لصاحبه أجرا يحقق غناه فقائد الرباط كان يتقاضى في بداية القرن العشرين (سنة 1906) شهريا ،100دورو أي 500بسيطة أو 1400مثقال، والمحتسب 90دورو بينما لايتعدى أجر الناظر 45 دورو . وكان بإمكان أسرة كبيرة أي كثيرة الأفراد أن تعيش عيشا عاديا بمبلغ يتراوح مابين 25و30 ريال دون كراء لسكنها (9) فمثال هذه الأجور يبين إذن أن مجرد منصب السلطة ليس كافيا لتحقيق الغنى ، إلا أن استغلال النفوذ بلا وازع أخلاقي وديني يمكن لصاحبه الاغتناء كالارتشاء والتلاعب بالمال ، فالقائد يمكنه أن يقتطع مايشاء من الأموال التي تحت يديه من محاصيل الديوانة والفريضة والهدايا قبل أن يبعثها إلى أمين الأمناء بفاس ، عوض أن يأخذ أجره وأجور موظفيه فقط كما كانت العادة (10) وتدل أسماء بعض الأراضي على غنى بعض عمال الرباط مثل أراضي السويسي نسبة إلى هذه الأسرة التي تقلد منها عدة عمال قيادة الرباط كمحمد وأحمد وعبد السلام وعبد النبي من سنة 1855 إلى سنة 1909 ـ وكذلك أراضي الزبدي التي تسمى بحار الزبدي ، ونعلم أن هذه الأسرة الأخيرة كان منها العمال والأمناء والنظار .. الخ.

وتدل بعض وثائق التركات أن بعض كبار موظفي المخزن من غير العمال كانوا ربما أغنى من هؤلاء السابقين ، فتركة النائب السلطاني بطنجة محمد بركاش تضم عدة عقارات في المدن التي اشتغل فيها كالدار البيضاء وطنجة إضافة إلى الرباط ، فعقاراته ورباعه شملت دورا ومخازن للسلع ورياضات ودكاكين وفرنا في الرباط ، وخمسة عشردكانا بالدار البيضاء ودورا صغيرة وأخرى كبيرة وبعض الحوانيت بطنجة قومت هكذا : ـ أملاكه بالرباط : 30,595 ريالا ـ أملاكه بالدار البيضاء 5090 ريالا، وأملاكه بطنجة 33,066 ريالا أي ما مجموعه 68,751 ريالا وإذا أضفنا متروكاته الأخرى من أثاث ولباس فإن الرقم هو 90,381 ريالا أو 1.175.956 مثقالا (الريال = 13مثقالا) (11) عندما توفي سنة 1886.

لقد جنى محمد بركاش هذه الثروة من ثلاثة عناصر ـ الغنى العائلي المحقق بالجهاد البحري (أبوه هو المجاهد عبد الرحمان بركاش الشهير) والتجارة التي تعاطاها في شبابه بجبل طارق ولندن ومارسيليا مع الحاج محمد بنيس الذي أصبح أمين الأمناء فيما بعد ، ولعله كان يباشر هذه التجارة سن الدار البيضاء التي امتلك فيها مايشبه حيا تجاريا كاملا(12) وأخيرا السلطة التي مارسها لمدة طويلة كنائب سلطاني بطنجة . ويمكن إعطاء أمثلة

ناطقة عن الغنى المحقق بالتجارة الكبرى لدى بعض العائلات الرباطية خلال العهد الحسني والعزيزي . وأحسن مثال هو مثال عائلة فرج التي برز فيها الأمين السلطاني بالصويرة العربي فرج وكان قبل ذلك وأثناءه يمارس تجارته التي امتدت شبكتها إلى مرسيليا ولندن وحققت له غنى واضحا فامتلك الدور والحوانيت وأحواض الملح وأراضي وطاحونة ..الخ (13).

لكن تجارة المدعو محمد فرج وشركائه فاقت تجارة هذا الأخير قيمة ، بلغت أوجها عهد المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ، وامتدت خيوطها من الرباط إلى العرائش وطنجة شمالا وإلى الجديدة جنوبا وإلى فاس شرقا وتجاوزت البلاد لتروج في أوربا بمنشستر ومارسيليا وباريس ، كما نشطت بالشرق العربي حيث كانت مراكزها بالاسكندرية والقاهرة. ولقد اشتملت تجارته على السلع المختلفة من أثواب ومعادن ومنتجات صناعية ومواد غذائية ، وبلغة وأصواف .. الخ ودرت عليه وعلى شركائه دخولا هامة مكنته من استثمارها من جهة أولى في تربية الماشية في بادية الجديدة ، وفي شراء أراضي فلاحية منتجة للقمح ، ومن جهة ثانية سمحت له بامتلاك عرصات وجنانات وعقارات بالرباط ، وبشراء أخرى بالجديدة وطنجة ـ ففي هذه المدينة الأخيرة اشترى سنة 1905 عددا من الدور وفرنا وحانوتا قومت ب 13570 ريالا كلها مكتراة ، وفي الجديدة اشترى بين سنتي 1905و1907 حوانيت وبقعا ودورا ب 7201 ريالا حسنيا ، وفي الدار البيضاء امتلك دورا وأهراء ـ أما في الرباط فأملاكه كثيرة تتركب من دور للسلع وأخرى للسكنى وحوانيت وثلاث عرصات منتجة للغلال الشتوية كالليمون وأخرى صيفية كالسفرجل والرمان(14).

إن مثال محمد بركاش والعربي ومحمد فرج وشركائه نماذج من هذه الفئة التجارية المتألقة التي هي عند جان لوي مييج بورجوازية متصاعدة ، والتي تعززت من جهة بالسلطة ومن جهة أخرى بالحماية الشخصية . فمحمد فرج التاجر الغني كان إضافة إلى أنشطته السابقة كاتبا بالقنصلية الانجليزية بالرباط قبل سنة 1909 التي توفي فيها(15).

استفادت هذه الفئة طبعا من التسرب الأوربي عندما استعانت بما حمله إليها الاقتصاد الرأسمالي من إمكانيات إيداع الأموال في البنوك واستخدام الشيكات ونقل للأموال ، واستعمال الخطوط الملاحية المتكاثرة آنذاك ...الخ(16).

وإذا كان عنصرا السلطة والتجارة من عوامل الاغتناء فإن المصاهرة مع الأغنياء من عوامل تعزيز هذا الغنى طبعا ، فقد ورث محمد فرج الغنى عن أمه ، بالإضافة إلى أبيه ، زيادة على انه تزوج هو نفسه من امرأة غنية من عائلته نفسها وأحاط إرثا بأملاكها بعدما توفيت سنة 1895 وهي ثلاث عشرة دارا وعقارات ورباع تتكون من طاحونة وبقع أرضية وعرصة وجنان ... الخ.

لقد كان الإرث من الآباء إما أصلا لهذا الغنى وإما فرعا معززا له أو هما معا يجتمعان. والفرق بين ماوقع في القرن التاسع عشر وما كان موجودا قبله بالنسبة لطبقة التجار المغاربة في كل البلاد هو أن الأب الغني أصبح يعقبه ابن غني أيضا بسبب الحفاظ على الأموال بعد إيداعها في البنوك الأجنبية والاحتماء والاشتراك ، عوض أن تندثر هذه

الأموال بعد وفاة الأب الغني في مرحلة ما قبل القرن التاسع عشر و كما أشار إلى ذلك مييج(17).

إن الفئة الغنية الرباطية في القرن التاسع عشر تكونت من العائلات التي تراكمت عندها الثروة إما عن طريق ماسماه مييج بالقرصنة وخصوصا لدى العائلات ذات الأصل الأندلسي وإما بالسلطة فكانت هذه الثروات أرضية للاستثمار في التجارة وشراء الرباع والعقار.

وإذا كان الغنى يبوء صاحبه مكانة اجتماعية مرموقة ، فإنه كان يجعل المخزن يختارمن بيوتات الأغنياء ، الأمناء والسفراء وآخرين يعتمد عليهم في المهمات الصعبة أمثال محمد بن الطاهر الزبدي ومحمد بركاش والعربي فرج وبناصر غنام وغيرهم من بين زملائهم الفاسيين والتطوانيين على الخصوص.

إن حياة الأغنياء جانب اجتماعي لابد وأن يجد له متسعا في موضوع كهذا وانطلاقا من الوثائق الشخصية لبعض الأسر والروايات الشفوية العفوية يمكن أخذ صورة مجملة عن ذلك. فدار الغني المتكونة من طابق أو أكثر تسكنها عادة الزوجة الحرة ومستولدات وقد يصل أفراد الدار العشرين بمن فيهم إماء صغيرات للخدمة وعبد في الغالب. وتختلف حياة الغني حسب وظيفته فإذا كان تاجرا فإن أبناءه عادة يساعدونه بل قد يشاركونه في تجارته ، والغالب عليه الاستقرار رغم ما تستوجبه وظيفته من أسفار أحيانا ، أما إذا كان موظفا مخزنيا فإن عليه أن ينتظر السفر والتنقل بين الحين والآخر مما يضطره إلى تكليف ابنه البكر بتدبير أمور الأسرة ، أما إذا استدعي من طرف المخزن للعمل خارج الرباط فإن حياته تتخذ مظهرين . فبالإضافة إلى الأسرة الرباطية ، يبني له أسرة أخرى في مكان عمله إما مع زوجة حرة أو مع مستولدة وقد تكبر الأسرة الثانية لتضاهي الأسرة الأولى فكان على رب البيت أن يعيل أسرتين يتراوح أفرادها بين عشرين وثلاثين فردا(18).

- **متوسطو الحال** : وصف الأوربيون الذين زاروا مدينة الرباط أو قطنوها خلال القرن الماضي بكونها ذات سكان ميسوري الحال عموما (19) وبما أن المدينة مع جارتها سلا كانت مركزا صناعيا هاما تحتل الصف الثالث بعد فاس ومراكش (20) فإنه يمكن القول بأن الشريحة الاجتماعية الأكثر عددا في المدينة هي أهل الحرف والصناعة. وقد أحصى نائب القنصل الاسباني حرفيي العدوتين سنة 1865 وهو رامون فرنانديز دولاريكيرا Ramon Fernandez de la Reguera فألفاهم 3588 فردا(21) وكانت الرباط تحتل من هذا الرقم أكثر من النصف باعتبار كثرة عدد سكانها بالنسبة لسكان جارتها. والحاصل أن السكان الذين كانوا يعيشون من الحرف بالرباط في النصف الثاني من القرن الماضي تراوح ما بين 8000 و12000 شخص باعتبار أن كل حرفي يعيل أسرة من خمسة أفراد على أساس أن حرفيي الرباط تراوحوا ما بين 2000و3000 صعودا مع القرن التاسع عشر وكانوا يبلغون سنة 1917- 3187 حرفيا منضوين في ثلاثين حنطة مهمة تضم 677 معلم و1536 عامل و947 صانع (أجير) (22).

يمكن القول أيضا أن هذه الشريحة الاجتماعية هي التي كونت الفئة الوسطى في المجتمع الرباطي . لقد كانت حالة بعض الحرف أحسن من غيرها . وإذا أخذنا مثال أواخر عهد السلطان المولى عبد الرحمان سنة1855 نجد أن الدخول اليومية لليد العاملة في الحرف كانت تتراوح مابين 0,40 و0,75 فرنكا . فكان الصائغ يحصل على 0,75ف والعامل في نسج القطن 0,60ف . والعامل في نسج الزرابي أو الدباغة وصناعة السروج 0,50ف وكان الخراز وصانع الأسلحة يتقاضيان 0,45 ف للواحد والعامل في صناعة الحصر يأخذ 0,40 ف (23).

في نفس الوقت أي في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي كان بإمكان أسرة نجار أو حداد مكونة من أربعة أفراد أن تعيش عيشا مضمون الضروريات وبإمكانها إعالة خادمة وأداء أجرها ، وكان بإمكان مثيلات هذه الأسرة الحرفية أن تمتلك دارها إن لم تكن تكتريها ففي حالة الأسرة الموصوفة كانت لها دار في ملكها تتكون من ثلاث غرف وفناء وسطح أما كراء مثل هذه الدار فكان يتراوح بين 3و4 فرنكات شهريا . وكانت مصاريف الأسرة كما يأتي : أجر الخادمة مابين 3و4 فرنكات شهريا في حين كان الاستهلاك اليومي لها لايتعدى0,60 ف على الشكل الآتي :

-4 خبزات من 300غرام أو قدرها من الكسكس ب20س.
- 500 غرام من لحم البقر أو الغنم أو السمك أو البيض إضافة إلى الخضر والفواكه ب 15س .
- 40 غرام من الزبدة أو قدرها من زيت الزيتون أو الحليب أو العسل ب 12 س.
- شموع + صابون + توابل + خشب + فحم =13س .

المجموع 60س أو 0,60 ف(24).

كانت المصاريف السنوية لهذه الأسرة هي 300ف يضاف إليها 50ف لتجديد الملابس أي ما مجموعه 350 ف سنويا لذلك كانت الأسر ذات دخل فرنك واحد يوميا في الخمسينيات و الستينيات من القرن الماضي تعيش بكفاية وهذه حالة جزء كبير من سكان الرباط(25).

كانت هناك حرف اخرى يتكلف أصحابها بالخدمات أمثال الزرطاطين والحمارين والرقاصين والدلالين وكان بعضهم يحقق دخلا أعلى من أهل الصنائع ، فعلى سبيل المثال كان أجر الرقاص 40 فرنك شهريا(26).

إن أغلبية هذه الأمثلة مأخوذة ممن كانوا يعيشون عيش كفاف في الفئة الوسطى، اما الآخرون فهم معلمو الحرف وأمناؤها وعرفاؤها وملاكو الأفران أو الطاحونات المشغلون لعدد من المتعلمين والصناع لم يكونوا قلائل باعتبار العدد المهم للحناطي في المدينة فكانوا في أعلى الفئة الوسطى وربما أصبح بعضهم محسوبا على الفئة الأولى أي الأغنياء.

ومن أهم المظاهر الاجتماعية التي يجب الالتفات إليها خاصيتان تطبعان مجتمع أهل الحرف ربما في كل المدن المغربية خلال ماقبل الحماية الخاصية الأولى هي روح التضامن وتبادل المساعدة وتقديم المساهمات بين أعضاء الحرفة الواحدة في الأفراح

والأتراح . أما الخاصية الثانية فهي انتماء أهل الحرفة الواحدة لطريقة دينية واحدة والاعتقاد في ولي واحد(27) ، وكان ذلك يزيد من التحامهم وتضامنهم ضد قرار جائر أو ضد أحد رجال السلطة ، ففي عهد المولى سليمان ثار الخرازون بالرباط ضد عامل المدينة الحاج عبد الرحمان أشعاش التطواني سنة 1815 لأسباب لايتسع الوقت لذكرها فاستبدله السلطان بعامل آخر(28) .وفي عهد المولى عبد الرحمان ثار الجزارون بعد قرار المخزن بملكية جلود الماشية المسلوخة (29) وأشرنا أعلاه إلى مثال إضراب الفلايكية(البحارة) بالرباط ضد رئيس المرسى (30).

الخلاصة أن الفئة الوسطى الرباطية كانت عبارة عن مجتمع حنطات مع ما تتضمنه هذه الكلمة من مظاهر اقتصادية اجتماعية .

- **الفقراء** : بما أن الكتاب الأوربيين تحدثوا عن يسر حال سكان الرباط بصفة عامة خلال القرن19، فإن الاستنتاج الذي يمكن الخروج به هو قلة المعوزين والمحتاجين. وإذا اتفقنا على أن الفقير أو المحتاج هو من لايملك قوت يومه فإن بعض الروايات تفيد أن هناك من كانوا يملكون دار سكناهم ولايجدون قوتهم اليومي.

يتحدث نائب القنصل الفرنسي بالرباط جول دوزان Jules Dozan عن فقراء الرباط سنة1850 (31) قائلا أنهم لم يكونوا يجدون مشكلا في الصيف حتى عند ندرة القمح لأنهم كانوا يقتاتون بفواكه الفصل العديدة والبخسة جدا. لكن المشكلة تتعقد عندما ينتهي الصيف.

إضافة إلى المتسولين يمكن أن نحشر في فئة الفقراء بعض المأجورين أو المستخدمين ذوي الأجور الضئيلة وأغلبهم من المهاجرين والباحثين عن الشغل كالحمالة والكرابة والعتالة والفحامين والرحويين وأصولهم في الغالب من تافيلالت وتوات ودرعة وسوس سكن البعض منهم بحي السويقة في "الفنادق" واشتغل البعض منهم في بيع الأكارع والأسقاط وهؤلاء الأخيرون نعتوا من طرف الرباطيين بلقب "كرشة ومصرانة"(32). ويمكن أن ندخل ضمن فئة الفقراء أيضا الحراس الليليين من جبالة والمخازنية والتواركة الملقبين البياته أو الرماة لهم رئيسهم المسمى شيخ الرماة - والحارسين أبواب المدينة وأحياءها ليلا(33).

والملاحظة الأساسية لهذه الفئة السفلى أن بعض من فيها من أهل الحرف الدنيا كانوا مثل حرفيي الفئة الوسطى لهم حنطهم ووليهم المقدس ولكن التضامن هنا بين أعضاء الحرفة الواحدة لم تكن تمليه شروط العمل ولايمليه فقط الالتحام الروحي ولكن أيضا الانتماء الجغرافي ، فكان العتالة المشتغلون بفلح البساتين والاعتناء بالناعورات وحفر الآبار من درعة أو سوس . بينما كان البقالة وأهل الأراحي من سوس(34).

- **العلاقات بين هذه الفئات:** إذا كانت هناك مظاهر تميز كل فئة من هذه الفئات على حدة فهل أدى تضارب المصالح إلى تنافر وصراع بين مكونات المجتمع الرباطي ؟

لقد أبرزت الوثائق أن التكافل والتراحم كان يسود المجتمع المغربي بصفة عامة ، فالفقير يجاور الغني في السكنى والثاني يرحم الأول ويتصدق عليه - ودلت كنانيش فرج أن هذه الأسرة الغنية كانت تنظم أياما خاصة للصدقات على الفقراء في بعض الزوايا . وعلى الصعيد الاقتصادي كان استخدام الشبان في دكاكين التجارة من طرف الميسورين

بواسطة ما كان يسمى بالقراض شيئا معمولا به. لقد كان المجتمع آنذاك تسود فيه القيم الإسلامية المعروفة الداعية إجمالا إلى أن للفقراء نصيبا في أموال الأغنياء ، ولكن التسرب الأوربي بمختلف مظاهره أدى إلى اختلال هذا الخلق فأصبح بإمكان الأغنياء أن يزدادوا غنى على حساب الفقراء والمتوسطين ، وخصوصا أغنياء التجار ورجال السلطة. يذكر الأستاذ العروي (35) أن الكثير من الناس اضطروا إلى بيع دورهم في أوقات مجاعات سنوات 1868 - 1878 و1882 ، لشراء أكياس من القمح وأن الأغنياء بادروا إلى شراء الدور والعقارات الرخيصة جدا مستغلين حاجة أصحابها إلى القوت . لقد حدث ذلك بالدار البيضاء وطنجة على الخصوص فلماذا لانقول إن امتلاك النائب محمد بركاش لحوانيته بهذين المدينتين ، وامتلاك التاجر محمد فرج لعقاراته بطنجة يفر بهذه الظاهرة ؟.

IV . التصنيف على الأساس الإثني أو العرقي :

انطلاقا من بعض الدراسات الأجنبية التي قام بها قناصلة أوسوسيولوجيون أولسانيون وحتى بعض المراقبين المدنيين في بداية الحماية وبعض الروايات الشفوية والوثائق الرسمية يمكن الاستنتاج بأن نظرة الناس لبعضهم البعض والعلاقات فيما بينهم لم تكن تنبني على الفروق بين الغني والفقير فقط بل على عناصر أخرى منها الأصل أو المحتد وانطلاقا من ذلك يمكن تصنيف المجتمع الرباطي إلى فئات أربعة .

- **الأصلاء** : هم الذين يعتبرهم السكان رباطيين حقيقيين ولايتعلق الأمر هنا بالاسم العائلي بقدرما يتعلق بقدم استقرار العائلة. وعلى العموم كان هؤلاء الأصلاء إما أندلسيين أو ذوي أصول شرقية أتوا من الجزيرة العربية ويتحدث لوي برونو L. Brunot عن لهجتهم ولون بشرتهم وبنظافتهم وأناقتهم وخصوصا الأندلسيون منهم ذوي السحنة الأوربية الواضحة(36). وقد سكن الأصلاء وسط المدينة وحي لعلو ومولاي إبراهيم وبوقرون وسيدي فاتح وزنقة القناصل. وكان سكان سيدي فاتح ودرب كناوة منهم يكنون بكنية "بدعية ومكانة" لاتصافهم بالتقوى والدين وارتقاب أوقات الصلوات مستشيرين من أجل ساعاتهم الصدرية (37). بينما كان سكان حي لعلو والأوبيرة قد تميزوا بشعار "وردة وسوسانة" لحبهم للنزهات وإسرافهم في الزينة(38).

- **الغرباء**: أي المهاجرون من مختلف الأقاليم المغربية والذين لم يختلطوا في سكناهم مع الأصلاء بل قطنوا أحياء خاصة وأحسن مثال الأودايا الذين قطنوا القصبة المسماة باسمهم أو الآخرين الذين قطنوا السويقة ووقاصة وكذلك المهاجرين المتأخرين والذين كانوا يلمزون من طرف الرباطيين بكونهم "ضموا الخيمة ودخلوا للمدينة"(39).ومن بين مظاهر التنافر بين الأصلاء والغرباء أن الأودايا كانوا يلقبون الرباطيين بلقب "الدجاج الأبيض" بينما يسميهم الآخرون بلقب "خباطة وبطانة" تدليلا على ذهاب أهل الودايا بالبطانات والخباطات إلى جنب البحر لغسل الأصواف التي كانوا يصنعون منها زرابيهم المشهورة بالرباطية (40).

- **اليهود** : كان الملاح الذي تقطنه الجالية اليهودية مجتمعا متميزا عرقيا ودينيا ولكنه متصل بالمدينةإنسانيا وتجاريا .

- الأجانب : كانوا جد قليلين بعد انفتاح المغرب على أوربا في النصف الأول من القرن ورغم ازديادهم في أواخره وبداية القرن 20 فإنهم كانوا محدودي العدد وكانت نظرة الناس إليهم تختلف حسب الأصناف فإذا مروا بسيدي فاتح تعرضوا للشتم والدفع أحيانا من طرف العامة (41).ولكن علاقتهم مع التجار أو رجال المخزن فكانت مخالفة إذ كانوا محل ترحاب وحسن استقبال على العموم.

V - المعيار الأخلاقي الديني للتصنيف الاجتماعي :

لقد كان المجتمع الرباطي وربما سائر المجتمع المغربي ينظر في المكانة الأسمى من تتبلور فيه أرقى معاني الدين والتقوى ، والعكس صحيح تماما ، وانطلاقا من هذا المنظور يمكن تقسيم المجتمع الرباطي إلى ما يأتي :

- أهل الصلاح والأولياء الأحياء : قد يكونون علماء أو أميين ولكن صلاحهم وثناء الناس عليهم يجعلهم ذوي مكانة مرموقة ومقصد للزوار خصوصا المتصوفون منهم أمثال سيدي العربي بن السايح المتوفى سنة 1891 صاحب الزاوية الشهيرة والجامع بين التصوف الطرقي لأنه كان من أقطاب الطريقة التجانية وبين العلم وخصوصا الحديث. ومثل أحمد بن عاشر الحداد المتصوف المتوفى سنة1908 ومثل سيدي علي بن المهيدي العيساوي المتوفى سنة 1304 / 1887م ، وغيرهم(42).

- العلماء العاملون : أي العلماء القارنون بين عملهم وسلوكهم ، فالعالم الخامل يكون مجهولا لدى الناس والعالم السلبي يكون محط انتقاد اجتماعي أما العلماء الذين لايخافون في الحق لومة لائم أمثال العالم إبراهيم التادلي والقاضي محمد البريبري وغيرهما فهم يحظون باحترام الجميع بل باحترام السلطان(43).

- الشرفاء : اشتهر منهم بالرباط بيت الوزانيين أصحاب دار الضمانة كانوا يقصدون لالتماس البركة أمثال مولاي التهامي . ومولاي العربي ومولاي عبد الله كما اشتهر من الشرفاء علويو الرباط بنقبائهم عبدالله بن المامون ـ وأحمد المترجي وكان الشرف والانتماء إلى الأسرة المالكة يعزز كل واحد منهما الآخر في الرفعة الاجتماعية لهم وكان لباقي الشرفاء الأدارسة مكانتهم وتمييزهم عن باقي الناس(44).

- أهل الحسب والنسب : وهم أصحاب (القاع والباع) أي البيوتات المعروفة بسلطة أو جاه أو رفاء منذ القديم ـ وغالبا مايكون أهلها مثالا للاستقامة والأخلاق النبيلة. لذلك كان المخزن يختار منهم بعض موظفيه كالأمناء والنظار والمحتسبين كما أسلفنا الذكر .

- الإسلاميون : وهم من أسلم من أهل الذمة وخصوصا في حي البحيرة الذي كان مقر اليهود قبل انتقالهم إلى الملاح في عهد المولى سليمان. وكان هناك بعض التنافر بينهم وبين باقي السكان الذين اعتبروا الكثير منهم أسلم لئلا يتخلى عن مكان سكناه ولم يسلم عن عقيدة(45).

- **الدهماء أو الغوغاء** : الدهماء والغوغاء : هذا الوصف أعطي لحثالة المجتمع من ذوي رذائل الأخلاق من لصوص وسكارى وعاهرات ... الخ ، ولا علاقة له بالجانب المادي أو الفقر المادي(46).

VI - معيار الثقافة والعلم :

يمكن أن نميز داخل المجتمع المغربي ككل بين فئة المتعلمين وفئة الأميين والجهلة . فداخل الفئة الأولى نجد :

- **العلماء** : أي الملمون بالثقافة الدينية والعلوم الوقتية منهم المفتون والقضاة والمدرسون في المساجد والزوايا والخطباء وبعض العدول.
- **الفقهاء** : وهم المتضلعون في الفقه أكثر من إلمامهم بفنون الثقافة الوقتية الأخرى.
- **الطلبة** : وهو العارفون بالكاد أحيانا مبادىء القراءة والكتابة .

وداخل الفئة الثانية :

- **العامة** : وهي الفئة التي تعد جاهلة ، ولكن هذه اللفظة تعني المفهوم المضاد لكل عوامل البروز أو التفوق الاجتماعي - فحينما يخاطب المخزن العامة فإنه يقصد من لم يكن عالما أو شريفا أو غنيا أو قائدا مدنيا أو عسكريا أو زعيما روحيا ، لذلك تختزن لفظة العامة معنى واسعا لايقتصر على الجهل بل يقصد عكس الأعيان.

والخلاصة أن خصوصيات المجتمع الرباطي كمجتمع مديني كانت أقل من المظاهر العامة التي يتشارك فيها مع مجتمعات المدن المغربية الأخرى بجميع مكوناتها ، ورغم ذلك يظل مصطبغا بصبغته المتميزة.

الهوامش :

1) - انظر الفصل الخاص برؤساء البحر في كتاب : مدينة الرباط وأعيانها خلال القرن التاسع عشر . مطابع الأطلس ــ منشورات جمعية رباط الفتح1995.

2) - L. Brunot : La mer dans les industries indigènes de Rabat et Salé ,Paris1920 , p . 104.

3) - المرجع نفسه ، ص : 319.

4) - Robert Chastel : Rabat-Salé vingt siècles de l'Oued Bouregreg. Edition la Porte... p : 95.

5) - L. Mercier : Cérémanial qui entoure l'arrivée du Sultan à Rabat. in Ar, Mar, vol VI , p: 412.

6) - L. Mercier : L'administration de Rabat. in Ar. Mer.Vol VII. p : 355 .

7) - المرجع نفسه ، من ص 369 إلى ص :377.

8) - أنظر الفصل الخاص برؤساء الأوديا في كتاب للمؤلف هو مدينة الرباط وأعيانها خلال القرن التاسع عشر - مطابع الأطلس - منشورات جمعية رباط الفتح.

9) - L. Mercier : L'administration de Rabat - op , cit , p : 360.

ووثائق خاصة : وثائق أسرة الزعيمي .

10) - ميرسيي: المرجع السابق ، ص : 353 وكذلك ظهير ربيع الأول1303 كناش 371خ.م.

11) - تركة محمد بركاش في حوزة صاحب البحث.

12) - Henri de la Martinière : Souvenirs du Maroc. Paris 1919. p : 28.

13) - كناش العربي فرج في حوزة أسرة الأزرق (وثائق خاصة).

14) - كناش 802 وكناش 798 (عائلة فرج) خ.م.

15) - كناش 798 : مداخيل وصوائر عائلة فرج 1322 - 1338، خ.م.

16) - Miège J.l : Le Maroc et l'Europe , Paris 6 . 1962, T 3 , p : 28 et 33.

17) - المرجع نفسه ، من ص : 28 إلى 37.

18) - وثائق الزعيمي ووثائق بركاش (وثائق خاصة).

19) - Caillé J.La Ville de Rabat jusqu'au protectorat Français, Paris 1949. p : 347.

20) - Miège J.L. documents inédits sur l'artisanat de Rabat et salé au milieu de XIXe. in BE.S. M. n° 82, oct 1959 , p : 173.

21) - المرجع نفسه ، ص : 179.

22) - Champion Victor : Enquête sur la situation des metiers et des industries indigènes de Rabat. in bulletin officiel n° 223 et 224, 29 Janvier et 5 Fevrier 1917.

23) - Miège J.L : documents inédits , p : 173.

24) - المرجع السابق.

25) - Beaumier .A : Description Sommaire du Maroc. Paris 1868, p : 36.

26) - المرجع نفسه ، ص:31 .

27) - Le Tourneau.R : La Vie Quotidienne à Fès en 1900 , p : 102.

28) - الضعيف : تاريخ الدولة السعيدة . تحقيق أحمد العماري . ص : 391.

29) - Caillé. J: La Ville de Rabat .... p : 329. .

30) - Brunot .L : La mer dans les industries... p : 104.

31) - Ar : AE. F : Lettre du 1 Juillet 1850. corres. com. RT. de 1846 à1872 T.I.

32) - مصطفى بوشعرا : الاستيطان والحماية - المطبعة الملكية 1987 ، ج2 ص : 752.

33) - L. Mercier : l'administation de Rabat... op. cit. p: 367.

34) - Champion .V. : Enquête sur la situation des metiers ... op . cit. p : 178.

35) - Laroui Abdallah : Les origines sociales et culturelles du Nationalisme Marocain... Paris 1977 . p : 107.

انظر أيضا مييج : المغرب وأوربا ج 4 ، ص :397.

36)- L. Brunot : Textes Arabes de Rabat . Hesperis 1939, p X.

37) ـ مصطفي بوشعرا : الاستيطان , ج2 ، ص : 751.

38) ـ المرجع نفسه ، ص : 752.

39) ـ برونو ، المرجع نفسه ، ص : X.

40) ـ مصطفى بوشعراء : المرجع نفسه والصفحة نفسها.

41)- L. Mercier : l'administration de Rabat, op cit : 303.

42) ـ انظر الفصل العاشر من كتاب صاحب البحث : مدينة الرباط واعيانها ، مرجع سابق .

43) ـ أيضا : انظر الفصل التاسع.

44) ـ كذلك : الفصل العاشر.

45)- L. Brunot : Textes Arabes de Rabat , op , cit , p : XIV.

46)- L.Mercier : l'administration de Rabat , op , cit , p : 360.

أنماط العيش بالمجتمع القبلي
نموذج تادلة والأطلس المتوسط

ذ. الملكي المالكي*

توطئـــة :

تتناول هذه المداخلة بالدراسة قضية أنماط العيش في مجتمع المغرب الوسط في إطار بيئتين جغرافيتين متباينتين بل متعارضتين من حيث الطبيعة وبخاصة المناخ والغطاء النباتي ومصادر الماء وحتى مستويات الارتفاع ، ومن حيث الديموغرافية وذلك بين أمازيغيين وعرب أو بين ديموغرافيتين مختلفتين في العادات والأعراف والعلاقات مع السلطة المركزية .

فهل نستطيع تحديد نمط أو أنماط العيش في هذا المجتمع الذي اجتمعت فيه خصائص التعارض والتكامل ؟

وهل يمكن حصر الأنماط في نمطين رئيسيين انطلاقا من الثنائية التي تكررت سلفا ؟ وأي النمط أصلي ؟ وهل ثمة مرحلة انتقالية أو ثنائية النمط ؟ وماهو اتجاه التطور لهذه الأنماط ؟

إن طرح الإشكالية بهذه الكيفية الثنائية مؤشر منهجي يطبع مجموع هذا البحث بثنائية تعد عنوان أطروحته المركزية ألا وهي رحل ومستقرون أي تناول الظاهرة في مستويين أو ثنائية النمط مع جميع العناصر المتضمنة داخل كل نمط كدرجات الترحال ودرجات الاستقرار .

.نمط عيش القبائل العربية :

أ ـ ضعف درجة النجعة : ويمتد مجال هذا النمط من الشمال إلى الجنوب.

ا ـ حياة شمال وشمال غرب تادلا أو الهضبة الوسطى :

من أهم محددات أو عناصر هذا النمط : ظاهرة مصادر الماء (1) وتتميز بالندرة وتتنوع هذه المصادر بين :

1ـ **أودية** : قليلة لكنها مفيدة وأهمها : واد كرو ويجري على طول الحدود الشمالية الشرقية للإقليم بجوار غابة السماعلة يجف في غشت وشتنبر تاركا (جداول) للشرب ، وتعد سيول أمطار الصيف مضرة ! ثم واد زمران عند أولاد بحر الكبار ، وواد قيشر ، وواد زام عند بني سمير وتجف صيفا بسبب جيرية الصخور.

---

*ـ أستاذ باحث بكلية الآداب ـ تطوان .

2 ـ **عيون** : في بني خيران وهي نادرة ، تنقص مياهها في الصيف بحوالي الثلث وفي أولاد حمادي غين ركادة(نائمة).
3 ـ **ضايات** : في تربة غير منفدة ، تجف صيفا كـ : ضاية كتلة النعارة وكتلة الحمدة عند أولاد فنان ، تنشأ بفضل أمطار العواصف في الخريف وقد سقط بالناحية 80ملم أو 1/5 التساقطات السنوية بين 14و20مم 1345/ 24 و30 غشت 1926 (2). و4 ـ آبار .
ولهذه الظاهرة تأثير على المجال :
1ـ نسبة أراضي المرور والأراضي الزراعية (3) .

	أراض الحرث	**أراض راقدة**	**أراض المرور**	**غابات**
* بني خيران / الكناديز	6/15	1/5	1/3	1/15
موالين الدندون	5/9	1/9	2/9	1/9
* السماعلة	13/25	1/25	2/25	9/25
* ورديغة / بني سمير	½	1/10	4/10	لاشيء
أولادبحر الكبار	5/8	1/8	¼	¼
أولاد بحر الصغار	½	1/5	3/10	لاشيء
المجموع	5/9	1/9	2/9	1/9

الأراضي الجماعية : تشكلت قبيل الاستعمار ، نهاية ق 19 ومثلت حوالي 1/3 التراب . كلها متعلقة بحقوق الاستعمال من قبل السكان وهي أراضي جماعية. ومحروم وملك وغابات المخزن .

ـ **الغابات المخزنية** (في إقليم الهضبة الوسطى) :30900هـ .
الكناديز : 1400هـ .
موالين الدندون : 4000 هـ .
غابة السماعلة : 25500هـ .

ولطبيعة هذا المجال كذلك تأثير واضح على القطيع :

ـ **وضعية قطيع الهضبة الوسطى**(4) :
السماعلة : 108.178 رأس .
أولاد بحر الصغار : 060.856 رأس .

أولاد بحر الكبار :056.493 رأس .المجموع : 333.155 رأس . أي حوالي 1/13 و 1/26 من موالين الدندون : 053.702 رأس .

مجموع القطيع المغربي حسب الزيادة والنقص(5) .

بني سمير : 030.214 رأس.

الكناديز : 023.712 رأس .

- **الشكل** : أدى امتزاج سلالات أمازيغية وعربية إلى ظهور سلالة تادلة مع هيمنة السلالات العربية ، العلو 75/65 س ، والوزن 70 كلغ للفحول و45 للنعاج(6).

ونتج عن ظواهر ندرة الماء وطبيعة المجال ووضعية القطيع علاقات معينة مما يوضحه كل من جدول الانتجاع وجدول توزيع الماشية بحسب الملاكين :

2 – جدول الانتجاع : أراض المرور التي يمارس فيها الانتجاع وحجم الماشية التي تحل بها :

الجهات القبائل	تبقى في عين المكان	غابات السماعلة	الكعدة الكبيرة	مكرط واد زم	طوال أزرو	العلالسة ومكطع الزوجش	بني خيران	زعير وبني مسكين	زايان الأطلس المتوسـ
بني خيران	جميعهم	....	....	....	....	.... /	.... / 1/6 خـ	.... / 1/15 خـ	بعـ
السماعلة الشماليون..	1/20	¾	.... / 1/40	.... / 1/5	......	....	1/8 خـ	بعض	القطعـ
السماعلة الجنوبيون...	1/8 / 1/15	¼ /	1/30	1/3	2/5 / 1/3	.... /	1/5 خـ /	القطعان	فـ
بني سمير	1/5	....	4/5	......	....	....	1/5 خـ		
الكفاف وأولاد إبراهيم (أولاد بحر الكبار)....	3/5	.... /	2/5 / 1/2	...... /	....	2/5	......		الخريـ
بني يخلف (أولاد بحر الكبار)	1/10 / ...	....	......	....	.... /	الجميع	......		
موالين									

الغرافـو المفاسيس (أولاد بحر الصغار)	...								
أولاد عزوز (أولادبحر الصغار)									

خـ . في الخريف ، أو بدقة أكبر من بداية شتنبر إلى بداية سقوط الأمطار .

جدول توزيع الماشية بحسب الملاكين(7)

عدد الملاكين عدد رؤوس الغنم	بني سمير	أولاد بحر الصغار	أولاد بحر الكبار	السماعلة	الكناديز	مواليـن الدندون	مجموع شمال تادلا
من 0 إلى 75 خروف	635	684	753	1.658	297	682	4.709
من 75 إلى 200 "	84	111	176	307	71	153	902
من 200 إلى 500"	11	37	37	63	17	49	214
من 500 إلى 1000 خ	....	7	....	6	3	3	19
أكثر من 1000 "	....	4	...	1	3	...	8
المجموع	730	843	966	2.035	388	890	5.852

. حياة وسط وجنوب تادلا وإقليم الدير :

وتتميز مصادر الماء كذلك بالشحة لانتشار تربة منفدة وقلة التساقطات وسوء توزيعها خلال العام بين أودية جافة وعيون وآبار.

ـ المراعي وتتميز بخصوصية فصلين متعارضين وبالقحولة.

ـ النجعة أثناء الحرث ينتشر مستقرون بين نونبر إلى فبراير ، وعند الفراغ من الحرث يقع الرحيل وتترك الدشور للعجزة ، وينتجع بني زمور في سركان ، وبني ملال وبني معدان في الضفة اليمنى لأم الربيع إلى فصل الحصاد ، أما الدير فهو يتميز بالجريان والأبار .

- الآبار"

الفخدات	عدد الآبار	متوسط العموم
أولاد يوسف	52	12
أولاد يعيش	11	19
الزواير	02	22
أولاد سعيد	10	05
أولاد أكتاو	05	25
أولاد عياد	01	07

وتؤثر الحرارة والارتفاع على الماء والنبات ، مع ملاحظة أهمية غراسة الأشجار المثمرة في إقليم الدير(8).

أنواع الأشجار والعود أصحابها	الزيتون	اللوز	البرتقال	التين	الكرمة
بني ملال وأيت الربع	7751	–	1500	400	16
بني معدان	–	–	11	900	–
بني عياط	51000	135000	2000	26	127
أيت سعيد	1600	–	57	279	7
المجموع	60.351	135.000	3562	1705	150

- غنم الأمازيغيين بالدير هناك 3 أنواع + "تادلا"(9) + "شلوح" (على الدير) + "شلوح تادلا" : في حواشي الجبل والسهوب بالتمازج ، علو الخروف حوالي 60س وذلك بعد حوالي 12 شهرا ووزنه 30 - 35 كلغ عندحوالي الشهر 10 و 39 - 45كلغ عند حوالي 18شهرا وعدد القطيع حوالي 30 ألف رأس(10).

وتخضع طريقة الكسب للحقيقتين :

1) - صيانة زراعات القمح والشعير في حالة النمو .

2)- انتهاز فرصة أراض المرور الشاسعة في هذا الفصل.

الميل إلى الاستقرار :

استخلصنا مما سبق ، أن القبائل العربية بتادلا أقرب إلى الاستقرار منها إلى الترحال ومن مظاهر ذلك خضوعها للمخزن وتجلى في عدة مستويات منها دفع الضرائب

والخضوع للقضاء الشرعي فيما يخص الملكية والأحوال الشخصية نسبيا ، والطابع الفردي لهذه الملكية ، وأنماط استغلال الأرض.

وتعتبر الملكية الفردية الأرض الشكل المنتشرين المستقرين. وفيما يخص القطيع توجد أشكال للملكية الفردية بين المستقرين وبعض الأفراد الرحل الذين انفصلوا لعدة أسباب عن فرعهم ، كما يحدث في أداة الحرث وأدوات الاستعمال الشخصي. ونميز بين أشكال خاصة من الملكية الفردية والملكية الجماعية ذات الطبيعة الإسلامية.

وتمثلت الأشكال الخاصة للملكية الفردية أولا في أملاك المخزن حيث يضع يده في جميع البلاد الخاضعة على أملاكه ويستغلها ، وثانيا الإقطاع الممنوح من طرف حاكم إلى عدد من الشخصيات والشرفاء ، ويملك عليها الشريف أو المستفيد عندئذ جميع الحقوق وثالثا أملاك الحبوس(11) ، وهي خيرات محبسة لفائدة مؤسسة دينية أو لمساعدة عمومية كمسجد أو زاوية أو مدرسة ، ورابعا أملاك الزاوية . وتمثل الشكل الخاص للملكية الجماعية في أرض الكيش . وتعتبر كل قبيلة كيش نفسها رهن إشارة السلطان الذي يكلفها بالخدمة العسكرية ، ويسلمها أرضا محددة كمقابل عن خدماتها في الماضي والحاضر والمستقبل ، وتظل ملكية للمخزن ولايمنحها فيها سوى الانتفاع ، وتكون في نفس الوقت ملكية جماعية للقبيلة . وكان أيت الربع قبيلة كيش .

وتعد أشكال الملكية المذكورة مشهورة جدا في المدن والقبائل الأكثر قدما والخاضعة للمخزن ، لكنها نادرة في هذه الأقاليم التي تأرجحت بين السيبة والخضوع.

كان أيت الربع قبيلة كيش. ولهذا فإن ملكية الأرض مبدئيا جماعية. وظلت كذلك حتى الفترة المدروسة عند عدد من القبائل مثل سمكت والكطاية بالخصوص ، لكنها تحولت تقريبا إلى ملك عند بني ملال وبني معدان الذين صاروا مستقرين. وتأسست رسوم الملكية بواسطة عقود مكتوبة ، وظل للمخزن نفوذ محسوس في هذه البلاد ، كما وجد قاضي وعدول في بني ملال .

التجمعات السكنية :

1 - بوادي ومدن : انتشر السكن تحت الخيام عند بني خيران ، وفي الدشور عند السماعلة ، وقرى النوايل في بني عمير ، وتواجدت الأشكال الثلاثة لدى بني زمور . ويقدم بني عمير وبني موسى نموذج القرية الضخمة المكونة لدواوير والمؤلفة من صفوف النوايل والأكواخ مع بعض الدور ، ولتلك التجمعات أهمية بالغة وتدعو إلى الاعتقاد بأنها قرى لعدة فخذات. وإذا نحينا جانبا التعارض الكبير الذي لاحظه أوكيستان بيرنار(12) بين فاسي وأحد البدو من تادلا أو الأطلس المتوسط ، حيث وصف الفاسي بالمثقف ، المرهف والتادلاوي أو الجبلي بكونه نصف عاري وجاهلا ، فإن هذا التعارض يكف عن أن يظل صحيحا عندما نأخذ بالمقارنة مستقرا من أبي الجعد أو بني ملال ، وهما ليستا عواصم مخزنية ، ولكنهما مدن في الذهن المغربي.

ويعتبر كل تجمع متوفر على سور وقصبة وصومعة وبعض الدكاكين وسوق أقرب إلى حاضرة ، ولكنها تظل مدينة بالمقارنة مع قرى النوايل في بني عمير وقرى الخيام

والدشور عند بني خيران والسماعلة، وبهذه المماثلة تصبح أبي الجعد التي ضمت عند نهاية القرن الثالث عشر / نهاية التاسع عشر حوالي [6.500 من الأنفس] ، وقصبة تادلا [1.500ن] ، وبني ملال [4.000 ن] مدنا حقيقية (13).

2 ـ الصناعة : جهل السكان الأساليب الصناعية المتطورة . واقتصرت البضائع التي أنتجوها على سلع الاستعمال الأساسي من خشب وخزف وثياب وبرانس وجلاليب. واستخدموا الجلد المدبوغ في صناعة البلاغي في أبي الجعد وقصبة تادلا وبني ملال . وصنعوا الأدوات الفلاحية البدائية والسلال من الدوم والقصب ، وأدوات حديدية بسيطة . ولم ترق هذه الصناعة إلى مستوى جلود مراكش وتافيلالت ، أو خزف فاس. وتعد زرابي بني ملال أرخص ثمنا. ويؤدى عن قطعة من [60 , 1 × 4 م.] وهو طول وعرض معتاد مايقرب من ثمانين فرنكا وذلك عام 1336 / 1918 ، وتباع بكميات كبيرة في سوق الجمعة .

ويلاحظ أن جميع النساء تقريبا يعرفن الحياكة. وتصلح بيزارة أبي الجعد ستائر للأبواب ولتغطية الأرائك أو الموائد . وهي نسيج خفيف نسبيا عرضه متر ونصف وطوله ثلاثة أمتار ونصف أو أربعة ، ونجده بسهولة عام1334 / 1916 بثمن خمسة وعشرين إلى ثلاثين فرنكا. وابتداء من 1336 / 1918 ارتفع الثمن إلى أربعين أو خمسين فرنكا ، وهو سعر ظل في تصاعد ، وترتكز صناعة الزرابي على غسل وغزل الصوف وصبغها ثم نسجها. ويتطلب صنع زربية طولها متران وعرضها نصف متر من امرأة شغالة العمل طيلة النهار لمدة ثلاثة أيام تقريبا . وتستهلك من الصوف عشرة فرنكات. لكن الزربية تباع بخمسة عشر إلى عشرين فرنكا. ويتطلب هدون من عشرة إلى إثني عشر يوما من العمل ، وطوله عادة أربعة إلى خمسة أمتار ، وعرضه متر ونصف. ويكلف خمسين فرنكا من الصوف ويباع بثمن خمسة وسبعين إلى ثمانين فرنكا بأسعار عام 1336 / 1918(14).

3 ـ التجارة والموقع بالنسبة للمواصلات : قامت أبي الجعد وقصبة تادلا وبني ملال بوظيفة همزة وصل بين السهل والجبل ، وحلقة إتصال بين عواصم الشمال والجنوب . وشكلت الطريق من الدار البيضاء مرورا بمكان "خريبكة" وواد زام وأبي الجعد وقصبة تادلا خط مواصلات رئيسي بين الساحل والأطلس المتوسط. وشكلت بني ملال مرحلة للقوافل وقمة مثلث متساوي الساقين بين الدار البيضاء وبني ملال ، ثم بني ملال ـ مراكش حيث بلغ طول كل ضلع مائتين وأربعين كيلوميتر تقريبا. ولم يقل الطريق المار بمحاذاة سفوح الجبال في أهميته عن الخطوط الأخرى للربط بين فاس ومراكش أو بين الجزائر وسوس مرورا بتازة وتادلا(15).

ويعد التادلاويون ماهرين في متاجراتهم ، ولم يتخلوا أبدا لليهود ليحتكروا التجارة . وظهر تجار كبار بين السكان في أبي الجعد وبني ملال. وظلت المبادلات كثيرة في الأسواق وعنصرا أساسيا في الحياة العربية والعربية الأمازيغية . وشكل الذهاب إلى

السوق أمرا مهما وخروجا عن الرتابة لأنه يحقق لقاء الأصحاب والتزود بالأخبار وتحقيق الكسب وخوض المجادلات الطويلة. وكان لعدة أسواق أهمية خاصة تجاوزت الدور المحلي ، لكونها نهاية الخطوط التجارية المهمة ، ولموقعها في أسفل منحدرات الأطلس فصارت بحق أسواقا عربية أمازيغية مثل زاوية الشيخ وبني ملال ووايزغت(16).

4 ـ التجمعات المستقرة :

ـ تجمع أبي الجعد :

1 ـ الوصف : توفرنا على وصفين أو ثلاثة لأبي الجعد قبل أن يقع بها تحول ، أولها لدوفوكو وذلك حوالي عام 1883/1300 ، وثانيها للمترجم مارتي MARTY حوالي عام 1908/1326 وثالثها للقبطان الباحث بيروني حوالي عام 1920/1338 .

ونستخلص مما كتبه الأول الذي أقام بالمدينة أثناء الخمسة عشر يوما الأولى من عام 1883/1300 ، بأنه بدون أهمية أبي الجعد كمركز ديني وطابعها من خلال مساجدها وقبابها الكبيرة ومساكن صلحائها الثرية ، فإن هذا المحل لايستحق أبدا إسم مدينة ، وقل ما زاد سكانها عن ألف وسبعمائة نسمة .

وبحسب مارتي فإنه في عام 1908/1326 ضمت أبي الجعد ثلاثة آلاف من الأنفس سكنوا في ثمانمائة إلى ألف من المنازل ، وانتشرت البساتين في الشرق. سكن المنازل الفخمة منها أبناء وأقارب السيد. وامتدت دور المدينة في الغرب ، وأطلق عليها إسم الزاوية. ووجد بالمدينة مسجدان كبيران ، بالقرب منها أربعة أضرحة ، وأقام اليهود في الشمال الشرقي.

2 ـ الأحياء : كان عددها تسعة أحياء حسب مارتي ، ثلاثة لكل من سيدي الغزواني وسيدي المكناسي وسيدي العربي ، وثلاثة أخرى لكل من سيدي عبدالقادر وسيدي عبد السلام وسيدي الغراري ، ووجد في الريف الفوقاني أحياء بني زمور، واعتبر درب سيدي علي آهلا بالشرفا ، وأخيرا الملاح الذي تألف من ثمانين منزلا أوت مازاد على مائتين من اليهود.

واخترق أبي الجعد مسيل ماء لايصلح إلا لشرب الدواب وسقي الأجنة. وكان لبعض المنازل آبارها ، وتزود القسم الأعظم من المدينة من مجموعة مؤلفة من ستة آبار واقعة على بعد كيلوميتر ونصف تقريبا في اتجاه الغرب، بواد رجال الميعاد.

ولكون المدينة مركزا دينيا وسياسيا لتادلا ، فقد جعل منها حق الالتجاء مأوى لجميع المضطهدين والمظلومين . وهكذا وفد عليها أشخاص من ورديغة وبني مسكين والشاوية وممثلون من كافة قبائل تادلا ، وبعض أمازيغيي الجبل ، إضافة إلى اليهود. لكن فائدة أبي الجعد ظلت تكمن دائما في مرابطيها ، وكان من أهمهم في نهاية القرن الثالث عشر / نهاية القرن التاسع عشر سيدي بنداود ، الذي ظل محتفظا بمعظم ملكيتها ، وابنه وخليفته سيدي محمد الشرقاوي وأخوه محمد سلطان بن بنداود الذي تكلف بإدارة دفة السياسة مع

أحد قواد بني زمور وهو الجيلالي بن الميلودي الذي نصبه المرابط قائدا بأبي الجعد. فكان "وزيره في الأمور الوقتية ومساعده العلماني ووالي المحكمة"(17) . ولم يكن مرابطو أبي الجعد مرتاحين لتوافد المهاجرين لتعمير المدينة التي أسسوها وملكوا عام 1908/1325 خمس الأبنية فيها ، إضافة إلى مزارع وعزيبات تحت أسماء مختلفة كالفقرا، والشرفا، وشرقاوة ، وجبالة(18). وكان لهم ممتلكات وخدام في ناحية سطات [شرقاوة القيشاش] وبني مسكين [أولاد احمر الجنيوي] والرحامنة [أولاد عطية] وفي مزاب وبين الشاوية وتادلا عند فخذة فقرا بلغراف. وكانوا متمتعين بامتيازات وإعفاءات مخزنية(19).

3 ـ الموقع بالنسبة للمواصلات :يعد موقع أبي الجعد متميزا لأنه في ملتقى طريقين كبيرين من فاس إلى مراكش ومن خنيفرة إلى الدار البيضاء ، في حين ظل نموها محدودا لموقعها وسط سهل ذي مسالك وعرة. وتستغرق الرحلة أربعة أيام من أبي الجعد إلى الدار البيضاء ، يومان منها في بلاد السيبة ، ويومان في بلاد المخزن. وليس هناك اتصالات مع مراكش بسبب صعوبة المواصلات . وتعد الطريق محفوفة بالمخاطر ، ويتم تغيير الزطاطة في الغالب عدة مرات .

4 ـ سوق الخميس :ليس هناك حي تجاري بالمعنى الحرفي ، غير أن مكان السوق الأسبوعي استخدم كذلك للتبادل كل يوم. وقامت حوانيت صغيرة من التراب المدكوك أو الحجارة ، عمقها متران وعلوها متر ونصف ، جلس فيها صناع وتجار ، وكان يعثر فيها على أغلبية المنتجات الأوربية التي تباع بفاس ومكناس ماعدا البترول والسكاكين والأقلام وهي سلع وفيرة عند "الصالحين" الذين حصلوا عليها مباشرة من الدار البيضاء ، مرسى تموين تجارة أبي الجعد. وكانت الملابس القطنية والشاي والروز والسكر ومواد البقالة والعطور والثياب ، تستورد مقابل الجلود والصوف والشمع. وازدهرت المدينة بصناعتها وتجارتها . وفيها كثير من الصناع العرب من بنائين ونجارين وحدادين وخياطين ومطرزين وقياطينيين برادعيين وسرايجية وعمال الجلد وخرازين وصائغين وجواهريين. وتدوم السوق يومي الأربعاء والخميس.وكان يهرع إليها الناس من جميع أركان تادلا.

2) ـ تجمع قصبة تادلا :

تصنف بين أهم المآثر العمرانية العسكرية في تادلا . وصل إليها دوفوكو يوم 14 ذي القعدة 1300/ 17شتنبر 1883 وكتب عنها وصفا مفاده أن القصبة بالحصر ظلت مصانة من طرف المخزن ، وكانت أحسن قصبات المغرب. لها سوران هما سور خارجي من التراب المدكوك سمكه متر وعشرون سنتيمترا ، وعلوه مابين عشرة إلى إثني عشر مترا، وهي مسننة تدعمها أبراج ، ثم سور داخلي سمكه متر ونصف وأعلى من الآخر ومنفصل عن الأول بواسطة زنقة عرضها مابين ستة إلى ثمانية أمتار. ويوجد المسجد ودار المخزن في الشرق ، بالإضافة إلى بيوت السكان التي تخربت وهجرت ، وكان للقصبة صومعتان مستطيلتان مزخرفتان تذكران بصوامع تلمسان، وهي ذات لون أمغر وتزداد جمالا وجلالا

بمنظرها عند غروب الشمس. وبلغ عدد سكان قصبة تادلا في نهاية القرن الثالث عشر / نهاية القرن التاسع عشر ألفا وخمسمائة نسمة. وكان ينعقد فيها سوق الاثنين لترويج سلع أمازيغية وعربية، وهو مرحلة وسطى بين سوقي أبي الجعد وبني ملال (20).

3) - تجمع خنيفرة :

تعد قصبات خنيفرة بجانب قصبة تادلا مجرد منازل محصنة . انتصبت في ثلاث قصبات رئيسية اثنتان على الضفة اليمنى لأم الربيع وكانت تابعة لأبناء موحى أوحمو وأبناء أخيه ، والثالثة على الضفة اليسرى وهي قصبة موحى أوحمو. ولبنائها طابع فني ، وسقفت بعض بيوتها بخشب الأرز ، وشبكت بعض نوافذها بزخارف حديدية مثيرة للناظرين . وبلغ سكان هذا التجمع في نهاية القرن الثالث عشر / نهاية القرن التاسع عشر ألفا ومائتين وثلاثين نسمة. وهي سوق مهمة بالنظر لموقعها .

4) - تجمع بني ملال :

1 - الوصف : نستخلص من مذكرات دوفوكو الذي زار المكان بتاريخ 17 ذي القعدة 1300 / 20شتنبر 1883 بأن قصبة بني ملال أو قصبة بلكوش مدينة صغيرة ضمت حوالي ثلاثة آلاف من السكان بينهم ثلاثمائة من اليهود. بنيت عند قدم الجبل فوق انحدار خفيف أو مخروط انصباب (22) ربط المدينة بالسهل. وقد زخرفته بساتين رائعة توقفت فجأة أمام جرف تفجرت من قلب صخوره عيون تسقي بساتين ودور القصبة.

وضمت بني ملال والأكواخ المجاورة أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة من الأنفس في مطلع القرن الرابع عشر / القرن العشرين توزعوا بين سكان أصليين ، وهم مزارعون وكسابون وتجار، وبين غرباء من قصبة تادلا وأبي الجعد. بالإضافة إلى فاسيين ومراكشيين وسوسيين وأمازيغيين. وازدهرت بالمدينة صناعة الزرابي والجلود إلى جانب العناية بالبستنة (23) والأشجار المثمرة(24).

2 - الموقع بالنسبة للمواصلات : تعد بني ملال تجمعا عربيا وأمازيغيا ومركزا اقتصاديا مهما. قامت باستمرار بوظيفة همزة وصل بين السهل والجبل ، وبين الساحل والأطلس المتوسط ومراكش فصارت بذلك موضع مرحلة بالنسبة للتجارة (25) ،وقطبا لتجمع سكاني مستعد للاستقرار في محيطها القريب وخاصة من القبائل التي كانت بني ملال إحداها(26).

3 - سوق القصبة : يوجد في قلب المدينة ، وهو شبيه بسوق أبي الجعد. ودخلت إليه سلع أيضا عن طريق الدار البيضاء أو مراكش. وتقوم قافلة مؤلفة من إثني عشر من الإبل كل خمسة عشر يوما لتصل إلى مراكش ، ولاتستغرق سوى أربعة أيام ، بينما طريق الدار البيضاء طويلة عبر أبي الجعد. وصدرت المدينة فواكهها إلى قصبة تادلا وأبي الجعد.

نمط عيش القبائل العربية :

تطرقنا إلى نجعة واستقرار القبائل العربية التادلاوية ، قسمنا هذه القبائل إلى ثلاث مجموعات هي تادلا الشمالية الغربية وتادلا الوسطى الجنوبية وإقليم الدير ، لتطابق ذلك مع واقع جغرافي خاص. وتناولنا على صعيد كل مجموعة ، في مرحلة أولى ظاهرة النجعة محاولين قدر الإمكان بحث مصادر الماء ودراسة المراعي والنجعة. واستخلصنا من كل ذلك السمات المشتركة بين هذه القبائل على صعيد تشكيل القطعان ، والنتائج الاجتماعية للكسب ، وطرق المشاركة فيه. وتناولنا في مرحلة ثانية ظاهرة الاستقرار عند هذه القبائل محاولين أولا بحث واقع الاستقرار الذي فرض الخضوع للسلطة المركزية وتمثل هذا الخضوع في دفع الضرائب ، وثانيا معالجة تجليات الاستقرار على صعيد النشاط الاقتصادي والزراعة والصناعة والتجارة، التي خلقت تجمعات سكنية مهمة لعبت دور أسواق. وحاولنا أن نستخلص من كل ذلك درجة النجعة ودرجة الاستقرار عند هذه القبائل.

تبين لنا أن القبائل العربية بتادلا أقرب إلى الاستقرار منها إلى الترحال ، وهي شبه منتجعة فقط، لأن تربية الماشية بالنسبة إليها نشاط من صميم الزراعة . ويعد الكسب مكملا لكونه مصدرا للصوف والحليب والنقود. ويعد من صميمها لأن دورة الرعي العربية، أو النجعة الصغيرة تتم في جزء منها على أرض الحصاد في الموسم الحرج. وقد فرض عليها ذلك طبيعة المجال الذي تقيم عليه.وهي لاتملك حرية واسعة الآفاق، كما عند الأمازيغيين ، فأصبحت قبائل مستقرة أو تميل إلى الاستقرار ، الشيء الذي أكده خضوعها للمخزن ووقوعها بين قطبين ظلا يتجاذبانها باستمرار هما الأمازيغيون الذين لم يكفوا عن غزو قبائل السهول كلما سنحت لهم الفرصة ، والمخزن الذي لم يتوقف عن تنظيم حملاته التأديبية والجبائية. ولما جاء الاستعمار الفرنسي وامتحن هذه القبائل ، لم تجد أمامها سوى خيار واحد تعلق بالتمسك بالإقامة فوق مجالها ، وذلك إما للدفاع عنه ، وهذا مافعلته وحاولت الصمود فيه ، أو بالاستسلام المؤقت وهذه هي النتيجة التي استخلصتها من كافة إمكانيتها الاقتصادية القائمة على استغلال مجال محدود تقريبا .

وقد تمثل الخضوع للمخزن في عدة مستويات من بينها دفع الضرائب والخضوع للقضاء الشرعي فيما يخص الملكية والأحوال الشخصية نسبيا، والطابع الفردي لهذه الملكية وأنماط استغلال الأرض .

. نمط عيش الأمازيغيين :

تعريف الانتجاع الكبير(27).

قام هذا النوع من النجعة على أساس التنقل الدوري للقطعان بين ناحيتين مختلفتي المناخ(28)، ليس لهذا النوع من العيش أية خصوصية مغربية ، غير أنه يندر وجود معلومات مغربية وفيرة ودقيقة حول هذه الظاهرة الجغرافية المتغيرة بتغير الشروط

الطبيعية والاجتماعية . وقد ذكر عدد من المهتمين بأنه "لانكاد نعرف شيئا تقريبا عن الانتجاع المغربي"(29). وظلت معلومات ضباط الاستعلامات الفرنسيين مضطربة ومبتورة حتى بعد مرور عدة أعوام على بداية الغزو(30) .وإذا كانت النجعة المغربية غير منحصرة في الأطلس المتوسط إلا أنها أخذت في الإقليم اتساعا كبيرا وأهمية قصوى بالنظر إلى طبيعة الشروط الجغرافية والمناخية والتاريخية للمنطقة. وارتبط الانتجاع بالصناعة الرعوية القائمة في أقاليم ذات مناخات مختلفة ، متوفرة على أكلاء ومراعي في فترات معينة من العام . ويعتبر الأطلس المتوسط بين البلدان ذات الانتجاع الجيد ، لأن ظروفه الجغرافية قيمة ومثل خصائص أصلية فسرت غالبية الفوارق الدقيقة المرتبطة بالانتجاع المغربي، وعكست مراحل حضارة وتطور المجتمع الأمازيغي وعلاقاته السياسية مع المخزن. ونظرا لتعقد هذه الظاهرة في الأطلس المتوسط ، فإنه يصعب وصف مجرد التنقل ببساطة على أنه انتجاع . وقد لايفيد تعبير الأطلس المتوسط شيئا في لغة السكان. لكنه يختلف في اتساعه تبعا للمعنى الذي يرتبط به . وبعيدا عن مناقشة الخصائص التكوينية التي ظلت غير مرتبطة تقريبا بظاهرة الانتجاع ، فإن هذا الأطلس هو مجموعة الأراضي المرتفعة المتكونة من هضاب وجبال شديدة التقطع ، وصل ارتفاع بعضها إلى أزيد من [1200م] ، يحده من الغرب سهل تادلا ومن الشرق سهول ملوية العليا والوسطى ومن الشمال عتبة تازة ومنخفض سبو أو الممر القديم لجنوب الريف . ويلتحم في الجنوب مع الأطلس الكبير في ناحية واد العبيد(31) . ويأخذ الانتجاع في الجنوب خاصية مختلفة بظهور تضاريس جبلية مؤقتة عند أيت عطا الصحراء. وفي الشمال الغربي يصعب ذكر وجود حدود لأن متوسط الارتفاع يقل تدريجيا حتى المحيط.

وفي أقاليم الانتجاع الكبير ، نصادف غالبا أراض مشتركة ، يتم احتلالها بالتعاقب من طرف أفراد من السهل ومن الجبل. وهكذا لما يغادر كروان مراعيهم الصيفية يحل محلهم بني مكيلد. وعندما ينزل بني مطير من جديد نحو سهل سايس، فإنهم يسلمون المكان لبني مكيلد وأيت سغروشن الذين يؤدون لهم مقابلا وهو نعجة لكل خيمة. وتكون وثيرة التنقلات منظمة بصورة ضيقة بحسب حالة الكلأ ومنابع الماء ، مما يسمح بتمييز انتجاع الصيف وانتجاع الشتاء. وفي عدد من الأماكن نجد انتجاع الربيع . وقد اعتمدت حياة قبائل أمازيغيي الأطلس المتوسط إلى حد كبير على القطعان. وصارت الصناعة الرعوية ضرورة جغرافية واقتصادية ، وقوة سياسية ، باعتبارها مصدرا للسكن والقوت واللباس. و"إذا كانت البقرة حيوانا مقدسا في الهند ، فإن الخروف يكاد يأخذ نفس المكانة في المغرب(32).

- أقاليم النجعة الكبيرة : ويمكننا تقسيم الأطلس المتوسط إلى ثلاثة أجزاء هي :

1) - ناحية الشمال الشرقي وقد حملت قمما أكثر علوا ، وهي محاطة بسهوب واد مسون وملوية الوسطى.

2) - الناحية الوسطى حيث سهل ضيق الجبل عملية المواصلات بين ملوية العليا وأزغار.
3) - الناحية الجنوبية وهي ملتحمة مع الأطلس الكبير وتطل على سهول تادلا وتألفت من واد العبيد والمنخفضات والأحواض الملتحقة به.

ويكاد يتطابق هذا التقسيم مع توزيع المجموعات الأمازيغية الثلاثة وهي بالترتيب بني مطير وبني مكيلد والقبائل القريبة منهما، ثم زايان وأيت زكوكو وإيشقيرن والقبائل الملتفة حولها ، وأخيرا أيت سري وأيت سخمان ،وباقي قبائل جنوب واد العبيد(33).

- **القطيع الأمازيغي** : نختم هذا التعريف بإلقاء نظرة على خصائص غنم الأمازيغيين . وهي تعيش في الجبال وبالخصوص عند السفوح ومقدمة الأطلس وفي الجنوب ، وقد تحصنت أمام الغارات الأجنبية خلال عدة قرون وانعزلت وتكيفت مع ظروفها الخاصة بها وهي من نوع قصير أو دحداح(34)، لايتجاوز طولها نصف متر كما في ناحية واويزغت ، ويصل إلى سبعين سنتيميترا في زاوية الشيخ. ويزداد حجمها بصفة عامة كلما انتقلنا من الشرق إلى الغرب. وهي ذات رأس صغير ، وتزن صوفها حوالي ثمانمائة غراما ، ويبلغ وزنها كاملة إثني عشر كيلوغراما في واويزغت وما بين ثلاثين إلى خمسة وثلاثين كيلوغراما في زاوية الشيخ ، وتراوح مردودها مابين [45 إلى 46] في كل مائة نعجة (35).

انتجاع بني مطير وبني مكيلد

- **مصادر الماء** : وتتمثل في عيون وآبار : وتمثلت مياه بني مكيلد في منابع ملوية وأم الربيع والعيون : أكلمان سيدي علي وأكلمان نتيفو ناسين وتيمحضيت وعين اللوح وأكلمان تعليلوين. وفي الأنهار : تاورش. وفلدي وأمسمي والعطشان وتيكريكر(36).
المراع : وتعد الغابة "لحمة" المرعى بين الفصول الجافة والرطبة .

- **انتجاع بني مطير ، ظروف الكسب** : بسبب انعدام الأمن أخذ الانتجاع شكل هجرة موسمية حقيقية(37) وانطلقت مواكب من رجال ونساء وأطفال يقودون بغالا وأبقارا مبردعة حاملة خياما وأثاثا بسيطا ، مارين بأزرو وبالطرق المؤدية للحاجب وخنيفرة فارين من الجبل الذي أصبح مغطى بالثلوج ومعاديا ، وذلك للالتحاق بأسرع ما يمكن بأراض إيطو التي يعد شتاؤها مناسبا للانتجاع .

وكانت قطعان فخذة أيت أورتيندي المقيمة على بعد 20 كلم تقريبا في جهة الحاجب عند سيدي إبراهيم تذهب للمشتى أو المشتوت سيدي عبد الرحمن شمال شرق سيدي إبراهيم في بقعة غابوية أقل علوا محمية من البرد حيث أوراق البلوط الأخضر إلى حين ظهور الربيع الجديد في بداية أبريل وحينئذ يلتحقون بسيدي إبراهيم وهناك ينمو ربيع كثيف ويقضون فيه شهرين ، ومن هناك تتم عودة الرجال والقطعان صعودا نحو الجنوب الشرقي وراء إيفرن بلاد بني مكيلد ، إلى حيث "العزيب" أو مرعى الصيف حتى نهاية يونيو حيث يعودون مجددا إلى سيدي إبراهيم . وكان بني مكيلد يحتلون مكان إخوانهم أيت أورتيندي...

وكان لكل فخدة منطقة مرور خاصة بها في الشتاء والصيف، وتكون محددة بدقة ومحمية ، لأنه إذا تركت حرية تامة لكل منها ، فإن نفس القطعان تجد نفسها في نفس الفصول ونفس الأراضي الشيء الذي ينهك المراعي كثيرا وهذا مصدر لنزاعات لاتحصى.

.انتجاع بني مكيلد، انتجاع منتظم(38) : نميز فيه بين :

ـ انتجاع الصيف : في الشمال الجبلي مع بني مكيلد الشماليين (أيت لياس).

ـ انتجاع الشتاء : تنقلات حرجة ذات مدى كبير للغاية ولاتكمن أهمية حركات مختلف فخدات القبائل في تكرارها بل في تغيرها مبينة ارتباط المنتجع والانتجاع بالظروف السياسية الداخلية والخارجية وفي انتجاع بني مكيلد يجب التمييز تاريخيا بين ثلاث مراحل منفصلة بواسطة حدثين كبيرين هما : سيطرة موحى أو حمو الزياني ، والتهديد الاستعماري الفرنسي .

ـ المرحلة الأولى : إقامة بني مكيلد على ترابهم الحالي ـ إثر نكبتهم بسبب الهزيمة التي تكبدوها عام 1234 / 1819 في واد سرو أمام الجيوش المخزنية بقيادة مولاي سليمان . ولم يكفوا عندئذ عن الانتشار نحو الشمال. وكانت هذه أحسن مرحلة للنجعة. وأنجزت الفخدات تنقلاتها شتاء في نظام معقد .

ـ المرحلة الثانية : بداية التبعية: اتسمت بمراقبة بني مكيلد وانتجاعهم من طرف المخزن وقواده الزايانيين . وصارت تحركاتهم مرصودة على المنحدر الغربي للأطلس المتوسط والأودية العليا لأم الربيع وبوركراك. وصاروا أمام خيارين : الابتعاد أو الإقامة في حالة انتجاع مقابل إتاوة لزايان (هكذا صارت نجعة أيت علي أوغانم وأيت مسعود) لكن أيت بوكمان الأبعد من زايان رفضوا الخضوع لهم. وتركوا الضفة اليسرى لبهت نحو أقصى الشمال، بين كرتيلا وأكوراي عند أكردنسوف.

ـ المرحلة الثالثة : التهديد الاستعماري الفرنسي . الانتجاع في ظروف الحصار بدءا من 1913/1331 مع تعرض لأضرار فادحة.

خلاصة :

إن التنقل الموسمي الذي قاد قبائل بني مكيلد ـ كمثال ـ لتقطع أزيد من 100(مائة) كلم كل عام بعيدا عن سكناهم ، يثير تساؤلات ويلقي ضوءا كاشفا على مجموع تاريخ المغرب، وخاصة حول طبيعة بلاد "السيبة" وأسرار حرصها على استقلالها والوقوف في سبيل ذلك ، في وجه السلطة المركزية التي أرادت أن تسلبها هذا الاستقلال .

ـ **انتجاع زايان** : لم تكن قطعانهم الكثيرة العدد لتكتفي بمراعيها الخاصة الخصبة مثل أيت زكوكو ناحية مكناس. إن انتجاعهم أكبر أهمية حيث مقدمة الأطلس المتوسط أو أزغار ...

قطيـــع أيت حركات مجموعة خنيفرة (نموذج قطيع زايان).

أنواع وعدد الرؤوس القبائل	الغنـــم	البقـــر	الخيـــل	البغـــال	الحميـــر
أيت خويـــا	3800	850	14	37	26
أيت شارط ...	2350	480	20	25	85
أيت عـــلا ...					
أيت ابن يشـي	1000	275	7	6	23
	700	600	12	18	25
المجمـــوع	7850	2205	53	86	159

السمـات المشتركـــة

1 ـ **أشكـال الانتجاع** : ارتبط الانتجاع في الأطلس المتوسط بشكلين مختلفين هما الانتجاع الصيفي الذي قدم الشكل الأكثر سهولة ، ولايتضمن سوى تنقلات بسيطة، وأشهر من مثله قبائل واد العبيد ، والانتجاع الشتوي الذي شمل دائما انتجاع الصيف واقتضى تنقلات على أراض مرور واسعة قادت القبائل إلى أراض أجنبية عنها ، وقدم بني مكيلد المثال الأكثر أهمية لهذا الانتجاع المزدوج.

وبينما يضطر الجبليون إلى النزول والاقتراب من قبائل السهول في الشتاء فإنهم بالعكس لايتحملون إلا نادرا الأجانب القادمين من السهل (39) ،والذين يوسعون أراضيهم على حسابهم ، فظل السكان الفقراء نسبيا والمحاربون الشرسون وهم الجبليون ، يبسطون نفوذهم في الغالب على المزارعين المسالمين بالسهل ، واعتبروا عيش المستقرين كنموذج يتمناه كل واحد منهم. ولهذا اعتقد البعض (40) بأنه من بلاد السهل نبع تصور أن الرحل هم الذين يخضعون المستقرين .

2 ـ **الانتجاع الصيفي** : يقوم ببساطة في الأودية الداخلية للجبال المجاورة. وفيه تنظم القبائل احتفالا كبيرا ويعلن شيوخها عن افتتاح المراعي وتتفرق القطعان عندئذ على قممها الاعتيادية ، ويعودون للنزول من جديد في أكتوبر. ولايصحبهم إلا عدد قليل من أفراد القبيلة ، ويبقى الآخرون على الأراضي الزراعية . ويتلاءم هذا الانتجاع الصيفي مع حياة مستقرة. ولاتمثل الخيام الصغيرة للرعاة أو "العزابة" سوى تكملة لأثاث مزارعين ملاكين يعيشون في منازل مبنية بالتراب المدكوك ومتجمعة في قرى ، حيث زرعوا الحبوب وملكوا أجنة فكان من الضروري أن يبقى قسم مهم من الأسرة في عين المكان ، لا فقط لحراسة المسكن ولكن كذلك لحصد الشعير والقمح والذرة التي لاتنضج إلا في فترة ذهاب القطعان المنتجعة كالغنم والماعز.

وتقدم قبيلة أيت عبدي القاطنة بواد العبيد ، من خلال أراضيها ونمط عيشها، المثال الأفضل للنجعة في الصيف. ويقومون بإعداد منطقة متسعة نسبيا من السهول على الضفة اليمنى لواد العبيد بأزغار فل ، وعلى الضفة اليسرى في منخفض بوتفردة وذلك للحرث. ولهذه السهول مناخ لطيف للغاية وملائم لزراعة الشعير والقمح. وفي المجرى الأعلى لواد إيجري ، يصبح السهل باردا للغاية عند تينكرفت ،وتقوم به زراعات ضعيفة من الشيلم والصورغو وخصوصا البرسيم الذي يصلح ككلأ للقطعان في الشتاء. وتوجد غابات جيدة مثل غابة حاونت وتغطي المنحدرات من الجبل شمال واد العبيد. أما جبال إيمرال ، وكوسر جنوبا فهي أكثر وعورة وعارية تماما. ويوجد أيضا عدد كبير من القصور المتفرقة في أودية صغيرة. ولأيت عبدي تجمعان كبيران يقع أحدهما بتينكرفت وفيها يتزود المنتجعون بحاجياتهم في الصيف وينتشرون في مراعيهم الأطلسية ، وتكونت من حوالي مائة من المنازل المنخفضة والتي يسميها الأمازيغيون "إيخربيشت"(41). ويتم توزيع مراعي الصيف بواسطة الشيخ بين مختلف فخدات أيت عبدي. ويتوجه البعض شمالا والبعض الآخر جنوب واد العبيد. وعموما فإن القطعان لاتفارق القمم. وخلال الأسابيع التي تمثل الزمن الوسيط بين ذوبان الثلج وازدهار المراعي العليا، يتركزون في الأحراش وغابات المنحدرات المتوسطة. ويقود البرد وثلوج الشتاء جميع الفخدات إلى أزغار فل وسهل بوتفردة الذي تتجمع فيه قطعان توجد بينها الإبل (42) ومثل أيت سعيد خصوصية جد معتبرة. وهم يقومون على سفحي جبل تاسميطت(2258 م) الذي يطل على بني ملال ويتألف من صخور جيرية جرداء تماما. ويجف سفحه الشمالي كليا في الصيف. وعندئذ يكون المنتجعون مضطرين للنزول من جديد بطول الأودية الرئيسية وقرب مخارجها في السهل. وقد جعلت هذه الوضعية الخاصة من أيت سعيد قبيلة متضررة ومعطوبة مما فسر إدماجها في أيت سري.

3 ـ **انتجاع الشتاء** : مثل صعوبة كبرى وقاد القبائل التي مارسته بعيدا عن منطقة سكناها الثانوية التي تظل مهجورة. وينتج عن ذلك مشاكل وعلاقات معقدة جدا بين الملاكين والمنتجعين. ويكون انتجاع الشتاء مصحوبا بالضرورة بانتجاع الصيف. وأما أيت مسعود ، فخدة بني مكيلد الجنوبيين الذين يقطعون الأطلس المتوسط. للمشتى في أزغار زايان. فإنهم لايصطافون في الجبل المذكور إلا نادرا لأنهم يفضلون الالتحاق بالمنحدرات الأولى للأطلس الكبير الأكثر قربا.ومن هذه النجعة الثنائية يستخلص أن العام يضيع في الذهاب والإياب .

4 ـ خـــلاصـة :

لاينبغي أن ننسى أبدا بأن هؤلاء الجبليين ليسوا مجرد رعاة بسطاء ، لأنهم يجمعون في درجات متفاوتة بين الزراعة والكسب. لكن أين توجد أراضيهم الزراعية ؟ يمكن أن يحرث المنتجعون في أراض المشتى ، لكن على أساس قيام وفاقات خاصة مع الملاكين

الحقيقيين . وفي الأودية العليا للجبل حيث يصطافون ، توجد عدة أراض قابلة لزراعات متأخرة ، غير أنه لايمكن الاعتماد دائما على هذه الأراضي الباردة والتي لاتتمكن محاصيلها غالبا من النضوج وتمثل أحيانا خسارة للبذور ومضيعة للوقت . وبين مناطق المشتى والاصطياف يوجد إقليم وسط يعد السكن الحقيقي للقبيلة ، يقيمون فيه قبل النجعة الشتوية لإنجاز الحرث، ويجب أن يرجعوا إليه للحصاد . ويكون العام إذن مقسما إلى أربع أو خمس فترات هي فترة الحرث والبذر في السكن الاعتيادي في أكتوبر ، وفترة النجعة الشتوية في نونبر إلى مارس ، وفترة الإقامة في السكنى وزراعات الربيع من مارس إلى ماي، وفترة النجعة الصيفية ويتخللها توقف في شتنبر ، وفترة الحصاد عند حوالي يونيو. وليست هذه إلا خطاطة نظرية يمكنها أن تحتمل كثيرا من التقلبات والفوارق الدقيقة. ولايكون لجميع التنقلات نفس الأهمية ، ولاتعيد نفسها بشكل رتيب . وهكذا تتجدد الخصائص التي تميز المنتجعين عن الرحل. ويشترك كثير من المنتجعين في ملكية أراض يحرثونها ويضمنونها بذورهم وآمالهم في جني المحصول . ويبني غالبيتهم دورا من التراب المدكوك تعرف بال"مشتى" وتصلح الأبنية الأكثر أهمية بينها كمخازن محصنة للحبوب والمؤونة. ولايحملون في تنقلاتهم الشتوية إلا الجزء القليل من محاصيلهم . وهذا سبب ظهور قصبات لاتحصى تسمى "التيغرمت" في الجنوب، وهي المركز الحقيقي لكل فخدة. ونعثر حولها على أنواع من مساكن متباينة من خيام ومشتى بالتراب المدكوك ونوايل. وتعد هذه التجمعات ذات أهمية معتبرة جدا وغالبا ما ترقى إلى مرتبة سوق مثل قصيبة وزاوية الشيخ، أو تقوم بدور ملتقيات خطوط المرور الداخلية مثل أغبالا وهي تقريبا مدن صغيرة.

5 - شكل الملكية عند الأمازيغيين :

1) - خصائص ملكية الرحل :

فرضت الملكية الجماعية نفسها بصفة دائمة تقريبا في هذه البلاد ، وذلك بسبب حاجات حياة الرحل المنتجعين . وهكذا ظلت الأرض للجميع لأنها أراض مرور ورعي للقطعان. ولجأت القبائل الأمازيغية إلى الملكية الجماعية في قلب الجبل أيضا مادامت طبيعة حياتهم هي التنقل . ولاتختلف الملكية الفردية في بلاد المخزن وعند الأمازيغيين ، لا في جوهرها ولا في القوانين التي نظمت استعمالها ، لكنها اختلفت في العقود التي كرستها . وانطوت الأولى على الحق المطلق للمالك في التصرف من تفويت ورهن وبيع ، وعلى الحرمة مما سمح لصاحبها بالدفاع عنها بجميع الوسائل. وفي الثانية كانت العقود عرفية شفهية ومشهودا عليها من قبل الجماعة التي ظلت ضامنة لتنفيذها. وكان إشهاد الجماعة هو الرسم الحقيقي للملكية .

2) - الملكية عند زايان :

نموذج أيت عمار وبوحسوسن : على الرغم من أن الملكية الجماعية للأرض كانت تميل في وقت متأخر نحو التقلص ، فإنها ظلت موجودة عند أغلبية أيت عمار من والماس وعند بوحسوسن ، وبالتحديد عند أيت رحو وأيت شعو وحمارة. فلماذا بقيت ملكية الأرض جماعية لدى بوحسوسن ؟ نلاحظ أنه فضلا عن حاجات الانتجاع السالفة الذكر ، هناك أسباب سياسية، تلخصت في أن بوحسوسن كانوا في عداوة مستمرة مع زايان ، ولم يكونوا آمنين على أنفسهم داخل هذا الملك ، وكانوا مضطرين في كل لحظة للفرار أمام أعدائهم الأشد قوة. أما البوعزاويون والموباركيون المحتفظون على طابعهم الديني فكانوا قد حولوا الأراضي الجماعية إلى أراض الملكية الخاصة. واعتمد قسم آخر من بوحسوسن الملكية الجماعية حتى بعد أن أحسوا بأنهم في أمن . وقد درس المترجم عميرة الشاذلي والقبطان كارديي GARDIER النظام العقاري لبوحسوسن وسجلا ما يأتي :

"كانت أراض كل من أيت رحو وأيت شعو وحمارة محددة بدقة ، وظل التقسيم بين الفخدات متفوقا على توزيع الأراضي بين رؤساء الخيام. لكن هذا التوزيع توقف منذ حوالي عشرين عاما. وحاليا لكل رئيس خيمة قطعة محددة بدقة. تؤول بعد موته إلى ابنه أو توزع بين أبنائه إذا تعددوا وصاروا زعماء خيام. وفي حالة عدم تركه ورثة مباشرين فإن أرضه تمنح بواسطة الجماعة إلى أحد حفدته أو أبناء عمومته على شرط أن يكون رئيس خيمة منذ أقل من عشرين عاما ولم تتح له فرصة اكتساب قطعة أرض. وهذا اتجاه مباشر نحو الملكية الخاصة، ولو أن أيت شعو واصلوا وحدهم تقسيم الأراضي التي منح لهم التمتع بها مؤقتا من طرف أيت رحو"(43).

نلاحظ من هذا النص أن بعض فخدات بوحسوسن اتجهت أكثر فأكثر نحو اعتماد الملكية الفردية ، لكن هذا النص يؤكد على استمرار وجود ملكية جماعية وعلى دور الجماعة في التقسيم. وأقام أيت بوخيو في شمال ناحية مولاي بوعزة، وكان صراعهم ضد زايان أقل من القبائل الثلاثة السابقة ، ولذلك حدث تنقلهم على امتداد ضئيل جدا لسببين أولهما تبنيهم مبدأ أرض الملكية الفردية وثانيهما ممارسة رؤساء الخيام لاحتلال حقيقي وطويل للأرض ، واقتسام القابلة منها للزراعة في الهضبة ، فصاروا سادة مطلقين لأنصبتهم عند حوالي عام 1900/1317. وكان تحول هذه الأراضي الجماعية إلى أراض الملكية الخاصة يتم أيضا في مجرى العام الذي حدثت فيه معاناة من المجاعة في مجموع المغرب وعرفت باسم "عام السميد" ، كما حدث عام 1902/1319. ولعجز رؤساء الخيام عن الحصول على بعض السميد لإنقاذ حياتهم ، فقد اتصلوا بجيرانهم الأكثر ثروة ليمنحوهم مبلغا زهيدا ويمدوهم ببعض الحبوب مقابل تنازلهم لهم عن حقوق ملكيتهم على أراضيهم وقد تمت هذه الأشكال من البيوع بصفة عامة أمام الجماعة التي تحمل أعضاؤها ضمان تنفيذ الاتفاقيات المعقودة شفهيا. وكان نقص العدول وندرة الطلبة من العوامل التي لم تساعد

على تأسيس رسوم الملكية ، لكن بعض الأعيان احتفظوا بأوراق مكتوبة بخطوط غير مقروءة ذكرت بإيجاز أسماء المتعاقدين والقطع التي هي محل البيوع والأثمان والتواريخ . ولم تحمل هذه "الكواغط" غالبا إلا تأشيرة عدل وبدون تصديق القاضي. وذكر بيروني بأنه "لاتوجد الملكية الجماعية عند المباركيين الذين أكدوا بأن الأراضي كانت عندهم دائما أراض ملك . ويوجد أكثر من موباركي ملك رسوم شراء يرجع تاريخها إلى مائة عام وأكثر. ولما كانت المعاملات والعقود العقارية قليلة جدا ، فقد حصل كثير من وجهائهم وبعض الجيران "البربر"، في عام المجاعة على فرصة لتوسيع أملاكهم الزراعية بقليل من التكاليف.

وتعتبر أراض البوعزاويين كلها "ملك". وكان الإشهار الرسمي يعوض عن الرسوم الثانوية مما كان يضمن لكل واحد ا لتمتع الوديع بملكه. وكانت الملكية مجزأة جدا في الأراضي القابلة للزراعة (44). ومنذ توقف التوزيع السنوي للأراضي الجماعية، لم تعد جماعات الفخدات تلعب أي دور في المسائل الزراعية. غير أن جماعات فخدات بوحسوسن واصلت العمل على منح أصحاب الحق الحصص الشاغرة بتقديم شهادتها التي حملت قوة الحكم المنفذ بشكل إجباري في جميع القبائل، وذلك في النزاعات على الحدود. وكانت الملكية الكبيرة غير معروفة، في الفترة القريبة، في ناحية مولاي بوعزة. وكان الطابع الجماعي لأراض بوحسوسن ، والتأسيس الحديث العهد للملكية الخاصة عند أيت بوخيو، وقلة خصوبة الأرض، وتزايد فقر السكان بسبب تعسفات موحىأوحمو، بمثابة عوائق في وجه تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة. وكانت الملكية المتوسطة في حالة جنينية لدى أيت بوخيو. وظل السكان الذين كانوا كلهم تقريبا ملاكين صغارا، شديدي الارتباط بقطعة الأرض التي عملوا على العيش منها عيشة التقتير،حتى لايضطروا للتنازل عنها في حالة الضيق الشديد. وفيما يخص الأشخاص الميسورين نسبيا والراغبين في توسيع ممتلكاتهم حتى يحققوا منها أكبر ربح، فقد واجهوا صعوبة جسيمة جدا في تحقيق أحلامهم بسبب محدودية ثروتهم من الحبوب وعدم كفاية اليد العاملة المحلية. ولهذا كان بعض المزارعين الذين قدرت أراضيهم بثلاثين إلى أربعين هكتارا لايصلون إلى استغلال النصف. وكان أكثر الملاكين ثراء يقرنون زوجين من الحرث.

3) ـ شكل الملكية عند باقي الأمازيغيين :

تواجدت الملكية الجماعية ومعها ملكية فردية عند أغلبية الأمازيغيين. وقامت الملكية الفردية منذ وقت طويل في الأراضي القابلة للحرث وعلى القطعان والمنقولات . وبالعكس ظلت أراض المرور والغابات وأحيانا القطيع ملكية جماعية.وهي غير قابلة للتنازل عنها ولا تخضع إلا لقانون القوة. ولا يرى السكان أنهم خرقوا مبدأ الملكية الجماعية عندما يقسمون الغابات وأراض المرور للاستغلال، وتسلم القطع إلى أسرة أو شخص يقوم بالعمل فيها بدون أن يكون مالكا لها.

وقد غير موحىأوحمو العرف الأمازيغي لمصلحته ، وذلك فيما يخص الإرث

وحاول أن يستحوذ على معظم التركة التي انفتحت له وسط القبائل الخاضعة لسلطته ، بينما ظلت القواعد السابقة مرعية عند إيشقيرن وأيت إيسحاق وأيت أم البخت.

ووجدت الملكية الجماعية عند عدد من القبائل الأمازيغية التي اعتمدت ثروتها بالخصوص على القطعان ، والتي واصلت عيشها في الحياة البدوية ، كما في حالة يامومن من أيت عطا الشماليين ، لكن إلى جانب ملكية فردية ظلت محدودة ومعتادة(45).

خلاصة عامة : رحل ومستقرون

1 - درجة النجعة :

- **رحل وأنصاف رحل** : من الخطأ أن نطابق المستقرين بالأمازيغيين من جهة ، والرحل بالعرب من جهة أخرى، لأنه وجد في الحقيقة لدى الأمازيغيين مثلما وجد لدى العرب رحل ومستقرون. وليس اختلاف العرق هو السبب في نمط عيش مختلف. وظل الشكل اليومي للحياة مشروطا تماما بشكل الملكية . إن الذي يملك قطعانا ليس له مايفكر فيه ويعتني به سوى البحث لها عن مراعي جيدة. وإذا عاش في أرض فقيرة في الماء والكلأ فسيكون مدفوعا للقيام بنجعة على نطاق واسع. وإن الذين لايستطيعون أن يحيوا حقيقة إلا يوما بيوم تحت خيمة أصبحت نقطة متحركة داخل مجال ، ويقضون وقتا طويلا جدا لإنجاز دورتهم بسبب ظواهر متعددة، ويفقدون أحيانا حتى عادة الرجوع بها إلى الناحية التي انطلقوا منها ، يستحقون عن جدارة أن نطلق عليهم إسم رحل. ونعثر بين ملوية وتافيلالت والصحراء على قبائل عاشت على هذا النمط من الحياة وقطعت في تنقلاتها مايربو على الألف كيلومتر في العام .

لكن أغلبية السكان ملكوا ، زيادة على قطعانهم ، أراض زراعية . وهم مزارعون بقدر ماهم رعاة. وتحددت درجة نجعتهم بمقدار حاجتهم للعيش على الأرض في وقت الحرث والبذور ووقت الحصاد ، ويصبح نمط عيشهم مزدوجا جزئيا ، وهم ينفذون مابين نجعتين وأربع نجعات في العام بصفة عامة. ومتى وجد بجانب الأرض الزراعية مصادر كافية للقطعان ، فإنهم يصبحون مستقرين . وهكذا يظهر العامل الثاني الذي يفرض نمط عيش معين وهو الأرض، وبالأخص طبيعتها من فقر أو غنى في الماء والكلأ وظروفها المناخية. وتعيش هذه هذه القبائل تحت الخيام، مضطرة جزء من العام ، وتحت أكواخ أو مخابيء ثابتة في الجزء الآخر منه . وهم نصف رحل ونصف مستقرين ، وكونوا غالبية سكان تادلا والأطلس المتوسط ، إن لم نقل غالبية السكان المغاربة.

كيف نفرق بين هذه الجماعات الثلاثة من مستقرين وأنصاف رحل ورحل بين القبائل العربية بتادلا والأمازيغية بالأطلس المتوسط ؟

- **رحل** : لايوجد رحل على الأقل بالمعنى الحرفي للفظ ، لأن جميع القبائل التي تنتجع هي أنصاف رحل ، غير أن مجال حركتهم متغير ومختلف. ويتنقل الزايانيون من ناحية أروكووجنان إيماس وأولريس في ناحية كاراتاندرا ، وفي كارا سيدي حسين والكعيدة وكردان ، مما يعني امتدادا تراوح بين خمسين إلى مائة كيلومتر . وكان إيشقيرن وأيت

إيسحاق الذين يجيئون من واد سرو إلى دشر سيدي عمار وسيدي حسين ، يقطعون مابين أربعين إلى سبعين كيلومتر ، وكان بني مكيلد يقطعون مئات الكيلومترات في العام. بينما لاتتنقل إتحاديات تادلا عبر أكثر من ثلاثين إلى أربعين كيلومتر ، من دشر القائد عمر إلى سيدي رفو مركز الكعدة. وشمل الانتجاع السنوي لورديغة حوالي خمسة وعشرين كيلومتر في العام. وأخيرا مال بني عمير وبني موسى إلى التقليل أكثر فأكثر من تنقلهم في سبيل تحقيق مزيد من الأمن ، وذلك من جراء توفر الأشغال الفلاحية في عين المكان.

- **مستقرون** : هم بعض زايان الذين مثلهم قسم من بوحسوسن وخاصة المباركيون والبوعزاويون سكان سيدي محمد امبارك ومولاي بوعزة، ثم غالبية أمازيغي الأطلس المتوسط ما عدا بني مكيلد، وبالخصوص الجماعات العديدة المقيمة على المرتفعات المتوسطة والجبال الأولى ، وهم سكان قرى الدير في تاكزيرت وفرياطة وفيشتالة، ونصف أيت عطا وأيت بوزيد على الأقل ، وجميع بني عياط وأيت عتاب، ولدى أيت الربع وخاصة بني ملال منهم الذين أصبحوا مستقرين ، ومعظم بني معدان وسكان أبي الجعد الذين لايغادرون مدينتهم .

2 - درجة الاستقرار :

- **الخيمة** : لايدل واقع السكن تحت الخيمة بالقوة على حياة الرحل ، لأن كثيرا من السكان المماثلين الذين لايتنقلون ، لديهم عادة هذه السكنى. وعاش جميع الرحل تحت الخيام، لكن سكان الخيام ليسوا جميعا رحل. وقد سكن عدد من الناس بالتناوب في الخيمة والكوخ. وكان لديهم إقامة صيفية وأخرى شتوية. وتصرفوا كملاكين وتنقلوا بحسب حاجات استغلالياتهم . وتكون الخيمة والنوالة والدار ، في كثير من القرى المغربية ، مجتمعة بنسب متغيرة. ولانستطيع أبدا معارضة سكان الخيام بسكان الأكواخ كمعارضة الرعاة بالمزارعين بصفة مطلقة ، لأنه يوجد بين أولئك وهؤلاء مراحل انتقالية ودرجات تفاوت. ولايدل تعويض الخيمة بالدار دائما على تحقيق تقدم كما لايشكل علامة على الازدهار . وهناك عدد من الرحل الذين هجروا خيامهم لأنهم فقدوا قطعانهم فصاروا تبعا لذلك في وضع من استحالة التنقل. ويعد الكوخ غالبا أقل راحة وأدنى صحة من الخيمة ، ويشهد على قلة الرفاه، وهو أكثر فقرا في أمتعته من أمتعة الخيمة التي تبدو أعلى مرتبة من الكوخ. ويكمن تفوقها الأساسي في احتوائها في العادة على زرابي بينما لايملك سكان الأخصاص غالبا سوى حصير بسيط أو تظل الأرض عارية. وبسبب ضرورة استعمال الفليجات في صنع الخيمة فإنها تعد نسبيا غالية. ولايكلف الكوخ شيئا ويكفي لصنعه الحصول على الحجارة والخشب (العود) والتبن . ويتخلى الأفراد الفقراء عن الخيمة ليتكيفوا مع الكوخ. ومع ذلك لايعد سكان الخيمة في معظمهم أغنياء ، كما أن الكوخ لايخفي بالضرورة بؤسا فظيعا جدا.

وتكون الخيمة محاطة بزريبة ومقسمة إلى جزأين أحدهما للرجال والآخر للنساء

ومفرشة بزرابي تدل جودتها على ثراء صاحبها ، وتأوي الأدوات الصالحة لحياة الرحل، وتتميز بالبساطة ، وهي قابلة للحمل.
وفي أيام الأعياد ينصب القواد والأعيان خيمة للاحتفال تكون دائرية وبيضاء تسمى النعارة أو إبريق الفخار ، ومزوقة بالأسود فوق القماش ، تعلوها كرة نحاسية ، وهي مدعمة بصارية مركزية عوض الحمار والركائز في خيمة السكنى.
ويعد كوخ تادلا مشهورا. وهو مرتفع قليلا ومصنوع تبعا للحالة من أغصان الأشجار ومن حجارة أو تراب مدكوك. ويسقف في العادة بالتبن أو القش أو بقايا الحصاد وأحيانا بالدوم أو الدفلى. وقد شبهه الكتاب الأجانب بغاطس سفينة أو زورق مقلوب ، وسماه السكان "نوالة ظهر الحمار"(46).
- **النوالة** :تصنع من الطين وأغصان الأشجار وقصب الحصاد(47). ونصادف منها أشكالا عديدة ، لكن أكثرها شهرة هو الشكل الأسطواني أو نوع طاطا السينيغالي ، وفيه يشكل جدار من الطين الجاف قاعدة البناء، وفوقه سقف مخروطي من قصب الحصاد.
- **الدور والدشور والقصبات** : تعتبر الدور أكثر أنواع السكن رفاها في مظهرها وضخامة في عمرانها . وللدار معمار بدائي، بنيت غالبا من التراب المدكوك ونادرا من الحجارة والملاط(البغلي) بدون جير. ومازال لونها داكنا ، ولم يظهر اللون الأبيض الجيري إلا مؤخرا. ومع أن بني ملال مركز حضري مهم جدا فإنها لم تتوفر إلا على هذه البيوت الأقل متانة، ذات الكوات النادرة في الغرف السفلية المصنوعة من التراب المدكوك أيضا. وكانت أبي الجعد المدينة الوحيدة التي ذكر بناؤها شيئا ما بفن المدن. ولاجدوى من وصف هذه المنازل وأثاثها لبساطتها . ونصادف في كل جهة ببلاد بني عمير وبني موسى دارا منعزلة أو ثانوية من التراب المدكوك. وهي داكنة اللون حيث يستعمل تراب صلصالي في التخضيب بلون المغرة ، وتحتل قلب دوار الخيام ، ويوجد فيها برج للحراسة وأحيانا مخزن للحبوب ، وعندما تكون كبيرة جدا تصلح حظيرة للدواب ، حيث تأوي إليها القطعان في حالة الخطر، وتلك الدار هي الدشر. ولما دعت الحاجة إلى بناء الدشور فإننا نصادف منها أعدادا كبيرة جدا لدى ورديغة وبني زمور والسماعلة وأيت الربع، وهي أسوار كبيرة عالية وسميكة من تراب يابس ، تجعل الدوار والقبيلة في مأمن مع محاصيلهم وقطعانهم . وقد حفر السكان عند قدم الدشور عدة مطامير ، وتعد هذه الدشور التي ميزت البلاد التادلاوية مخازن للحماية وليس لها مظهر الحصون. أما القصبات ، وهي حصون موجهة لشغل نفس المهمة التي تقوم بها الدشور ، فإنها زيادة على ذلك تستعمل لإيواء الحاميات وتصلح لسكنى سادتها. وشكلت قلعة للمقاومة من طرف سكانها، ومن ذلك قصبات خنيفرة التي ضمت قصبة موحى أوحمو وقصبات أبنائه وابن أخيه أو العايدي ، وقصبة موحى أوسعيد بغرم العلام ، وأخيرا قصبة تادلا المشهورة في مجموع المغرب بسبب اتساعها وتحصنها وطابعها الفني.

- **التيغرمت** : تعد التيغرمت قصبات صغيرة جبلية ، مبنية بكبرياء ومهارة على رؤوس تلال وجبال الأطلس المتوسط. ولها نفس وظيفة الدشور والقصبات عند الاقتضاء. وهي مخازن للحبوب محصنة ومدعمة بأربعة أبراج مربعة الزوايا، وبجدران ذات جوانب مائلة في الجزء الأسفل ، وتفضي إلى مساكن كبيرة على الأجراف الجبلية التي تحملها. وتعد كثيرة في بلاد أيت بوزيد وبني عياط وتعطي للإقليم مظهرا متميزا جدا. واخيرا فقد استفاد السكان من الكهوف والمغاور في الأطلس المتوسط لتحقيق نفس الأغراض(48).

3 - استخلاص :

وأخيرا نستخلص من كل ذلك أنه إذا كانت الشروط الطبيعية قد فرضت بالأساس قيام انتجاع صغير أقرب إلى الاستقرار ، وانتجاع كبير أقرب إلى الترحال ، فإن هذين الشكلين من الانتجاع قد خلقا الشروط التاريخية والاجتماعية التي حتمت ظهور شكلين للحياة السياسية، فنتج من الانتجاع الصغير أو الاستقرار النسبي خضوع للسلطة المركزية، ونتج عن الانتجاع الكبير أو الترحال تمسك بحياة سياسية مستقلة. وهكذا فإن ألفاظ "بلاد المخزن" أي البلاد الخاضعة ، وبلاد السيبة أي البلاد المستقلة ، هي صيغ تختزل تاريخا كثيفا ، وتحيل على مكونات جغرافية واقتصادية وبشرية تأسست لها جذور عميقة في التاريخ المغربي(49). وأصبحت حرية المنتجع أشبه بحرية التاجر الذي متى فقدها بتكرار القيود الجمركية أفلس وانتهى، ولا يختلف عنه المنتجع في ذلك كثيرا ، لأن فرض رقابة على المنتجعين أو إرغامهم على الاستقرار تحت أي شكل كان ، يؤدي حتما إلى تخريب للصناعة الرعوية ، وهكذا فإنه بفقدان المنتجع لحريته خسر كل ثروته ، وبفقدان الجبل لاستقلاله السياسي أصبح صفصفا بلقعا(50).

الهوامش :

1) - خريطة المغرب ، مقياس 1 : 500.000 س.

2) - M. MONTAIGUT , L'ELEVAGE DANS LA REGION D'OUED ZEM...
IN, R.G.M. 1927, p : 52 - 93 et Surtout p : 59 .
وكان مونطايكي بيطريا ومفتش مصلحة الكسب بواد زم S.E.O.

3) - MONTAIGUT, 53....................

4) - هناك إحصاء تم في رمضان 1344 / مارس 1926 ، أنظر : R.G.M, 1926 , p : 22 , 87

5) - لكننا لانستطيع تحديد النسبة في الأطلس المتوسط لغياب كل إحصاء.

6) - MONTAIGUI, 62......................

7) ـ حول جدول غنم السماعلة وبني خيران وأولاد بحر الخ ، أنظر : , M.PAPION DE CHATEAU, in R.G.M.,1926,p:77.

Dr. MIEGEVILLE, in R.G.M.T.vi , fasc. 4 , 1er et 2e trim, 1927, p : 15. -(8

9) ـ اعتقد ميجفيل بأن تسمية خطأ ، وأنها لاتتطابق مع الواقع الجغرافي ، وهي أقرب إلى غنم شمال تادلا أي إقليم الهضبة الوسطى..Ibid , 18 , 19

10) ـ بدون حساب الماعز (1.500)، والبقر (27.000)، ويرجع تاريخ التقدير إلى 1335 / 1917 ، أنظر : ,R.G.M.1927 p:17

11) ـ وجدت هذه الأملاك الحبسية في عدة مدن دينية وهي أبي الجعد ومولاي بوعزة وسيدي محمد امبارك ، وفي غيرها مثل خنيفرة.

PEYRONNET (Cataine Robert) TADLA , PAYS ZAIAN, Moyen - Atlas publiés par la sociètè de Géographie d'ALGER ET DE L'Afrique du Nord, ALGER, octobre1922 ,p : 284 - 285. -(12

Ibid , p : 284 - 285. -(13

Ibid, p : 310-313-314. -(14

B.S.G.M., T. VI, FASC. 4,1' et 2' trim;, 1927, p : 3. -(15

PEYRONNET, p : 284-285-305-306. -(16

Ibid, p : 288 - 291. -(17

18) ـ وثائق شرقاوة رقم 8 - 10 - 13 - 29 وغيرها .

19) ـ نفسه .

20) ـ وثيقة : 67 ، بتاريخ 1297 / 1880.

22) ـ خريطة طبوغرافية لبني ملال : 1 : 50.000 ، بتاريخ 1922.

PEYRONNET, p : 313 - 314. -(23

B.S.G.M., T.VI, FASC.4, 1' et 2' TRIM. 1927, p : 3 - 4.

Ibid, T. IV, FASC. 1, 1' TRIM., 1924, p : 39 - 47. -(24

Ibid, T. VI, FASC. 4, 1er et 2' TRIM, 1927 , p : 3 . - (26

27) ـ حول تعريف النجعة الكبيرة أنظر :

J. CELERIER, LA TRANSHUMANCE DANS LE MOYEN ATLAS,in Hesperis (Archives berbères et Bulletin de L'Institut des Hautes Etudes Marocaines). Année 1927, T. VII, p : 53 - 65.

وكان سيليريي مدير الدراسات الجغرافية بالمعهد العالي للدراسات المغربية . وكلف مع بول بلاطون بدراسة الانتجاع في الأطلس.

JEVTO DEDIJER, La Transhumance dans les Pays Dinariques Annales de Géog. 1916, T. XXV, p : 347. -(28

A. FRIBOURG, La Transhumance en Espagne , Annales de Géog, 1910, T.XIX,N°1,p:231.

29) - op , cit ، وكذلك :

- SUZANNE NOUVEL, Nomades et Sedentaires au Maroc. Paris 1917.

- HARRIS , The Nomadic Berbères of Central Morocco (Géographical Journal, 1897, T. 1, p : 638 - 645.

30)- CELERIER, p : 53.

32)- P.PLATON, Le Mouton Chez les Beni-Mtir de la Région.

33)- d'El Hajeb, in Bulletin de L'Enseignement Public 37e Année , N° 210 , 1' TRIM, 1950, p : 5 et suite.

34)- وكان بول بلاطون مديرا للمدرسة الإسلامية بالحاجب. CELERIER, p : 58

35)- دحداح : كبير البطن.

36)- PLATON, p: 7.

37)- خريطة المغرب ، مقياس : 500.000:1 س.

38)- PLATON , N° 212, p : 8.

39)- CELERIER, 63 - 67 ، وكان سيليريي مديرا للدراسات الجغرافية بالمعهد العالي للدراسات المغربية .

40)- CELERIER, in R.G.M.., T. VI, FASC, 6,3 et 4° trim 1925 , p : 59.

41)- Op , cit .

42)- TARRIT (C and P.) Commandant le Cercle de Beni - Mellal, in , Bulletin de la Soc - de - Géo , du Maroc , T. II, fasc 7 et 8 - 3e et 4 e trim - 1921, Casablanca , p : 542.

43)- Ibid , p : 540.

44)- CELERIER, p : 61 , 62.

45)- PEYRONNET, p : 268 , 269.

46)- Ibid , p : 270 , 271.

47)- Ibid , p : 266 - 271.

48)- Ibid , p : 260 , 261.

بحث حول النوالة : Bulletin de L'Enseignement Public, 37 Années, N° 210, 1er trim.1850, p : 46 - 54 LA NOUALA.

أنجزه تلاميذ المتوسط الثاني بمدرسة سطات الإسلامية بإشراف السيد راينال M. RAYNAL ، أنظر كذلك: PEYRONNET, p : 262. فضلا عن ر. ش. في الموضوع والمعاينة الحالية .

49)- راجع الفصل الرابع من بحثنا المرقون : الغزو الاستعماري الفرنسي ومقاومته بتادلا والأطلس المتوسط (13 - 1930) ، كلية الأداب ، الرباط ، 1992.

50)- نفسه ، الكتابان : الثاني والثالث.

نفرق بين التغيير والتخريب . وإذا لم يقم الغزاة الفرنسيون بتغيير ظروف الانتجاع لعجزهم أو لعدم رغبتهم فقد ساهموا في تخريبه بواسطة الحصار الذي أدى إلى فرض استقرار بدعوى الحاجة إلى الأمن ، فتسببوا في القضاء على القطعان وانتشار الفقر وحدوث هجرة واسعة من الجبل إلى السهل ، ومن هذا الأخير إلى المدن في الشمال والغرب .

L 'impact social du commerce transsaharien sur le Maroc médiéval: le cas des Juifs

Abdelaziz El ALAOUI

Le Sahara a toujours été une terre de liaison et d'échange entre les pays de ses bordures septentrionale et méridionale. Le commerce caravanier est, à coup sur, L'aspect le plus représentatif et le plus connu de cette fonction. LeMoyen-Age est la période durant la quelle ce commerce a atteint son apogée. Il consistait à troquer, entre autres, les textiles, le cuivre, l'argent et les denrées alimentaires du nord;contre l'or,les esclaves, l'ivoire et les peaux du sud.(1)

Grâce a sa situation géographique, son potentiel économique et ses atouts politiques, le Maroc médiéval était une plaque tournante de ces échanges et en tirait par conséquent, grand profit. Le commerce transsaharien était, en effet, un élément moteur de l'économie du pays(2), et un facteur déterminant dans la constitution de son hiérarchie sociale. La place des Juifs dans cette dernière était liée, en grande partie a leur rôle dans ce commerce.

Si les origines de ces derniers et leur provenance sont très confuses(3), il est sur qu'ils constituaient un élément important de la population du pays au Moyen-Age. Cependant, les sources musulmanes n'en parlent que rarement, ce silence n'est pas le signe de l'absence juive, mais il traduit l'indifférence et le mépris que les musulmans avaient à l'égard des Juifs, à cause de la place privilégiée qu'ils tenaient dans l'économie du Maghrib(4) et parfois de leur influence politique.

Les renseignements qu'on peut tirer des sources arabes et des archives des villes maritimes européennes, nous permettent de mettre en lumière le rôle des Israélites dans le grand commerce eurafricain.. En effet, leur mentalité, leur établissement dans les villes caravaniers

----

* faculté des lettres Sais-Fès

(principalement celles de la faiade présaharienne) et leur statut; ont fait d'eux des agents très actifs dans le trafic commercial avec le Soudan(6) et l'Europe et par conséquent une population riche et influente. Ces privilèges étaient souvent à l'origine de leurs persécutions.

La participation juive au commerce transsaharien se présentait de deux façons: directement par les commerçants qui s'adonnaient au trafic avec le Soudan et l'Europe et indirectement par les artisans qui travaillaient des produits à destination ou en provenance du Sahara et du Soudan.

Les Juifs installés dans les villes caravaniers étaient surtout des commerçants, mais nombre d'entre eux s'y adonnaient à l'industrie artisanale en rapport avec le grand commerce saharien; il s'agit des textiles, de l'exploitation et du travail de l'argent et du cuivre. Léon l'Africain parle des tisserands juifs spécialisés dans la confection d'un manteau en laine appelé "bornous"(7) à Tadla ou les marchands venaient l'acheter pour leur négoce au Soudan. Le même auteur signale la présence de nombreux artisans israélites, dont plusieurs tisserands, dans les grands centres caravaniers tels que Sus, connu pour ses vêtements fins(8) et les châteaux de Sijilmasa, réputée depuis le X siècle pour ses Atoffes luxueuses de laine(9). D'autres tisserands devaient exister dans les autres centres textiles du pays surtout à Fès ou la communauté juive était très importante.

L'exploitation et le travail du cuivre et d'argent étaient une autre activité intéressant les Juifs. Ils formaient un élément principal de la population des régions cuivriques et argentifères telles que Sus, Tadla, Sijilmasa, etc.... et disposaient des capitaux nécessaires aux travaux d'extraction. Cela nous permet de penser qu'une bonne partie de la métallurgie était contrôlé par des Juifs. D'ailleurs nombre d'entre eux étaient spécialisés dans le travail du cuivre dans différentes villes du pays.

Mais ils ne se limitaient pas à la fabrication d'objets destinés au Sahara et au Soudan, ils s'intéressaient aussi à la transformation des matières premières que les caravaniers importaient de ces derniers comme les cuirs et surtout l'or. En effet, le travail des métaux précieux, or et argent, est une vieille occupation juive importée d'Orient au Maghrib. Il est intéressant de remarquer qu'ils y monopolisaient les



métiers qui exigent la manipulation des métaux précieux et spécialement l'or. Dans toutes les grandes cités du pays les orfèvres et les bijoutiers étaient juifs la fabrication du fil d'or était également entre leurs mains(10). Ils achetaient l'or sous forme de monnaies ou de lingots et le transformaient en bijoux ou en fil nécessaire à l'ornementation des vêtements et des parures précieux. C'étaient des métiers très lucratifs, ils leur apportaient des bénéfices considérables.

Outre les tisserands, tanneurs etorfévres,une main-d'oeuvre juive a toujours était employée dans la fabrication des monnaies sous la direction d'un consul musulman (amin). Profitant de leur fonction dans les hôtels de la monnaie, les Juifs ont jeté le trouble dans la circulation monétaire à plusieurs reprises. Ces faits sont devenus plus courants sous les Merinides et surtout à partir du milieu du XIV° siècle, époque marquée par le début des difficultés économiques et politiques au Maghrib. Un manuscrit concernant l'atelier monétaire de Fès à cette date affirme que la fabrication des bijoux, et le commerce des métaux précieux y étaient accaparés par les Juifs; plus encore, ils falsifiaient la monnaie dans certains ateliers comme ceux de Sijilmasa et Fès, situation qui eut pour conséquence la diminution des bénéfices du trésor public(11).

Face à ces problèmes le pouvoir central a limité puis interdit leurs activités en rapport avec les métaux précieux, par l'edit de 736 / 133 qui est resté lettre morte. Un nouvel edit de 756 / 1355 sous le règne d'Abu Inan a interdit "la circulation des fausses monnaies, alors que les Juifs monopolisaient le change et la frappe des monnaies. Ils se sont engagés à ne vendre ni orfevrerie ni bijoux sans les avoir soumis au contrôle du directeur de la monnaie (...); il fut également stipulé que pour être admis à faire le change, il faudrait être reconnu digne de confiance, éviter le dol, I'usure et tous les délits semblables ...(12). Mais toutes ces décisions sont restées sans application à cause de la puissance économique et politique des Juifs et en même temps de la faiblesse du pouvoir central, et par conséquent, la crise monétaire a continué de s'aggraver dans le pays.

En plus de ces activités juives intéressant des produits liés au commerce transsaharien, il y avait des commerçants israélites qui faisaient le voyage au Soudan.

L'importance considérable de leurs groupements dans les villes caravaniers et spécialement celles des régions méridionales du pays et leur vocation dans le domaine du négoce donnent à penser que leur râle a été prépondérant dans le trafic saharien.

Les indications de notre documentation concluent dans ce sens: Déjà au milieu du XI° siècle, Al-Bakri signale que "les juifs sont plus nombreux à Fès que dans aucune autre ville du Maghreb" et se plaint de leur puissance commerciale. Le même auteur parle des voyages qu'ils faisaient "dans toutes les contrées du monde ''(13) ; or ces régions s'étendaient jusqu'au Soudan, ou le métal jaune devait exercer une forte attraction sur les occupations commerciales des Juifs. De même à Aghmat, il y avait une colonie juive importante dont la richesse devait être en liaison avec le trafic saharien (14). Les Juifs de la façade présaharienne semblent avoir été directement intéresses par ce trafic. L'auteur de l'Istibsar parle avec mépris des Juifs de Sijilmasa à cause de la place qu'ils tenaient dans le commerce avec le Soudan; il affirme qu'ils aimaient "séjourner dans ce pays pour s'enrichir, car ils savaient que l'or s'y trouvait plus facilement que dans les autres pays du Maghreb, puisque cette ville, ajoute l'auteur, sert de porte à la mine d'or d'ou en le tire"(15). Yaqut fait allusion à cette même vocation commerciale chez les Juifs de Daraa', étape essentielle pour se rendre au Soudan.

A partir de toutes ces villes, ils s'enfonçaient loin au Sahara jusqu'aux marchés du haut Sénégal-Niger, avec des caavanes transportant divers produits agricoles et manufacturés qu'ils échangeaient contre des cuirs, de l'ivoire, des esclaves et surtout de l'or. Ce métal fabuleux dont le commerce et la transformation ont toujours été l'affaire des Juifs.

En effet, la présence juive au Sahara et au Soudan est confirmée par certains auteurs médiévaux tels que Al-Idrisi et l'auteur de "Tarikh al-Fettach"(17); mais faut-il voir dans cette présence un indice de l'existence de communautés israélites autochtones dans ces régions, ou simplement un signe de l'activité commerciale juive ? Les sources dont

nous disposons ne nous permettent pas de trancher le problème[18]; le plus important pour nous c'est que ces renseignements témoignent d'une manière évidente du rôle tenu par les commerçants juifs dans le commerce caravanier transsaharien.

Installés à la fois dans les villes caravaniers du nord et les villes-marchés du Sahel soudanais, ils ont réussi ainsi à contrôler une part importante du négoce dans "le pays de l'or" et concurrencer les marchands musulmans. Il est logique de penser que les Juifs, vu leur vocation commerciale, faisaient usage de techniques commerciales avancées, on sait d'ailleurs qu'ils pratiquaient l'usure et prêtaient surnages. Mais adoptaient-ils dans leur négoce au Soudan, et même au Maghrib, des procèdes commerciaux aussi perfectionnés que ceux utilisés par leurs coreligionnaires orientaux, tels que les billets à ordre (sakk), la lettre de change (hawala), et la lettre de crédit (suftaga)?[19]. Même si nos sources n'en parlent pas, il est possible de répondre par l'affirmative surtout lorsqu'on sait les rapports étroits qui s'étaient établis entre les deux communautés depuis très longtemps, ainsi qu'avec les Juifs européens. Mais il semble que ces techniques commerciales introduites par les Israélites aient été peu répandues en raison de la nature même du commerce transsaharien basé essentiellement sur le troc. Ainsi, lnorganisation des communautés juives maghrébines, leur richesse et leur puissance commerciale, leur ont permis d'attirer de nombreux Juifs orientaux et spécialement ceux d'Europe. Ils profitaient de ce que les musulmans ne pouvaient régulièrement commercer à l'intérieur du monde chrétien, ni les chrétiens à l'intérieur des pays de l'Islam, pour servir d'intermédiaires "neutres". Les documents des villes maritimes de la Méditerranée septentrionale evelent les rapports étroits et suivis entre les Juifs maghribins et leurs coreligionnaires européens. Les premiers, installés dans les ports du pays tels que Ceuta, Salé, Badis et Anfa, y formaient des colonies commerçantes actives. Ils entretenaient avec leurs ferres de l'intérieur du pays et ceux de la Méditerranée chrétienne des relations commerciales régulières, et notamment avec les Juifs de la France méridionale et la péninsule ibérique[20] en rapport à leur tour avec les autres colonies juives.

Toutes ces indications traduisent l'importance et l'ampleur du réseau commercial juif au Moyen-Age et le rôle prédominant que les

Israélites maghribins étaient en mesure de jouer dans les relations commerciales eurafricaines et plus particulièrement dans le ravitaillement des pays européens en produits sahariens et soudanais et surtout en or(21).

En effet, les juifs maghrébins semblent avoir assuré aux pays européens de la Méditerranée une grande partie de leurs besoins en métal jaune. Un document de 1247, époque de la décadence almohade, atteste que Jacques le Conquérant, roi de Majorque, accorda sa protection à deux familles juives de Sijilmasa (16 personnes au moins), il les autorisa, ainsi que tous les juifs de la ville qui le désire, à venir s'installer dans ses Etats à Majorque, à Valence ou à Barcelone. Ceci fut à l'occasion du retour en Espagne d'un Juif déjà sujet du roi aragonais, et qui a reiu un sauf-conduit valable pour sa femme, ses enfants, son ferre, la famille de ce dernier et un autre juif, tous originaires de Sijilmasa(22). L'intérêt de ce document réside dans le fait qu'il projette la lumière sur plusieurs points: il affirme le désir de Jacques le Conquérant d'accroître les envois de l'or du Soudan qui parvenait sur les cotes de la Méditerranée et de l'atlantique en passant avant tout par Sijilmasa . il démontre l'importance numérique de la communauté juive des rivages septentrionaux du Sahara, terminus du trafic de l'or. Il atteste les rapports commerciaux que cette communauté avait avec l'Europe méditerranéenne. Enfin, il met en évidence les privilèges accordés aux Juifs maghribins dans les pays chrétiens, preuve de leur puissance commerciale et de l'intérêt de leur rôle d'agents de liaison entre l'Europe et l'Afrique du Nord .

Mais les juifs maghribins étaient pas les seuls à assumer ce rôle d'intermédiaires commerciaux. Il parait que nombre de leurs coreligionnaires européens ont eu la possibilité de venir chercher le métal jaune soudanais au Maghreb et peut-être même s'installer dans les villes caravaniers comme associés ou mandataires des commerçants chrétiens. ainsi par exemple, un document de 1327,qui peut servir à éclaircir l'époque antérieure, indique que des Juifs majorquins venaient jusqu'à Tlemcen ou ils remettaient des marchandises à des musulmans qui les transportaient au Sahara et au Soudan. Au retour, ils en donnaient la valeur aux juifs vendeurs, soit en numéraire soit en marchandises(23). Au XIII siècle, il y avait à Ceuta des capitalistes-

commerçants marseillais ayant des commis juifs; il contrôlaient une vaste aire commerciale et jouaient à la fois le rôle de banquiers ,d'importateurs et d'exportateurs et pratiquaient le commerce des métaux précieux(24).

Ainsi, on constate l'apport des Juifs dans le domaine des échanges commerciaux entre le Maghrib et l'Europe méditerranéenne, et surtout dans l'approvisionnement de cette dernière en or; leur fonction lui a été en réalité plus profitable. En plus des quantités de ce métal précieux parvenus du Maghreb en occident chrétien garce aux Juifs, ces derniers ont également contribué fortement au développement des connaissances européennes sur la provenance du métal jaune. En effet, la cartographie en Europe méditerranéenne était dès le début du XIII° siècle entre les mains des Juifs qualifiés. Ils ont réussi à tracer avec une grande précision des cartes de líAfrique du nord, ce qui fait penser au renseignement que leurs coreligionnaires africains auraient pu leur transmettre. Les connaissances cartographiques juives ont atteint leur apogée en Italie et à Majorque au milieu du XIV° siècle; elles révèlent d'étonnantes informations, non pas seulement sur l'Afrique septentrionale, mais aussi sur le Sahara et le Soudan. Abraham Cresques, un Juif attaché à la maison de l'Infant d'Aragon réalisa en 1375 "l'Atlas catalan de Charles V". Pour avoir des renseignements sur le commerce transsaharien, il est loisible de penser avec De La Roncière(25) que l'auteur avait consulté, entre autres, ses coreligionnaires des oasis sahariennes. La cartographie juive de Majorque est loin d'être de nature politique, elle est sous forme d'itinéraires de caravanes, familiers aux marchands juifs qui parcouraient, pour les besoins de leur négoce, les itinéraires transsahariens. En ce qui concerne les relations commerciales du Maghrib avec le Soudan, "L'Atlas catalan" représente la chame montagneuse de l'Atlas jalonnée de deux cols: à l'ouest " leval de Draa par lequel passent les marchands qui entrent en la terre des Nègres de Guinée". Le même col est appelé dans trois autres cartes " le val de Sous". l'Atlas de Cresques nous fournit également des renseignements très précis sur le Sahara, où il y a des gens qui "font des caravanes avec des chameaux, il y a aussi des bêtes appelées lamp (lamt) dont le cuir sert à faire de bonnes targes". Les informations sur le Soudan n'y manquent pas, là il y a "le roi(26) le plus riche et le plus

notable de toute la contrée, tant abonde l'or qu'on recueille dans son pays".

La ligne des étapes qui menaient du sud maghribin aux villes soudanaises est ou nettement indiquée par Cresques: de Sijilmasa (Sigilmessa) on accède 1 Tabelbelt (Tabelbert),le Touat (Vadia), et la saline de Tagazza (Tagaza), à une ville située au nord d'un lac au paillettes d'or à Tombouctou (Tembuth). Les villes de Mali (Melli) Gao (Geugeu) y sont représentées et d'autres renseignements précis sur le commerce saharien(27).

Toutes ces indications témoignent, une fois de plus, des rapports renforcés et organisés que les juifs des deux rives de la Méditerranée entretenaient dans le domaine commercial, ainsi que de la place privilégiée qu'ils tenaient dans le commerce eurafricain. Le nombre et la précision des renseignement des carte catalanes sont une preuve de la puissance économique des Juifs maghribins et de leur rôle fort actif dans le trafic saharien. Ce dernier constituait la base de leur fortune et l'élément essentiel qui a déterminé leurs conditions dans le pays.
On a vu que les activités économiques des Juifs au Maghrib étaient étroitement liées au commerce transsaharien; soit par la confectionnes produits en rapport avec ce commerce, soit par les voyages d'affaires qu'ils faisaient aux marchés soudanais ou encore par leur rôle d'intermédiaires commerciaux entre le Maghreb et les pays de la Méditerranée septentrionale. Ces multiples fonctions ont fait d'eux une communauté riche et influente.

A la manière des grands négociants musulmans(28), les marchands juifs ne s'intéressaient pas à investir leurs capitaux dans des activités économiques productives. Ils se sont limités à acheter des propriétés foncières tels que "funduq" boutiques maisons, etc....; mais le trait le plus caractéristique de leur fortune était la thésaurisation. En effet, la plus grande partie de leurs richesses se composait de bijoux précieux et surtout de trésors d'or et d'argent monnayés ou en lingots.

En dépit de leur religion, ils étaient généralement tolères. Ils agissaient dans le pays librement en propriétaires, pouvaient exercer tous les métiers et circuler et s'installer la ou ils voulaient. Outre les contacts d'affaires qu'ils avaient avec les marchands musulmans, des rapports personnels les liaient avec leur entourage. Mais cette situation

était parfois bouleversée, leur puissance économique dans le pays a toujours été à l'origine de la discrimination à leur égard et même de leur persécution.

Bien que le Moyen-Age soit marqué par le bien être matériel des Juifs maghrébins, leurs conditions économiques et sociales y ont connu plusieurs changements. Avant même le XI° siècle, ils avaient le monopole de certaines activités économiques et spécialement le commerce des métaux précieux. Mais lorsque les Facilites ont soumis Sijilmasa, ils ont confisqué les biens des habitants de la ville, y compris les Juifs qui étaient une communauté forte et fortunée. Pour briser leur puissance, les nouveaux maîtres de la cité leur ont interdit de s'adonner à l'activité économique la plus lucrative de la région, c'est-à dire le commerce transsaharien(29).

Quant aux Juifs des autres villes du pays, leur situation est restée prospère. Avec la dynastie almoravide,à partir du milieu du XI° siècle, leurs conditions n'ont pas connu de grands changements. Malgré certaines interdictions qui leur étaient imposées dans certaines vilies(30), ils ont conserveur puissance économique. Sous certains Emirs almoravides, leur situation était encore plus brillante; outre les artisans et les commerçants il y avait des Juifs médecins, percepteurs, monnayeras, administrateurs, etc..(31) L'époque almoravide était pour les Juifs une période de floraison et de liberté.

A la différence des Almoravides, les Almohades étaient moins tolérants à leur égard. Certains souverains de la nouvelle dynastie ont cherché à les convertir à l'Islam, et le mouvement intellectuel et religieux juif a beaucoup souffert pendant cette époque(32). En revanche, leur situation économique n'a pas cessé de s'améliorer; même dans les villes ou les Juifs étaient soumis à des interdictions aux temps des Almoravides, on les voyait agir en toute liberté sous les Almohades et se livrer au commerce d'une manière active. Les Juifs d'Ahgmat, selon Al-Idrisi, étaient riches; ils pouvaient, comme tous les autres habitants de la ville, organiser des caravanes et trafiquer au Soudan(33). Aprés leur éclipse sous les Fatimides et les Almoravides, les Juifs de Sijilmasa sont devenus les maîtres du commerce saharien; l'auteur de "l'Istibsar" qui a écrit en 1190, sous le règne de Ya qub Yusuf al-Mansur, évoque leur situation antérieure et ajoute que "maintenant ce sont eux qui sont

les commerçants de tout ce pays, qui détiennent la fortune, notamment dans la ville de Fès; et moi-même j'en ai vu beaucoup d'entre eux de qui l'on disait qu'ils avait une grosse fortune et une haute situation ..."(34). En somme, on peut dire que les Juifs tenaient sous les Almohades une part importante de la vie économique du pays, ils étaient des agents actifs du trafic saharien et occupaient des fonctions en relation avec ce trafic tels que la trésorerie, la perception, l'orfevrerie et le change.

Sous la dynastie merinide, les Juifs ont connu la période la plus brillante de leur puissance économique et politique. Pour profiter de leur fortune et de leur compétence dans les services publics, les sultans leur ont accordé la liberté de s'adonner à toute activité économique dans le pays et se sont chargés de les protéger contre le mécontentement du peuple. Plus encore, des relations intimes se sont nouées entre certains sultans et les Juifs notables de Fès, à tel point que ces derniers ont réussi à accéder ê de hauts postes de l'état (intendants, vizirs, chambellans, commandants de police ...). Cette prépondérance politique leur a permis d'accroître leurs privilèges et leur puissance dans le domaine économique jusqu'au jour ou la concurrence juive est devenue insupportable pour les musulmans. Ces derniers profitaient de ce que les Juifs s'adonnaient à la fraude, à l'usure et à la fabrication de fausses monnaies, pour se soulever contre leur influence politique et domination économique, et même contre leurs protecteurs, les sultans.

Dans la facade présaharienne, la suprématie commerciale des Juifs,était identique à celle de leurs frères de la capitale. A Sus, Sijilmasa, Daraa, Touat, ...etc...., ils constituaient une communauté d'artisans et de négociants riche et dominante. Mais parés le milieu du XIV° siècle, le commerce maghribin au Soudan a beaucoup souffert à cause de la concurrence portugaise et des autres pays du nord de l'Afrique(35). Les régions méridionales du pays en étaient les plus grandes perdantes; en plus de leur agression commerciale, elles étaient frappées d'une série de famines (1344, 1348, 1392, 1435)(36).

Profitant de ces crises, les Juifs y pratiquaient des opérations commerciales usuraires sur les produits agricoles essentiels pour les habitants(dattes, céréales)(37), en même temps, ils bénéficiaient du monopole du commerce local, pourtant en déclin. Cette ascension économique des Juifs dans la faiade présaharienne à une période ou ces

régions vivaient dans des conditions précaires, a favorisé l'antisémitisme parmi la population locale. Situation qui s'est aggravée à la fin du XV°siécle, lorsque Al-Mghili, un qadi de Touat, souleva la haine populaire contre les Juifs et prêcha "qu'il fallait accuser des misères des temps présents les gens de l'erreur et particulièrement les Juifs auxquels la trahison rapportait de si gros bénéfices". Après avoir persécuté les juifs de Sijilmasa, Al-Mghili alla au Touat ou les grands commerçants juifs furent massacrés, malgré l'opposition des légistes de Fès et de Tunis et de certains chefs des tribus arabes de la région(38). Signalons que ces persécutions sont contemporaines à celles qui se sont opérées en occident chrétien contre les Juifs.

Mais il semble que ceux du Maghrib aient été, en général, mieux traités que leurs coreligionnaires européens. Ces derniers ont choisi de se réfugier au Maghrib lors des mauvais traitements qui leur étaient infligés au XV° siècle.

Somme toute, les Juifs, grâce à leur vocation commerciale, leur organisation, et la tolérance dont ils ont bénéficié, étaient des agents fort actifs du trafic saharien. Celui-ci leur a données moyens pour s'enrichir et par la suite acquérir un pouvoir politique influent. Mais cette puissance économique et politique est devenue trop forte et mendiante pour l'ordre social du pays; surtout à un moment ou ce dernier affrontait des problèmes graves. Cette nouvelle situation a provoqué parmi la population des régions ou l'influence des Juifs était trop grande, une vague de haine contre eux.

Ce durcissement envers les juifs maghribins n'a pas mis un terme à leur suprématie économique. Au XVI° siècle, ils jouissaient encore du monopole de plusieurs métiers et du commerce dans les mêmes régions ou ils avaient été persécutés, comme il ressort de la "Description de l'Afrique" de Léon l'Africain et de "L'Afrique" de Marmol.

Bibliographie

1) voir détails: El-Alaoui (A),le Magrhib et le commerce transsaharien (milieu du XI° S-milieu du XIV°S),contribution à l'histoire économique,sociale et politique du Maroc médiéval,thése dactylographie doctorat 3° cycle,université de Bordeaux III,1983,pp67-107.
2) voir détails : Ibiddem,pp.128-202.
3) On pense généralement que la pensée juive en Afrique du Nord remonte au IV°S.A.J.,lorsque les juives ont été chassés en Cyréniaque.là,leur nombre augmenta et leur situation prospéra rapidement.Mais ils ont été obligés d'immigrer de nouveau lors de leur révolte contre le pouvoir romain au II°S.Nombre d'entre eux prirent la route de l »ouest,pour se répandre à travers le reste de l'Afrique du Nord.Le trait essentiel de ce noyau juif est qu'il a été renforcé à travers les siècles par de nouvelles vagues d'immigrés juifs originaires d »Europe et de Moyen-Orient.Il s'est intégré également dans la population locale,à tel point qu'on ne peut plus distinguer les berbères judiasés des juifs bérbérisés.A la différence des chrétiens,les juifs ont servecu à la conquête musulmane et ont réussi à s'accommoder avec le nouveau pouvoir.
4) Nous entendons par « Maghrib » les territoires occidentaux du Maghreb connus dans les sources arabes médiévales sous le nom d' Al-Maghreb Al-Aqsa,contrée qui correspond grosso-modo au Maroc actuel.
5) Les condition des juifs au Maghreb était que l'Islam reconnait aux communautés non musulmanes il leur accorde sa tolérance et sa protection régie par un pact appelé « Dhimma »,et en même temps leur impose certaines obligations de caractère social et symbolique.La seul charge économique réelle qui leur était imposée est d'ordre fiscal.Ils doivent des impôts plus élevés Djiza . Voir:Cahen « Dhimma »,Encyclopédie de l'Islam,T.II,nouv éd.Paris-Lyde,pp 234-238.
6) Le mot Soudan provient de l'expression « Bilad Al-Soudan » utilisée par les musulmans au Moyen Age pou désigner l'ensemble des régions habitées par les Noirs en Afrique et surtout celles se trouvant dans la partie occidentale du continent.Nous l'utilisons .Quant à nous pour indiquer cette derniére,connue également sous le nom de « Soudan occidental ».ce dernier comprend en général les pays situés dans les bassins du Sénégal,de la Gambie,de la Haute-Volta et du moyen Niger.Voir:Delafosse M ,article :Soudan,Ecyclopédie de l'Islam,TIV,Paris,1934,pp518-521.
7) Léon l'Africain,description de l'Afrique,tra.A.Epaulard, T.I.1956.p142.
8) Ibidem,p 91.voir Al Idrissi,description de l'Afrique et de l'Espagne,trad,Dozy et de Geoge,Lyde,1866,p 71.
9) Léon l'Africain,op.cit.T.II.p 428,Al-Bakri,description de l'Afrique septentrionale,trad.M.de Slane,Paris 1965.p 281.
10) Au début de notre siécle,cette situation était encore presque même ,orfèvres et bijoutiers étaient surtout des juifs originaires de sus et de la façade présaharienne.A Fés,il avait encore 25 tréfileurs,80 moulineurs de fils d'or et d'argent et 70 bijoutiers,tous des juifs.Voir:Massignons L,Enquete sur les corporations musulmanes d'artisans et des commerçants au Maroc,revue du monde musulman, T.58,1924.pp.54-60-125.
11) Ibn Al-Hakim,Ad-Dawha fi Dawabiti as-sikka,manuscrit de la bibliothèque générale de Rabat,n° D.2231,Fol.45,61,62.
12) Ibidem,Fol.102-103.
13)Al-Bakri,op.cit.p.226
14) Abu l'Fida,Taqwim al-Buldan,text arabe publié par M.Reinaud et M.de Slane,Paris 1940,p.125;Al Idrissi,op.cit.p.79.Al-Himyar,Ar-Rawd al Mitar,text arabe,Beyrouth,1975 .pp.46-47.

15) Anonyme,l'Afrique septentrionale au XII°S,description extraite du Kitab al-Istibsar,trad.E.Fagnan,Receuil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine,Vol.III,1899,p.165.
16) Al-Hamawi,Mujam al-Buldan,texte arabe,le Caire,T.IV,p.53.
17) Kati M.Tarikh el-Fettach,éd.Et trad.O.Houdas et M.Delafosse,Paris,1981.texte arabe ,pp.62-63,texte fr.pp.119-121,Al Idrissi,op.cit.p.35.
18) les points de vue sur ce sujet sont très opposés.Comparer: Mauny R.le judiasme,les Juifs et l'Afrique occidentale,BIFAN,Dakar,1949.V.XI.pp.354-378.et Monteil CH,probléme du Sudan occidental:Juifs et judiasés,Hesperis,1951,T XXXVIII.pp 265-298.Quant à nous,nous pensons d'après des recherches que nous menons actuellement,que l'influx des juifs maghrébins vers le sud a atteint le Sahara méridional,ou ils ont réussi à constituer des principautés,parfois prospère et dominantes.Toutfois,le mouvement almoravide leur a été fatale au milieu du XI°S.Cependant ,il est significatif de remarquer que cet afflux n'a intéressé le Sudan que sous forme de commerçants et artisansdont le séjour était saisonnier et en liaison avec le trafic caravanier.Il n'est pas impossible que certains immigrés juifs isolés se soient installés définitivement dans le pays,mais leur influence était quasi nulle et par conséquent on ne peut pas parler d'une communauté juive soudanaise.
19) Massignon L. L'influence de l'Islam au Moyen Age sur la fondation et l'essor des banques juives,Bulletin d'études orientales,T.I.pp.7-8.
20) Boissonade P.Les relations commerciales de la France méridionale avec l'Afrique du Nord du XII°S au XV°S, Bulletin de la Société de Géographie,1929,TXL VL,p.15 Levis Provencal E, L'Espagne musulmane au X° S,institutions et vie sociale,Paris,1932.pp.37-38.
21) l'une des caractères du commerce transsaharien est qu'il était le prolongement du négoce méditerranéen.C'est ainsi que le Maghrib au Moyen Age jouait le rôle d'intermédiaire commercial entre l'Europe occidentale et l'Afrique noire occidentale,pour plus de détails voir;
العلوي عبد العزيز،علاقة التجارة الصحراوية بالتجارة البحرية في المغرب المريني،ضمن أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، كلية الآداب عين الشق،الدار البيضاء 1989 ج 2 ص. 186-261 .
22) Dufourcq CH.E.L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII° S et XIV° S.Paris ,PUF1965,p.143.
23)Ibidem.
24) Boissonade P.op.cit.p.16.
25) De la Ronciére CH.La découverte de l'Afrique au Moyen Age,cartographes explorateurs,memoires de la société royale de géographie d'Egypte,1924-1925.TI,p.129.
26) Il s'agit de l'ampreur mandingue Kankan Moussa (1307-1332),dont le règne marque l'apogée de l'empire du Mali.A cette époque,il englobait la majeur partie du Sudan occidental,entretenait des rapports diplomatiques,spirituels et culturels étroits avec le Maghreb et l'Egypte.Le trafique saharien était florissant et l'afflux de l'or soudanais atteignait l'Angleterre.D'ou la r éputation de l'empire dans le monde méditerranéen.
27)De La Ronciére CH.op.cit.p.132-136.
28) Voir détails:
- العلوي عبد العزيز،البعد الاجتماعي للتجارة الصحراوية في العصر الوسيط،التجار المغاربة نموذجا،المصباحية،سلسلة العلوم الانسانية،كلية الآداب سايس-فاس،العدد الأول، ص 39-59 .
29) Al-Himyari , op.cit.p.306.
30) Les juifs d'Aghmat avaient le droit de participer aux activités économiques de Marrakech,mais ils leur était défendu de s'y installer,tandis que ceux de Sijilmasa devaient se limiter à être vidangeurs et maçons.
31) Sloush N.Etudes sur l'histoire des juifs au Maroc,archives marocaines,1906,V.V,2° partie,p.56.

32) Ibidem . V. VI.p.111.
33) Al Idrissi .op.cit.p.80.
34) Anonyme, op.cit.p.165.
35) La concurrence nord-africaine date en réalité du début de la dynastie mérinide qui n'a pas pu conserver la suprématie du Mahgrib sur le commerce avec le Soudan.Cette suprématie remontait à l'époque almoravide,mais depuis les Mérinides,les autres pays du Maghrib et l'Egypte sont devenus des partenaires commerciaux actifs de l'empire du Mali,voir détails:

- العلوي عبد العزيز،العلاقات التجارية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس،عدد خاص،5،1989 ص.57-64.

36) Martin A.G.P. Les oasis sahariennes,T.I.1908,p 120.
37) Ibidem
38) Voir sur ces persécutions : Al-Wansharisi, Al-Miyar, trad.E.Amar, archives marocaines,V.XII,pp244-226;voir aussi:

- التنبكتي أحمد بابا،نيل الابتهاج بتطريز الديباج،بيروت دار الكتب العلمية،د.ت ، ص..332.330



وضعية حرفة الدباغة بمكناس على عهد الحماية: 1934 -1950

ذ.محمد البكراوي *

لقد شكل الحرفيون قاعدة بشرية واقتصادية أساسية في المدن المغربية خاصة والعربية – الإسلامية عموما، حيث كانوا يمثلون نسبة هامة من ساكنة الحواضر المغربية ويساهمون مساهمة كبيرة في اقتصاد البلاد ، من حيث المردود الذي تدره الحرف على أصحابها ، إضافة إلى الجبايات المختلفة...وقد كان هذا النشاط يحتل المرتبة الثانية بعد الزراعة وتربية المواشي.

وكانت الدباغة تمثل قطاعا حيويا من بين الحرف المغربية المختلفة ، وقد تميزت بتنظيمها الاجتماعي والثقافي الخاص بها ، ويتحدد في :

1 - ارتباط المشتغلين بالدباغة بعلاقات حرفية متينة تؤطرها قيم الطائفة / الحنطة.

2 - مزاولة الدباغين لأنشطة جمعوية – جماعية ، كالانخراط وإنشاء جمعيات القنص والرماية التي توفر لهم الخروج في رحلات جماعية للصيد خارج المدينة ، وكذا تنظيم حفلات (النزاهة) أيام العطل وأوقات الفراغ، إضافة إلى مزاولة أنشطة رياضية – ترفيهية مختلفة مثل "المشاوشة"(1) (وهي مباريات في المصارعة).

3 - قيامهم بأعمال تعاونية وتكافلية كمزاولتهم دور رجال المطافىء بشكل جماعي في حالة نشوب حريق بإحدى أماكن دور الدباغة.

4 - إضافة إلى انخراطهم في الطرق الصوفية – على غرار باقي الحرفيين المغاربة (2) – مثل الطريقة التهامية . وتتضارب الآراء حول اختيارهم الانتماء للطريقة المذكورة. فهناك من يرجع ذلك إلى أن أحد أجداد شيخ الطريقة التهامية امتهن الدباغة ، وهناك من يرجع هذا الاختيار إلى التشابه الموجود بين حركات رقص التهاميين والحركات التي يقوم بها الدباغون أثناء عملهم .

ومهما يكن ، فإن الانتماء الطرقي والعوامل الأخرى السالفة الذكر أسفرت عن تضامن وثيق بين الدباغين ، وعن ظهور نوع من النشاط التعاوني بينهم ، يطبعه التآزر والتكافل ، كإعارة البعض للآخر أدوات العمل ، إضافة إلى أشكال تعاونية أخرى قد لانجد مثيلا لها في العديد من الحرف المغربية ، مما أهلهم للقيام بأكبر انتفاضة حضرية – مهنية عرفها مغرب القرن التاسع عشر (1873).

---

* أستاذ باحث بكلية الآداب - ظهر المهراز - فاس .

وقد عرفت الدباغة ازدهارا نسبيا في مراحل ما قبل الحماية رغم منافسة السلع الأجنبية لها خاصة أواخر القرن 19. إلا أن وضعيتها تغيرت كثيرا على عهد الحماية ، على غرار باقي الأنشطة الاقتصادية المغربية .

وللمساهمة في تسليط الضوء على بعض أحوال الدباغين في ظل الاحتلال ، سنشرع بطرح السؤالين/ المفتاحين التاليين :

- ماهي الوضعية الجديدة للدباغة بمكناس على عهد الحماية ؟

- وما هي التحولات التي طرأت عليها نتيجة اصطدامها بالاقتصاد الرأسمالي الاستعماري ؟

-المحددات العامة لحرفة الدباغة بمكناس مابين 1934 و1950 :

1 - **عدد الدباغين ومكان عملهم:** كانت حنطة الدباغة تتكون سنة 1934 من :40 "معلم"/ رب عمل و20 "صانع" و8"متعلمين" ، أي ما مجموعه 68 فردا عاملا(3)، يشتغلون في محلات يطلق عليها اسم "بيت"أو "الخزانة" ، وهي عبارة عن ورشات صغيرة يصل عددها إلى 32 تسغل منها 12 فقط(4). وتدخل هذه البنايات ضمن الأملاك المخزنية ، وتتجمع في مكان واحد خارج أسوار مدينة مكناس، ويطلق على هذا التجمع الحرفي "دار الدبغ".

2 - **أدوات عمل الدباغين** :يستعمل الدباغون في إنجاز عملهم مجموعة من الأدوات البسيطة من صنع مغربي ، تستجيب لطرق العمل وظروفه التقنية التقليدية ، وأهمها : الجنوي (سكين كبير)، المخطاف الحافي ، القرمودة ، الصدرية وغيرها(5). ويتمتع الدباغون – نظرا لطبيعة عملهم – ببنية جسمانية قوية ، وهم يعتزون بعملهم رغم قساوته

3 - **الانخراط في حنطة الدباغة** : يخضع الانضمام إلى حرفة الدباغة لشروط دقيقة على غرار باقي الحرف ، وتمتاز وتنفرد حنطة الدباغة بكونها تنظيما حرفيا - اجتماعيا يضم في نفس الوقت أرباب العمل (المعلمين) والعمال (الصناع والمتعلمين) ممن يمتهنون نفس الحرفة ، فلتسيير أمورهم يختارون من بينهم أمينا يهتم بالسهر على حل قضاياهم المهنية ، ومراقبة الإنتاج والدفاع عن مصالح أعضاء الحنطة ، وقد يلتجيء إلى المحتسب إذا دعت الضرورة لحل بعض المنازعات . وللمحتسب إلمام بالقضايا الاقتصادية ، يعينه السلطان ، ومن هنا يستمد قوة نفوذه ، بهدف إقرار العدالة بين صناع المدينة وضبط المخالفات ومعاقبة المخالفين. وهذا التنظيم هو الذي سمح للحرف بالنماء والازدهار والحفاظ على علاقات طيبة مع المجتمع / المستهلكين.

ويتمتع الأمين بسلطة قوية ، حيث لايمكن لأي دباغ جديد الانضمام إلى الحرفة إلا بعد حصوله على ترخيص مسبق منه.كما لايمكن للعامل أن يصبح رب معمل "معلم" إلا بعد اجتيازه لامتحان مهني أمامه. وكل من خالف تعليماته يعرض نفسه لعقوبات المهنة(6).

4 - **مصادر التموين بالمواد الأولية** : تشكل الجلود المادة الأولية الأساسية في حرفة الدباغة ، لذلك استقرت الحنطة بالقرب من مجزرة المدينة . ويقتني الدباغون من هذه الأخيرة الجلود إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وغالبا ما يتم ذلك عن طريق وسيط

الدباغين وقد ربط الدباغون - بحكم المصلحة المتبادلة - علاقات طيبة مع الجزارين . وكان هؤلاء يفضلون إبرام عقد تجارية مع زبنائهم الدباغين لتزويدهم بالجلود مادام ذلك يحافظ على استقرار أثمنة الجلود ويضمن لهم مصدرا ماليا مستقرا .

والجلود المستعملة في الدباغة هي : جلود الأغنام "البطانة" ،والماعز "العنزي"، والأبقار "البكري"، وأحيانا جلود الإبل . وتدخل في مراحل دبغ الجلود مواد مختلفة ، أهمها: مادة الجير التي تجلب من ضواحي المدينة ، بالإضافة إلى النخالة (فضلات القمح المطحون) ، ونبات تكاو الذي يجلب من تافيلالت ، وكذلك براز "بزق" الحمام وقشور الرمان...(7).

5 - **تسويق الجلود** : يبيع الدباغون إنتاجهم في السوق المخصصة لذلك"سوق الدلالة" بعد دبغها مباشرة ، ولا يتم خزنها لأن الحنطة لاتتوفر على مخازن .ويتم البيع عن طريق المزاد العلني ، ويضطلع الدلالون بهذه العملية بتقديم المنتوجات للمشترين ، لأن الدباغين لايبيعون إنتاجهم مباشرة إلى الزبناء (خرازين أو صناع البلاغي والحقائب...).

ويحصل الدلالون من عملهم هذا على مقابل يتراوح مابين 0,20 و0,25 فرنك عن كل جلد تم بيعه ، بعد استيفاء ضريبة البيع التي كانت على الشكل التالي :

نوع الجلد	مبلغ الضريبة الحضريةبالفرنك
غنمي	0,25
عنزي (الماعز)	0,50
بكري (البقر)	1

(8)

وكانت مبالغ هذه الضرائب المفروضة على عملية بيع الجلود في مدينة مكناس أكبر مما هو عليه الأمر في مدينة فاس مثلا . ولم تكن الأسواق المكناسية تستوعب إلا 20% فقط من الإنتاج المحلي ، لذا كان الدباغون يصدرون الباقي إلى المدن المجاورة ،خاصة فاس التي تستورد وحدها 80% من جلود الغنم والبقر.

وقد ظل عدم التنسيق يطبع سلوك الدباغين سواء في مراحل تسويق إنتاجهم ، أو أثناء بحثهم عن أسواق للبيع وشراء ما يحتاجونه من مواد أولية .

وتقدر مصلحة الحرف والفنون المغربية (Service des Métiers et Arts marocains) عائدات البيع اليومية من الدباغة بالنسبة للمعلم الواحد بحوالي 12فرنكا ، وللصانع بـ 2,50 فرنك وللمتعلم بـ 0,50 فرنك(9) ! وهي مبالغ هزيلة كما يتضح.

وكيفما كان الحال ، فإن السؤال الأساسي الذي يطرح بحدة :

هل استطاع هذا التنظيم الحرفي بمحدداته العامة - المذكورة أعلاه - أن يصمد في وجه الاقتصاد الاستعماري الفرنسي ؟

ـ عواقب الحماية الفرنسية على حنطة الدباغة :

أولا ـ تدهور وضعية حرفة الدباغين :

نتج عن اصطدام الاقتصاد الحرفي المغربي مع الاقتصاد الرأسمالي الاستعماري عواقب وخيمة مست اقتصاد المغرب بصفة عامة والنشاط الحرفي على وجه الخصوص ، ترى ما هي أسباب ومظاهر هذه الأزمة ، انطلاقا من نموذج حنطة الدباغين بمكناس ؟

ساهمت ظروف الحماية الفرنسية ـ إضافة إلى الأثار السلبية للأزمة الاقتصادية العالمية ـ في تعميق تفكك بنى الحرف وتراجع الدباغة.

وقد نتج عن ذلك اختفاء حرف لم تعد تساير التطور التكنولوجي السائد آنذاك مثل صناعة الأسلحة ، وتقلص نشاط البعض الآخر إلى أقصى الحدود، فأصبحت تسير نحوالاندثار كالصناعات الجلدية المتمثلة أساسا في : البلايغية (صناع البلغة) والطرافة (الإسكافيين)...(10) بالإضافة إلىخياطي الجلاليب وصناع الأواني الخزفية ...، وهذا مابينته الأبحاث الميدانية التي قامت بها سلطات الحماية نفسها في ذلك الحين .

أما بخصوص حرفة الدباغة فيمكن حصر أسباب تدهورها مع بداية الثلاثينيات في العناصر التالية :

1 ـ تراجع عدد المشتغلين بهذه الحرفة : إذا انخفض عدد المعلمين من 40 سنة 1935 إلى 30فقط سنة 1946(11).

2 ـ انغلاق الأسواق الخارجية أمام الدباغة : كان المغرب قبل سنة1930 يزود فرنسا وافريقيا الشمالية ، من القاهرة حتى دكار ، بالمنتوجات الجلدية ، غير أن هذه الأسواق قد أغلقت في وجه منتوجاته ، في الوقت الذي استطاعت فيه مصر تقليد البلغة المغربية ولجأت إلى حماية سوقها بالرفع من الحواجز الجمركية.

3 ـ والأدهى من ذلك ، لم يستطع المغرب الحفاظ على سوقه المحلية التي غزتها المنتوجات الأجنبية العصرية ، حيث سارع المستهلك المغربي إلى اقتنائها ، فأصبح يستعمل الحذاء العصري عوض البلغة ، والمعطف عوض الجلباب ، والطربوش عوض الرزة (العمامة) ... الخ.

وقد ألقت اليابان سنة 1933 بحوالي350 ألف زوج من الأحدية المطاطية (12) في الأسواق المغربية ، وهذا ضاعف من أسباب تأزم الصناعات الجلدية الوطنية من جهة أخرى.

4 ـ إنشاء معامل جلدية عصرية من طرف الفرنسيين،كما هو الشأن بالنسبة لمؤسسة (Froissactet Deleroix) التي أنشأت معملا عصريا للجلد سنة 1947 بطريق أكوراي (Manucuir)(13) ،وهذا ما زاد كذلك في تأزيم وضعية الدباغة،حيث أصبح المعمل ينتج أحدية عصرية في وقت وجيز ويشغل عددا وافرا من اليد العاملة من بينها المشتغلين في حنطة الدباغة سابقا،كما كان المعمل يوفر إنتاجا بكمية مرتفعة وبكلفة أقل.

5 ـ المنافسة الشديدة على مستوى التزود بالجلود: كان الدباغون سابقا يتزودون بموادهم الأولية من سوق الدلالة القريب من المجازر ومن دار الدبغ بمكناس، لكن مع تأسيس المدينة الجديدة تحولت هذه الوضعية ، حيث أقيمت المجزرة البلدية بطريق فاس ، بعيدا

عن دار الدبغ ، مما أتاح الفرصة لظهور وسطاء مغاربة وفرنسيين ، وخاصة من اليهود تمكنوا من الحصول على الجلود من المجزرة مباشرة بأثمنة مناسبة (14) دون المرور بسوق الدلالة التقليدي ، كما عملوا على جلبها من الأسواق المجاورة للمدينة أيضا ، وبذلك منع دباغو مكناس من مادتهم الأولية لصالح مدن أخرى : فاس ، الدار البيضاء ، الصويرة، وفضالة(المحمدية)...

وقد أدت هذه المنافسة إلى ارتفاع غير معهود في أسعار الجلود ، وهذا ماتبرزه الأمثلة التالية :(15)

السنة	جلد البقر (البكري)	جلد الغنم(الغنمي)	جلد الماعز (العنزي)
نونبر 1938	من 20إلى 80ف	15 إلى25 ف	7,50 إلى25
1948		من250إلى450	300 ف
دجنبر 1949		من375إلى600	450

6 ـ وهناك عوامل داخلية أخرى ساهمت بدورها في تدهور الدباغة بمكناس ، نذكر منها على سبيل المثال : استغناء دباغي فاس عن التزود بالجلود المكناسية خصوصا بعد تأسيس تعاونية للدباغة ومشغل نموذجي بفاس ، وللإشارة فإن هذه المدينة كانت تستورد سابقا 80% من جلود مكناس، أي أنها كانت تحتل رتبة الزبون الأول من حيث المتعاملين التجاريين مع الدباغين المكناسيين .

7 ـ نتج عن الوضع الجديد أيضا خلخلة تنظيمات الحنطات (الحرف) ، حيث فقد المحتسب والأمين سلطاتهما ومكانتهما التقديرية التقليدية ، ونتج ذلك بدخول حرفة الدباغة أناس غير مؤهلين وغير ملتزمين بتحسين جودة المنتوج. كما عانت الحرفة أيضا من منافسة التقنيات والأدوات الجديدة ، كمواد الصباغة الكيماوية العصرية أساسا التي لم يكن في وسع الدباغين الحصول عليها .

لقد ساهمت كل العوامل المذكورة بشكل متضافر في تدهور حرفة الدباغة ، وهذا ما انعكس على وضعية الدباغين الاجتماعية والمادية و نتبين ذلك من خلال المضاعفات التالية :

أ ـ تراجع عدد المشتغلين بالدباغة ، وتسريح الصناع الذين تحولوا إلى عمال في المصانع الأوربية العصرية(16)، وهذا ما أصبح يعرف بظاهرة "البلترة".

ب ـ حدوث تدن مهول في مستوى معيشة الدباغين ، وهذا ما أكده المثالان التاليان :

* رسالة وجهها أربعة دباغين إلى الحاكم الفرنسي لإقليم مكناس بتاريخ7 مارس 1950 ، يلتمسون منه إيجاد شغل لهم يساعدهم على كسب قوتهم اليومي ، بعد الركود الذي أصاب حرفتهم(17).

* تقرير عبد العزيز المقري ، نائب محتسب مدينة فاس ، المؤرخ في 7 دجنبر 1949، يبرز فيه أزمة الخرازين(18).

وبصفة عامة، لقد ساهمت هذه الأزمة في تراجع عدد الحنطات وعدد المغاربة المشتغلين بها، والإحصائيات الفرنسية التالية تبرز تراجع عدد المعلمين الدباغين :

السنـــة	كم التراجـع
1920	71
1948	51
1950	42

(19)

ثانيا : الحلول المتخذة من طرف سلطات الحماية :

حاولت سلطات الاحتلال - أمام هذا الوضع المتأزم - إيجاد حلول للتخفيف من حدة الأزمة ، باتخاذ الإجراءات التالية :

1 - إصدار تدابير تنظيمية وقانونية لمحاولة إنعاش القطاع الحرفي ، ونذكر على سبيل المثال : إصدار ظهير 8 يونيو1938 الذي يسمح للحرفيين بتأسيس تعاونيات فيما بينهم. وقد تأسست في هذا الإطار أول تعاونية للدباغة بمكناس في 3 ماي1939 "...لمدة غير محدودة ، طبق العوائد تسمى جمعية التعاون لأجل شراء المواد الدباغية التي تتوقف عليها حرفتهم ..." ، حسب ما جاء في الفصل الأول من القانون المؤسس للجمعية التعاونية لدباغي مكناس. وقد كانت هذه الجمعية تضم 31 معلما"(20). غير أن اندلاع الحرب العالمية الثانية أدى إلى شل وتعطيل نشاطها .

2 - إنشاء " مشغل نموذجي "(Atelier pilote) للدباغة بدار الدبغ سنة1951 ، بهدف تلقين تكوين عصري للمتعلمين ، وتدريب الدباغين على الآلات العصرية التي تمكنهم من مواكبة المستجدات(21).

3 - تقديم مساعدات مالية للتعاونية قصد تحديث تجهيزات الحنطة ، وتحسين جودة الإنتاج لضمان الأسواق الخارجية.

وحتى لا نعطي لإجراءات سلطات الحماية أبعادا أكثر من حجمها ، نتساءل ماهي حقيقة وفعالية هذه المحاولات التحديثية ؟

لم تؤد هذه المجهودات في الواقع إلى النتائج المرجوة من طرف الدباغين لأسباب متعددة ، أهمها :

أ - لم يستفد من التكوين المذكور إلا عدد ضئيل من الدباغين : لم يتعد 10 صناع خلال السنة الأولى(22).

ب - اتسام نوعية التكوين بالمحدودية وعدم الفعالية ، وذلك راجع إلى عدم تحمس المسؤولين الفرنسيين إلى تدريب الصناع المغاربة على كيفية تشغيل الآلات الحديثة ، إضافة إلى جهل الحرفيين للفرنسية لغة التكوين .

وقد عبرت الشكاوي التي رفعها الدباغون إلى السلطات المختصة عن تذمرهم من نوعية التكوين الذي تلقاه المستفيدون من التدريب في مشغلي الدباغة والخرازة.

ج - لم يؤد إنشاء "المشغل النموذجي" إلى تخفيف العبء المادي عن الدباغين ، بل حدث العكس ، فقد وصلت الأثمنة التي كان على الصناع تأديتها مقابل خياطة نعل الأحذية إلى

30 فرنكا سنة1951 ، وانتقل في ظرف وجيز إلى 45 فرنكا سنة1952.في حين لم يكن يؤدي الخرازون في المدن المغربية الأخرى سوى25 فرنكا عن نفس العمل .
د ـ كانت المساعدات المالية المقدمة لتعاونية الدباغة محدودة للغاية ، لم تف لا بتطوير الحرفة من خلال تجهيزها تجهيزا حديثا لتحسين نوعية الإنتاج من جهة ، ولا بتحسين الوضعية الاجتماعية والمادية المتدهورة للدباغين ، ويمكن إلقاء نظرة على حجم المساعدات المالية التي قدمتها سلطات الحماية لتعاونية الدباغين على شكل قروض من صندوق الايداع والقروض الأهلية ، في الجدول التالي :

السنة	مبلغ القروض بالفرنك
1940	53 000
1945	405 000
1946	500 000

(23)

وبالجملة يتبين من كل الإجراءات المذكورة أن سلطات الحماية كانت ـ في الواقع ـ تهدف من ورائها إلى احتواء ومراقبة الحرفيين أكثر من التفكير الجدي في إيجاد الحلول الحقيقية للمشاكل التي كانت تتطلبها الوضعية المتأزمة.

ويظل السؤال المطروح هنا هو : ماهي ردود فعل الحرفيين اتجاه هذه الظروف المتردية ؟

ـ الحرفيون والحركة الوطنية :

انخرط الحرفيون ، ومن بينهم الدباغون ، في صفوف الحركة الوطنية نتيجة عاملين الأول مادي منفعي، والثاني سياسي وطني . وقدد انتبهت إحدى التكهنات الفرنسية للعامل الأول فقط ، حيث جاء فيها : "يشكل الحرفيون الطبقة الوسطى بالمدن ، ويكونون عناصر استقرار عندما يمارسون مهنة مربحة"(24) وهذا ما يقود إلى اعتبارهم أيضا عناصر عدم استقرار عندما يزاولون نشاطا غير مربح أو يكونون عاطلين .

ويمكن تحديد علاقة الحرفيين بالحركة الوطنية من خلال الملاحظات التالية :

1 ـ لقد نتج عن تدهور الحنطات واستفحال وضعيتها انضمام الحرفيين إلى صفوف العاطلين ، فأصبحوا يشكلون فئة/ مجالا خصبا لاستقبال الأفكار الوطنية التي كان الوطنيون المغاربة يروجونها (25)،كما تأثرت هذه الفئات المهنية بالأفكار النقابية والاشتراكية على اعتبار أن الدباغين كانوا على اطلاع بالأحداث التي كان المغرب يمر منها ، وذلك من خلال حضورهم دروس الوعظ والإرشاد التي كانت تلقيها العناصر الوطنية في المساجد ، إضافة إلى احتكاكهم بمثقفين في الجلسات الطرقية ".

2 ـ لم تقتصر علاقة الحرفيين بالحركة الوطنية على الانخراط السلبي والتعاطف فقط بل لقد كانوا في مقدمة جل المعارك النضالية التي خاضتها الحركة الوطنية المغربية المدينية ، ونذكر في هذا المجال على سبيل المثال : السخط والاستياء الذي عبر عنه الحرفيون والتجار سنة 1920 ، إثر فرض سلطات الحماية لضريبة تجارية (Patente)، ثم ضريبة "الكياب" (جمع كيب ، أي السترة التي تعلو وتغطي سطح الدكان أو المنزل)، حيث

نزلوا إلى الشوارع لأول مرة بالرباط وسلا(26) في بداية الأمر ، ثم عمت المظاهرات بعد ذلك مدنا مغربية أخرى من بينها مدينة مكناس.

وكان للحرفيين حضور فعال كذلك في المحطات النضالية الوطنية التي عرفتها سنوات 1944,1937,1933... وبالجملة ، لقد حملت التظاهرات التي شهدتها المدن الكبرى مطالب عبرت عن رغبة الحرفيين في تحسين أوضاعهم ، كما عبرت المطالب السياسية عن أزمة اجتماعية شهدتها الصناعات التقليدية والتجارة المرتبطة بها ...

الهوامش :

1) - استقينا هذه المعلومات من الرواية الشفوية ومن الاستجوابات التي أجريناها خلال شهر أكتوبر 1995 مع بعض "المعلمين" و"المتعلمين " المسنين الذين يشتغلون بدار الدبغ بمكناس.

2) – أنظر: Massignon (Louis) , « Enquête sur les corporations musulmanes d'artisans et commerçonts au Maroc »dans la Revue du Monde Musulman, n° 58, 1924 , p p 101 - 102 . 117 et S.

3) – حسب نتائج البحث الميداني الذي أجرته مصلحة الفنون والحرف المغربية (Service des Arts et Métiers marocains) سنة 1934 ، والذي شمل جميع انواع الحرف المرتبطة بصناعة الجلد بمدينة مكناس .

G: Enquête sur l'artisanat marocain, effectuée par le Service des Arts et Métiers marocains de Meknès en 1934, ainsi que de nombreux rapports et circulaires conservés dans les Archives Municipales de la ville (A.M.M.), non classées , ni numérotées et également Baumont (guy), l'avenir des corparations artisanales au Maroc : l'exemple de Meknès Mémoire de stage, Ecole Nationale d'Administration, janvier 1949, p 66 et s, Anneye B.

4) - نفس المصدر ن ص : 2. Ibid , p : 2

5) - نفسه ، ص : 3.

6) - نفسه ، ص : 13 وما بعدها . Ibid , p : 13 et s. ainsi que Baumont (guy) , op. cit. p : 26et S.

7) - نفس المصدر ، ص : 4 ومابعدها.

8) - نفسه ، ص : 9.

9) - نفسه ، ص :11.

10) – أنظر : Ricard (Prosper) « la situation des industries indigènes du cuir le Bulletin Economique du Maroc(B.E.M.) n° 2, 1933/34, p 170 et S; ainsi que : « le problème du cuir du Maroc » , du même auteur , dans B.E.M., n° 16 , 1937, p : 102.

11) - أنظر : Rapport etabli par Jean Fayet , ingénieur de tannerie auprès du service des métiers et Arts marocains de Rabat, sur les centres de tanneries artisanales de Fès_ Meknès, mai 1946, p :1 dans les A.M.M.

12) - Ricard (Prosper) , op , cit , p 174.

Rapport de Jean Fayet, ingénieur de Tannerie, en mission à Meknès, sur les tanneries - (13 artisanales de meknès, adressé au Contrôleur Civil, chef de la Délégation urbaine, Services Municipaux, Meknès (A.M.M.) Fès, le 24 mai 1948, n° 40 G/F ? P / 4.

Ibid, p : 1 et s. - (14

15) - نفسه.

16) - نفسه .

A.M.M., 4 tanneurs domiciliés à Dar Debagh à Meknès, au général chef de la Région de - (17 Meknès, le 7 mars 1950.

يتعلق الأمر بالدباغينن : علال بن أحمد ، أحمد لخليفي ، قاسم المفتي والتهامي حميش .

18) - من عبد العزيز المقري ، نائب محتسب مدينة فاس إلى المراقب المدني ، في 7 دجنبر 1949 (قسم الوثائق البلدية فاس).

A.M.M., Exposé sur la crise actuelle de l'artisanat, le Contrôleur Civil, Délégué aux - (19 affaires urbaines, Meknès, le 11/3/1950.

A.M.M., Statut de la Coopérative des tanneurs de Meknès, qui conprend 12 articles et - (20 groupe 31 « Maâlemines « tanneurs, le 3 mai 1939.

Ibid, Rapport de l'inspecteur Régional du Service des Arts et métiers Marocains, au - (21 général chef de la Région, sur le fonctionnement des Ateliers piates, n° 600/c, le 6/5/1951.

22) - نفسه ، ص : 2. Ibid.

23) - نفس المصدر ، ص :3 . Ibid.

R.M., « Pour une rénovation méthodique de l'artisanat marocain », dans le B.E.M, - (24 n° 16, avril 1937, p : 99, ef agalement Baumont (guy), op, cit, p 59.

25) - أنظر : Baumont (guy), op, cit, p : 57 et s.

26) - حول هذه الانتفاضة الشعبية يمكن الرجوع للحاج أحمد معنينـو : ذكريات ومذكرات ، الجزء الأول ، 1920-1931 ، مطبعة سبارطيل ، طنجة، 1991 ، ص : 93 وما بعدها .

أشياخ وأمناء القبائل خلال القرن التاسع عشر الوظيفة وحدودها

ذ.علال الخديمي

في حدود سنة 1880، تدهورت الأوضاع بالمغرب بشكل أزعج السلطان مولاي الحسن. فلم يعد المغرب يواجه الضغوط الخارجية لفتح أبوابه للتجارة الدولية أو للتعامل الواسع مع هذه الدولة أو تلك ، بل لقد تطورت الامتيازات التي حصلت عليها الدول الأجنبية بين 1845و1863 ، إلى الإسراع بتفكيك بنى المجتمع المغربي ، الذي أصبح في وضعية أهم ما تميزت به هو سرعة التحولات في البنية الاقتصادية والاجتماعية. وقد حاول مولاي الحسن (1873 - 1894) ، مواجهة هذه الوضعية ، فسلك سياسة تميزت بالحذر والاستنفار الدائم للمجتمع ، ليظل متماسكا في وجه عوامل التخريب الاقتصادي والإداري والسياسي ، وهذا مايفسر تحركه الدائم من جهة . كما تميزت بسلوك طريق الإصلاحات لمواجهة الضغوط الأجنبية ، وسحب الذرائع من أمامها للتقليل من عواقب الامتيازات الأجنبية من جهة أخرى.

وفي إطار سياسة الإصلاح ، التي بدأت مع مؤتمر مدريد(1880) ، نلاحظ إصرارا زائدا على تشديد المراقبة على المجتمع ، وفي الوقت نفسه إزالة أسباب تظلم الرعية من حكامها . لهذا بادر السلطان بتنفيذ إصلاح الجبايات وإدارتها ، بحيث وسع دائرة التأطير المحلي ، فبجانب القواد عين أشياخ وأمناء ، وحددت لهم مهام رسمية في إدارة القبائل وجبايتها.

في هذه الدراسة ، سنحاول الكشف عن الآثار الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي ترتبت عن ظهور هذه البنية التأطيرية بالقبائل : بنية الأمناء والأشياخ.

وسينصب الاهتمام لا على الإصلاح الإداري وجهاز الأمانة الذي نظمه مولاي الحسن . بل سنقتصر على التعريف بأمناء وأشياخ القبائل المعينين بظهائر . وتحديد خصائص الوظيفة وحدودها ، ثم محاولة التعرف على الآثار التي ترتبت عن علاقة الأمناء والأشياخ بالقياد وبعموم الناس(1).

تحديد الفئة : أمناء وأشياخ القبائل :

إن طبيعة التنظيم الاجتماعي المغربي كانت تفرز وتفرض وجود أعيان متنفذين ، يأخذون بين أيديهم ناصية التسيير ، داخل الدوار أو الفخدة أو الفرقة أو القبيلة . وكانت الجماعات في النهاية تتفق وتنتخب شيخا تسمع لكلمته وتطيع أوامره ، في سبيل رعاية مصالحها والدفاع عنها .

---

* أستاذ باحث بكلية الاداب الرباط

إن هذا النوع من الشيوخ ، ظل موجودا باستمرار بالقبائل المغربية . وكان المخزن والقياد يستفيدون من خدماته الإدارية بدون تحديد أو تقنين(2).

ـ وهناك نوع آخر من الشيوخ ، كان يسمى في التنظيم الاجتماعي المغربي : شيخ الربيع . وهو شيخ تنتخبه جماعات القبيلة ، أو تصل به زعامته المكتسبة من عصبيته وقوته أو من ثروته وارتباطه بالجماعة إلى رتبة الشياخة الغير الرسمية .

والواقع أن أشياخ الربيع ، كانوا يظهرون في أوقات فراغ السلطة أو عند الرغبة في الخروج عن طاعة المخزن . فشيخ الربيع ـ إذن ـ هو شيخ السيبة الذي لايأخذ مغارم ولايوظف أية ضريبة أو إتاوة على القبيلة.

وعندما تفاحش التدخل الأوربي بعواقبه السياسة والاقتصادية ، كانت استجابة المجتمع المغربي مرنة في مواجهة التحدي . ذلك أن المخزن الذي أرهق بالمطالب وبالتدخلات في شؤونه الإدارية المحلية أظهر في بعض المناطق نوعا من الضعف انتهى بأن أصبح حقيقيا.

فقد تمكن قواد من توسيع تدخلاتهم ومبادراتهم في أمور عامة لاتهم قبائلهم خاصة وتمكن شيوخ الربيع ، أي شيوخ التمرد أو الانتفاضة من أن يصبحوا هم الحكام الفعليين في كثير من المناطق التي تفاحش فيها التدخل الأجنبي كالغرب مثلا .

ولقد استغل المخزن هذه الظاهرة لمقاومة تدخلات الأجانب والمحميين والتهرب من مطالبهم بالتعويض . في الوقت الذي كان فيه أشياخ الربيع يجمعون الضرائب لحساب السلطان . وهذه الظاهرة برزت بشكل واضح في عهد مولاي عبد الحفيظ الذي تزعم الحركة الجهادية المعادية للتدخل الأوربي في المغرب (3).

وهكذا ، إذا كان أشياخ الربيع ، في واقعهم الاجتماعي زعماء تمرد على السلطة وعصيان لأوامر المخزن في فترات معينة ، فقد تحولوا في عهد تعاظم الاحتلال الفرنسي للأرض المغربية إلى زعماء جهاد. وهذا ما يفسر تحالفهم مع الحركة الحفيظية التي وجدوا فيها ضالتهم المنشودة. إن شيخ الربيع في حقيقته تعبير وتجسيد لإرادة الجماهير الشعبية .

ويبدو أن مولاي عبد الحفيظ ، زكى مواقف هذه الفئة ، التي ترقت في فترة الجهاد إلى رتبة القيادة. ومعنى هذا أن رتبة شيخ الربيع تتعدى أحيانا الشياخة على فرقة لتعم القبيلة. فشيخ الربيع بهذا المعنى يصبح قائدا منتخبا من طرف الجماعة وليس قائدا رسميا معينا بظهير سلطاني . وقد يعترف به رسميا لكنه يظل يحمل إسم شيخ الربيع(4).

ومهما يكن ، فإن وضعية الدولة المغربية خلال القرن التاسع عشر ، وفي النصف الثاني منه بخاصة. قد دفعتها إلى محاولة إصلاح إدارتها بصفة عامة وإدارتها المحلية على الخصوص .

ولقد ارتكز إصلاح إدارة القبائل على تعيين أشياخ وأمناء ، ومنحهم جانبا من السلطة على السكان ، خاصة فيما يتعلق بالجباية. وأصبحت هذه الفئة طرفا في تسيير الإدارة المحلية وتستند على ظهائر سلطانية تعزز نفوذها بجانب سلطة القياد.

والفرق بين الأشياخ الجدد والقدامى ، أن الجدد أصبحوا مكلفين رسميا ومعينين بظهائر سلطانية حددت مهامهم ، مثل فرض الضرائب وجبايتها وتدبير أمور القبائل ومراقبة السكان. أما الأشياخ القدامى فلم يعد لهم أي دور ، باستثناء مساعدة القياد والأشياخ والأمناء المعينين في قبض الفرائض.

زد على ذلك أن الأشياخ والأمناء المعينين ، عينت لهم أجور محددة ، وكان عليهم أن يخضعوا أملاكهم بدورهم للجباية ويساهموا في الكلف المخزنية.

كيفية التعيين : نتوفر على وثيقتين من الأهمية بمكان . من خلالهما نتعرف على أن بداية تعيين أشياخ وأمناء بالقبائل كان حوالي سنتي 1884 - 1885 (5).

الوثيقة الأولى ، ظهير تعيين أمناء وأشياخ فرقة موالين الغابة من الزيايدة، مؤرخة ب 22 قعدة عام 1301 الموافق 13 شتنبر 1884 (6).

أما الوثيقة الثانية : فهي ظهير تعيين أمناء وأشياخ قبيلة أولاد بوزيري ، وهي مؤرخة ب 22 ربيع الأول 1302 الموافق 5 يناير 1885 (7).

بمقارنة الوثيقتين مع وثائق أخرى ، نفهم أن كيفية التعيين ، تمت في البداية بإصدار ظهائر جماعية ، خصت الأمناء والأشياخ في ظهير واحد(8).

ففيما يتعلق بفرقة موالين الغابة من قبيلة الزيايدة ، عين مولاي الحسن عليها أربعة أشياخ وأمينين. أما قبيلة أولاد بوزيري ، فعين فيها السلطان خمسة أمناء وأربعة أشياخ .

ويظهر أن الأمر كان مشابها في القبائل والفرق الأخرى ، كما يظهر أن عدد الأشياخ والأمناء كان يستجيب لتعدد تقسيمات القبيلة أو الفرقة .

فبدكالة مثلا ، عين ثلاثة وثلاثون أمينا . وتسعة عشر شيخا. أما في الشاوية فتم تعيين واحد وأربعين أمينا وأربعة وثلاثين شيخا. في حين عين اثنان وأربعون أمينا بقبيلة بني احسن وستة وعشرون شيخا(9).

وهكذا يظهر دائما ، أن عدد الأمناء كان أكثر من عدد الأشياخ. ولعل ذلك راجع إلى تعيين أمين على كل فخذ أو دوار أما الشيخ فيمكنه أن يراقب قسما أكبر يشمل عددا من الناس المكونين لجماعة معينة .

بعد هذه التعيينات الأولى ، أصبحت طريقة تعيين شيخ أو أمين أو استبداله تتم بواسطة إصدار ظهير وصنع طابع للشخص المعين. فقد توسط أمناء وأشياخ أولاد زيان أهل الوادي ، لدى السلطان لتولية ابن أخ أمين متوفى أمينا مكانه ، وطلبوا من السلطان أن ينعم عليه بظهير التعيين ، وبطابع "يكون عنده من جملة الأمناء والأشياخ" (10).

والواقع أن ظاهرة توفر كل شيخ أو أمين معين ، على طابع خاص ، ينقش فيه اسمه الكامل ، تثير التساؤل فهل صنع الطوابع فرضه الشرط الثقافي للمعنيين بالأمر، لأن أغلبهم وخاصة الأشياخ كان أميا ؟(11).

أم أن الأمر يتعلق بالاحتياط ، خوفا من تزوير توقيعات الأشياخ والأمناء ، أو تلاعب أصحابها أنفسهم ، أو أن درجة أمناء وأشياخ القبائل في السلم الإداري كانت تقتضي ، عدم الاكتفاء بتوقيعاتهم . كل هذه الأسئلة صحيحة، وأجوبتها لن تكون بالسلب على أية حال. فإذا تصفحنا المراسلات الرسمية بين المخزن المركزي والمخزن المحلي ، نلاحظ أن

كثيرا من قواد القبائل الصغرى أو الفرق كانت تصنع لهم طوابع ، في حين كان القواد الكبار أو القواد المعروفون عند المخزن يكتفون بتوقيعاتهم. زد على ذلك ، أن أمناء المراسي أو المدن كانوا يوقعون مراسلاتهم ، ولم تكن لهم طوابع يوقعون بها(12).

كيفية الاختيار: كان السلطان يعتمد في اختيار أمناء القبائل وأشياخها ، على اقتراحات العمال ، أو اقتراحات الأشياخ والأمناء أنفسهم ، وكان يأخذ دائما باقتراحات جماعة الأعيان (13).فقد اقترح - على سبيل المثال ــ القائد أحمد بن العربي المديوني ، على السلطان تعيين أمين مكان أمين متوفي فأجابه السلطان :"وصل كتابك معلما بصيرورة الأمين" ابن الغازي إلى رحمة الله وأنه ترك ولدا وإخوة . ووجهت من لمكانه منهم رشحته لما به وصفته [...] فقد ورد وجعلناه أمينا مكان أخيه وكتبنا له بذلك ظهيرتا الشريف وحازه"(14).

ويظهر دور العمال في اختيار الأمناء والأشياخ ، في أن العمال كانوا يعدلون بعض الاقتراحات الآتية من المركز. فقد طلب السلطان من القائد خليفة بن داوود الحصيني أن يرسل مجموعة معينة من الرجال لتولي مهام مخزنية ، فعدل القائد اختيار المجموعة وأرسل من كل فخذ من القبيلة رجلا. فاستحسن السلطان تصرف القائد وأجابه بقوله :" فوجهت من كل فخذ واحدا [...] فقد أصبت في ذلك أصلحك الله"(15).

وعن دور الأمناء والأشياخ في اختيار من يتولى الأمانة أو الشياخة جاء في رسالة من السلطان إلى القائد محمد بن العربي الزيادي :"أما تعيينك من سميت من أولاد طلحة فتلاق مع الأمناء (...) وتفاوض معهم في ذلك ووجهوا أربعة من أعيان كل فريق منهم"(16).

هكذا كان الأمناء والأشياخ يختارون من بين أعيان القبيلة . وكان اختيارهم يتم باقتراح عدد من الرجال يصل أحيانا إلى أربعة ليختار منهم السلطان اثنين للأمانة والشياخة. ويظهر أن إشراك الأمناء والأشياخ في التفاوض مع العمال على اختيار من يرشح للمهنة كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى تضارب المواقف وتصادم العمال مع الأمناء والأشياخ مما يبين تداخل حدود وظيفة القواد مع وظيفة الأمناء والأشياخ وهذا ماسنراه لاحقا.

وظيفة الأشياخ والأمناء :

سوت ظهائر التعيين الأولى ، الأمناء والأشياخ في التكليف ، وحددت وظيفتهم في مهمتين أساسيتين :

المهمة الأولى : مهمة خاصة ، تتعلق بالمراقبة والاستخبار داخل القبائل. وإذا كان عمل الأمين يتلخص في ضرورة أن يكون شاهدا على كل ما يجري ، ومهمة الشيخ تقتضي الحزم والعزم لتنفيذ أوامر المخزن. فإن الأمناء والأشياخ يتساوون في وظيفة البحث والتنقيب والمراقبة لما يطرأ داخل قبائلهم . ويمكن تقسيم هذه المهمة الخاصة إلى قسمين :

أولا : التعرف على أحوال القبيلة الاجتماعية والمادية ، بإحصاء عدد السكان ومقدار المتمولات والأملاك. فقد حتمت ظهائر التعيين على الأمناء والأشياخ معا ، أن يطلعوا المخزن على ما زاد أو نقص في فرقهم " من عدد النفوس وماهو في ملكهم الآن ، وما

يتملك بعد من الأملاك وما يزرع في البلادات من عدد الأمداد المحققة(17) المكيال عندهم ،وحدائق الغروس ، ومالهم من الماشية والإبل والخيل والحمر والبغال عند انسلاخ كل شهر على التوال ليعلم مازاد وما نقص على التفصيل ..."(18) .

ثانيا : مراقبة علاقات الناس في القبائل بالتجار الأجانب . فقد أكدت الظهائر على ضرورة "المبالغة في البحث عمن طمحت نفسه لتتحمل الدين ، ويخبرون به قبل أن يقع في مهواة الهلاك والحين. وأن يمنعوهم من تحمله ومن المخالطة(19) الناشئة من أجله، الفاسدة شرعا ... وإلقاء البال لمن يروم الدخول في الحماية الخارجة عن القانون والشروط بين الأجناس"(20) .

المهمة الثانية : مهمة عامة يشترك فيها الأمناء والأشياخ والعمال. وتهم أمر الجبايات وتقدير الفرائض والتكاليف المخزنية. فقد كلفت ظهائر التعيين أمناء القبائل وأشياخها المعينين بالحضور : مع أعيان القبيلة وعرفائها وصلحائها ، والعامل لفرض هدايا الأعياد (21)، والزكوات والأعشار ، والتكاليف المخزنية كالسخاري (22) ومؤونة الضيوف والحركة وضرورياتها ..."(23).

هذه هي المهام التي تحدد وظيفة أشياخ القبائل وأمنائها ، كما حددت في ظهائر التعيين التي أصدرها السلطان مولاي الحسن. فماهي الأهداف التي توخاها السلطان من توسيع الإدارة المحلية بالقبائل؟

أهداف الترتيب الحسني :

أكد السلطان في ظهير التعيين ، على أن الهدف من توسيع هيكل الإدارة المحلية المشرفة على الجباية ، هو تخفيف أعباء الفرائض على الناس ، وإزالة أسباب الجور والتعسف بإلغاء انفراد العمال بالجباية وحدهم. كما أكد السلطان على ضرورة منع الناس من تحمل الديون من التجار الأجانب أو الميل إلى حمايتهم(24). وقد نص ظهير التعيين على كيفية التخفيف على الناس ، بإلغاء تقدير الفرائض على أساس " العتل والعظم وتقادير الديوان"، أي على أساس تقسيمات القبائل والفرق والدواوير المحددة مسبقا . وهي تقسيمات أصبحت غير عملية ومتجاوزة ولاتعبر عن حقيقة الوضع الاجتماعي القائم بالقبائل . نظرا لما كان يطرأ على القبائل من تطورات اجتماعية (تزايد طبيعي) أو سياسية (تنقلات وهجرات وفرار) أو اقتصادية (أزمات - قحوط) أو طبيعية(جفاف - جراد - فقر التربة في السواحل الرملية) أو مجالية (تحديد مجال الزراعة أو تربية الماشية أو ظهور ملكيات خاصة في يد الرأسمال الأجنبي بخاصة) . وصرح السلطان في ظهير التعيين ، على أن الفرض ابتداء من تعيين الأمناء والأشياخ أصبح على أساس "نسبة المثقال المقوم به المتمول"(25).

هكذا ، كانت الأهداف طموحة بدون شك . ولكن هل تكفي النوايا الطيبة والغايات النبيلة في تحقيق النتائج الإيجابية ، بدون سلطة مركزية قوية وبدون إصلاح إداري شامل ! ؟

العواقب الاجتماعية والسياسية :

لاشك أن جهاز الأمناء والأشياخ ، قدم خدمات كبيرة للمخزن المركزي . فقد أصبحت السلطة في المركز على اطلاع واسع بما يجري في القبائل وشجعت الأطراف على إبداء اقتراحاتها وانتقاداتها لبعضها البعض. كما تمكنت السلطة المركزية من مراقبة مداخيل القبائل التي أصبحت أكثر انتظاما ، لأن القياد لم يعد في إمكانهم المناورة أو إخفاء شيء مما كانوا يجمعون.

ومع هذا ، يحق لنا أن نتساءل : هل حل جهاز الأشياخ والأمناء الضخم مشكلة الإدارة المحلية ؟ وهل خفف العبء الجبائي والتسخيري على المجتمع بالأرياف المغربية ؟

الواقع ، أن الإصلاح الجبائي الحسني ، لقي معارضة من طرف القياد ، وإن كانت محدودة ، فإنها أساءت للإدارة المحلية وبالتالي لم تحقق كل ما كان مرجوا من الترتيب الحسني (26)كما يمكن للباحث في مستندات الدولة المغربية أن يقتنع ، من خلال شواهد عديدة، بأن توسيع هيكل الإدارة المحلية بالقبائل ، قد أدى في النهاية إلى توسيع وتعميق إخضاع الناس لعناصر إدارية سرعان مابان تناقضها وصراعها وتنافسها.

إن هذا التطور الحاصل داخل المخزن المحلي . بين أن فئة الأشياخ والأمناء في القبائل قد أصبحت شوكة في حلق القياد. لا بما حصلت عليه من تأييد رسمي ونفوذ معنوي في قبائلها فحسب .ولكن وهذا هو الأهم، بما جمعته من ثروة ، لأن وظيفتها كانت منبعا من منابع التمول .

لقد بدأت الخلافات بين القياد والأمناء والأشياخ منذ البداية ، وظهرت تلك الخلافات في عدم تعاون الطرفين على قضاء أوامر المخزن. فبالشاوية نلاحظ أن قائد أولاد بوزيري رفض تسلم راتبه من الأمناء ، كما رفض دفع مصاريف بهائم المخزن. ولما اشتكى الأمناء والأشياخ للسلطان ، أمرهم بإرسال راتب القائد إلى المخزن ، ودفع مصاريف بهائم المخزن حسب "الديوان القديم" !(27)

واتهم أمناء زناتة القائد بالخروج عن ضابط الترتيب وفرض الفروض الزائدة والمجحفة على القبيلة دون أن يلقي بالا لرأي الأمناء (28) بدعوى ضرورة تنفيذ أمر سلطاني بالاستعداد للحركة !

وحدث الأمر نفسه في قبائل أخرى ، في نواحي فاس والغرب ودكالة ... الخ. وسرعان ما اشتد الصراع بين القياد والأمناء والأشياخ ، ومن خلال الاتهامات المتبادلة يظهر لنا أن الترتيب الحسني لم يطبق بكيفية تامة ، وأن الناس أصبحوا عرضة لعواقب تطاحن أمناء القبائل وأشياخها من جهة والعمال من جهة أخرى(29).

فبأحواز فاس عرفت أحوال بعض القبائل تدهورا خطيرا من الناحية الأمنية حوالي 1888 . ولما حاول السلطان معرفة الواقع ، كتب إليه أمناء وأشياخ قبائل الحياينة يصفون الحالة قائلين : إن السبب في انتشار الفساد بالقبيلة وعدم الانقياد هو " تعطيل الحدود والأحكام وعدم الحزم والاهتمام والتراخي من الوالي العام. فإن عاملنا السيد العربي بن أب محمد حمدت سيرته عندنا اللصوص ... لم ينصف في علمنا قط مظلوما فهو أصل الفساد

وسببه وجنده الأعظم ومدده ... فانتشر الفساد أي انتشار ومد يد إذايته إلى الضعيف والجار، وصار أمرنا في الرعية عن السماع قاصر والمظلوم ماله قوة ولا ناصر... وصارت العامة لاتلتفت لأقوالنا ولا يهولها ماتسمع من اوامرنا "(30).

هذه اتهامات خطيرة ، وجهها الأمناء والأشياخ لعامل الحياينة ومنها تتبين العواقب الاجتماعية الخطيرة التي سادت بعض القبائل. ويبقى التساؤل مشروعا : إذا كان القائد في هذه الوثيقة متهما ؛ فهل كان الأمناء والأشياخ صالحين ؟ وإذا لماذا لا تسمع العامة لأقوالهم ولاتتبع أوامرهم ؟

الواقع أن أحوال المجتمع المغربي ، كانت تتطور إلى الأسوء وبوتائر سريعة في نهاية القرن الماضي. وقد ساعدتنا دراسة علاقة القياد بمساعديهم من الأشياخ والأمناء ، على إبراز جانب من تدهور الأوضاع الإدارية بالبوادي وكشف عوامل ذلك التدهور.

فبالغرب كان الصراع على أشده بين القياد والأمناء والأشياخ. وطالما تبادل الطرفان الاتهامات لدى السلطان. فهذا القائد عبد الكبير الثوري الصفاعي ، يشتكي للسلطان من أمناء قبيلته قائلا :" وهذا كله يصدر من أمين إخواننا بني ثور وشيخهم وهما الذين يخوضوا علي غيرهم من أمناء القبيلة . والأقارب في زماننا كالعقارب"(31).

واتهم أمناء وأشياخ سفيان القائد بوبكر الحباسي بتولية شيخ جائر ، فرد القائد التهمة ، واتهم الأمناء والأشياخ برغبتهم في عزل شيخ من منصبه الذي كان فيه منذ قيادة أبيه. فلم يساعدهم على رغبتهم ، لأن أمر "العزل والتولية ليس من وظيفتهم فقلبوا الحقيقة "(32).

كما اتهم عامل العرائش ، أحمد بن التهامي العرائشي ، الأمناء والأشياخ بالتعرض على أقاربهم ، فلما أمر القبيلة بتعويض بهائم المخزن "امتنع أقارب الأمناء والأشياخ من إعطاء ما نابهم "(33). واشتكى بعض الأمناء والأشياخ من قبيلة عودة بالغرب ، من تعسفات شيخ يعمل على إدخال الناس في الحماية:" فهلك الكثير منهم ، والباقي بعضه أدخله لحماية الكفار والبعض الآخر فر في القبائل"(34). وفي قبيلة بني مالك ، اشتكى قاضي القبيلة من اتهامات أمين وشيخ ، وتطاولهما عليه، ومما جاء في رسالته للسلطان :" وإن كتب لنا فيغلظ في القول ، ويتهدد علينا ، مع أننا قضاة سيدنا المنصور بالله لا قضاة الأمناء والأشياخ. والعدول نظرهم للقاضي لا إليهم "(35).

إن هذه الأمثلة المعبرة ، تبرز حدود تدخلات الأمناء والأشياخ كما توضح أن الصراع كان محتدا داخل هيكل الإدارة الجهوية، التي عمل ترتيب 1884 على إصلاحها . ويتضح ـ كذلك ـ أن وظيفة الأمناء والأشياخ أصبحت تتداخل مع وظيفة القياد. وتتعدى حدودها إلى التداخل في شؤون أخرى. وقد تتعدى رعاية مصالح القبيلة إلى محاولة استغلال الوظيفة للمصلحة الخاصة، كما هو حال الأمناء والأشياخ الذين ربطوا علاقات مع التجار الأجانب أو تواطأوا مع قياد مجاورين ضد قياد قبائلهم (36).

أين انتهى صراع الأمناء والأشياخ مع القياد؟ الواقع أن المخزن كان يريد الإصلاح حقيقة. لكن وسائله المحدودة، وبنيته التقليدية لم تساعده على السير بإصلاحاته الإدارية في البوادي إلى النتيجة المرجوة. من خلال مستندات المخزن ، تبين لنا أن السلطة

المركزية ، كانت تميل إلى تأييد وجهة نظر العمال، دون التصريح بتجريم الأمناء والأشياخ أو عزلهم وهذا ما زاد في التطاحن بين الأطراف.

في سنة 1310هـ انتفضت قبيلة أولاد بوزيري بالشاوية ضد القائد المعطي بن عبد الكبير المزامزي ، وهو قائد قبيلة مجاورة. فأمر السلطان قياد قبائل مجاورة لأولاد بوزيري بمساعدة القائد على إخضاع القبيلة المنتفضة. وكتب أحد القياد مخبرا السلطان بالنتيجة وملقيا بالمسؤولية على الأشياخ والأمناء :" وسبب فسادهم وعتوهم وانحرافهم عن الجادة الأمناء والأشياخ. وحين رجعوا من حضرة سيدنا خائبين انكسرت شوكتهم ... وأذعنوا للخدمة مع عاملهم . وخليفته ولده عبد السلام ، يطوف عليهم مع أصحابه بالمبايت بعشرين ريال لكل ليلة"(37).

هكذا تكون نتيجة رفض قبيلة ، لتعسفات قائد أجنبي عنها ، هو إخضاع هذه القبيلة لإرادته - ويظهر أن الأمناء والأشياخ قد عارضوا سيرة القائد وذهبوا للسلطان يشتكون منه. لكن السلطان لم يعمل بمشورتهم وساعد القائد على تمتين سلطته.

والطريف في القضية ، أن القائد بعد أن أخضع القبيلة بمساعدة القواد المجاورين ، ترك الحرية لولده وخليفته ليفرض الفرائض ، ويجبي الأموال كل ليلة؛وهو أمر يتعارض مع الترتيب تعارضا واضحا !

ينتج إذن ، أن الصراع في الهيكل الإداري المحلي الذي حاول السلطان إصلاحه ، قد عرض السكان لمزيد من التعسف والاستغلال. الأمر الذي يبين بأن الإصلاح لم يكن شاملا. وبأن الاضطراب بالبوادي ، قد زاد كعاقبة محتومة لصراع عناصر الإدارة المحلية الموسعة . وكل ذلك كان يسهل مهمة التدخل الأجنبي .

وتتأكد هذه الرؤية ، عندما نعلم أن كفة القياد ظلت هي الراجحة ، بالرغم من استمرار وظيفة الأمناء والأشياخ ، الذين أخذوا يبحثون لهم عن سند لمواقفهم - فربطوا - نتيجة لذلك ، علاقات مع التجار الأجانب - كما رأينا - ومع قواد مجاورين أو مع موظفين كبار داخل السلطة المركزية (38).

لقد تمكن كثير من القواد ، من إبعاد منافسيهم من الأشياخ والأمناء إلى السجون (39) ويبدو ان عهد صدارة أحمد بن موسى البخاري (أبا أحمد) (40) وزير مولاي عبد العزيز (1894 - 1908) قد عرف تراجعا عن تطبيق إصلاح مولاي الحسن فيما يتعلق بالجباية. فقد أخضع أحمد بن موسى القياد لإرادته الحديدية وأصبحوا مطالبين بجمع الأموال لخزائن الدولة، فأخضعوا القبائل بدورهم للاستغلال والابتزاز. وفي هذه الظرفية التي عرفت تزايد حاجة المخزن للأموال كنتيجة للتدخل الأجنبي ، والتعويضات التي كان المخزن يدفعها للأجانب في هذه الظرفية - تمكن كثير من القياد من التخلص من منافسيهم من الأشياخ. فعلى سبيل المثال توسط القائد الشهير عيسى بن عمر العبدي ، وكان مقربا من ابا أحمد ، للقائد أحمد بن سالم الذي طلب سجن الشيخ أحمد بن الطاهر العلوي مقابل أداء "ثلاثة آلاف ريال ". فقبل أحمد بن موسى وكتب في جوابه :"فساعد أعزه الله على ذلك وأصدر أمره بالقبض عليه (الشيخ) وتوجيهه لسجن أزمور (41).

خاتمة :

حاول السلطان مولاي الحسن ، بإصلاحه الجبائي ، معالجة بعض الأدواء التي تفاقمت في النصف الثاني من القرن الماضي بالبوادي . وكان السلطان يرمي من وراء ذلك إلى تحقيق عدة أهداف :

*حصر التدخل الأجنبي ، بمظاهره الاستغلالية، وبتأثيره السياسي السلبي .

* مراقبة الإدارة المحلية ، ورفع كفاءتها الجبائية. وكف العمال عن الاستحواذ على جانب من المداخيل. وصولا إلى تحقيق انتظام في مداخيل الجباية بالقبائل . وهي المداخيل التي بقيت محررة من تداخل الأجانب الذين حصلوا على امتياز تحديد الرسوم الجمركية في 10%منذ سنة 1856.

* الإبقاء على تماسك المجتمع المغربي بالمحافظة على تقاليده ومحاسنه الاجتماعية على مستوى القبائل.

وإذا تحققت بعض هذه الأهداف ، خاصة ما تعلق منها باتساع وتكثيف حضور المركز ومراقبته لما يجري في الأطراف. فإن الهدف الأسمى وهو التخفيف على الرعية لم يتحقق.

ثم إن ظهور فئة الأشياخ والأمناء المعينين رسميا ، وتوصلها إلى استغلال سلطتها في مراكمة الأموال ، قد أدى إلى صراع مفتوح مع القياد، كان ضحيته في غالب الأحوال عامة الناس. وإذا كانت عوامل فشل الإصلاح الحسني ، تظهر لأول وهلة داخلية بنيوية. فالذي لايجب أن يعزب عن البال هو أن التدخل الأجنبي بما صحبه من استغلال رأسمالي ، وابتزاز للأموال في شكل تعويضات ، وصراع النفوذ بين الدول الأوربية . كل ذلك ساهم في أزمة الدولة المغربية وانتهى إلى تفكيك هياكلها.

ولقد جاءت العواقب الاجتماعية والسياسية كارثية ! فبعد اختفاء السلطان مولاي الحسن ، وخاصة بعد اختفاء قبضة أحمد بن موسى الذي كان عهده استمرارا للعهد السابق وقع الانفجار الاجتماعي في شكل انتفاضات عامة صفت خلالها الجماهير الحساب مع القياد ومعاونيهم. وانتهز الاستعمار الفرصة، فكثف من تدخله الدبلوماسي والعسكري والمالي حتى تمكن من فرض هيمنته في النهاية.

الهـــــــوامـــش :

1) ـ للتوسع في دراسة جهاز الأمانة عامة تراجع : نعيمة التوزاني ، الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن 1873-1894) ، 1979.

2) ـ لاداعي إلى التذكير بأن كثيرا من العمال والقياد جاءوا للسلطة بالقبائل عن طريق رتبة الشياخة هذه .

3) ـ قارن ما ذكره مشيو بللير في: Micheaux Bellaire, Une tentative de restauration IDRISSIDE, Revue du Maroc Musulman , 1908 , n° 7 , p : 398.

4) ـ هذه الرتبة وصل إليها الشيخ علي بن حمو الزعري. إذ ورد اسمه ضمن قواد زعير الذين منحهم المخزن كساوي وذكر اسمه هكذا : " القائد ، الشيخ امتاع الربيع (أي شيخ الربيع) الشيخ علي بن حمو الغانمي ". رسالة مؤرخة ب 10 جمادى الثانية 1326 ، وثائق الخزانة الحسنية بالرباط.

5) ـ عين أمناء في الشياظمة منذ 1879 ، وفي حاحة منذ 1881.

6) ـ ظهائر علوية . مكروفيلم الخزانة العامة رقم 23.

7) ـ نعيمة هراج التوزاني : الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن (1873 - 1894) ،1979 ، ص :309.

8) ـ قارن الوثيقتين أعلاه .

9) ـ التوزاني ،

10) ـ الرسالة مؤرخة ب 24جمادى الثانية 1312 الموافق 23 دجنبر 1894 ، وثائق الخزانة الحسنية محفظة 15/401 .

11) ـ قارن نعيمة التوزاني : الأمناء بالمغرب ، ص :66 .

12) ـ معظم قواد الحوز والسهول الساحلية كعبدة ودكالة والشاوية والغرب ، كانوا يوقعون مراسلاتهم . وكذلك بعض القواد الكبار في مناطق أخرى. في حين كانت تصنع طوابع لقواد ، لم يكن نفوذهم يتعدى بعض الفرق أو القبائل الصغرى ، مثل قواد زمور، زعير وأمثالهم.

13) ـ قارن الرسالة المشار إليها في هامش 10 مع ملاحظة أن معظم الأمناء والأشياخ كانوا يختارون من بين الأعيان الموصوفين بالعنف.

14) ـ السلطان مولاي الحسن لأحمد بن العربي المديوني ،18 صفر 1302 / 7 دجنبر 1884. نعيمة التوزاني ، الأمناء ص :51.

15) ـ السلطان للقائد ، 1 ربيع الثاني 1302 / 18 يناير 1885. قارن ، الأمناء ، 51 - 52.

16) ـ الرسالة مؤرخة : 3 ربيع الأول 1302 الموافق 21 دجنبر 1884. التوزاني ، الأمناء ، 52.

17) ـ مد جمع أمداد ، مكيال للحبوب كان يستخدم في البوادي المغربية والمدن بكيفية واسعة. لكن مقدار المد كان يختلف من مدينة لأخرى ، وحتى داخل بعض القبائل .فالمد الفاسي مثلا يختلف مكياله عن المد المكناسي ، وكلاهما يختلفان عن المد العرائشي، أو المد البيضاوي أو المد الشاوي ...الخ أما في مدينة مراكش وإقليم الحوز فالمكيال المستعمل كان هو الخروبة ،كما كانت الفنيكة وهي مكيال إسباني كثيرا مايكيل بها التجار في الموانيء ...

عن أصول المد كمكيال إسلامي ، وكمكيال مغربي يراجع :.E. ASHTOR, Makayil, Encyclopedie de L'Islam -

محمد اللحية : وثيقة عن بعض المكاييل والموازين بالعواصم المغربية في القرن XIX ، مجلة دراسات ، العدد الأول ، ص:67.

P. Pascon , Description des Mudd et SÂ maghribins, Hesp - TA- XVI.1975. PP.25-87.

- Nicolas Michel , Poids et mesures de l'Agriculture et de l'alimentation dans le Maroc Précolonial , Hesp , T. Vol XXXI , 1993, pp : 77 - 100.

18) ـ ظهير تعيين أمناء وأشياخ فرقة موالين الغابة من قبيلة الزيايدة ،"ظهائر سعدية وعلوية" مكروفيلم 23 ، الخزانة العامة بالرباط .

19) ـ المخالطة : تعني المشاركة في الميدان الفلاحي ، فقد تعاطى التجار الأوربيون للمخالطات مع المغاربة في البوادي القريبة من المدن. حيث كان التاجر الأجنبي يشترك مع الفلاح المغربي في ملكية قطيع من الماشية. قد يدفع التاجر ثمنه، أو يشتريه للفلاح. وكثيرا ما كانت المخالطة تنشأ نتيجة لرغبة الفلاح في الحصول على دين أو في الحصول على حماية التاجر الأجنبي ، ومقابل تلك الحماية يصبح التاجر مشاركا للفلاح في قطيع من الغنم أو البقر ، أو في ملكية أزواج من البهائم في الحرث والزراعة. وهكذا أصبحت المخالطة قاعدة ثابتة للتدخل الأوربي بالمغرب خلال القرن التاسع عشر. عن عواقب المخالطة والحماية قارن : علال الخديمي ، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب 1894 - 1910.حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية . افريقيا الشرق، الطبعة الثانية ،1994 ، ص : 157 ومايليها.

20) ـ الظهير نفسه . أما الشروط المنعقدة بين الأجناس ، فتعفى الاتفاقيات التي عقدها المغرب مع الدول الأوربية وتعرضت لمسألة الحماية مثل : اتفاقية مؤتمر مدريد 1880 ، واتفاقية السماسرة مع فرنسا (1863) خاصة .

21) ـ كان من المعتاد أن يقدم كل قائد هدية قبيلته أو مدينته خلال عيدي الفطر والأضحى ـ وكانت الهدية محددة مسبقا فمثلا كانت كل قبيلة كبيرة من قبائل الشاوية أو دكالة أو الغرب أو غيرها تؤدي 200 ريال أو 4 أفراس عند حلول كل عيد ، وكانت الهدية يقدمها وفد يزور السلطان بالمناسبة .

22) ـ السخارى مفردها سخرة ، وهي أجرة تؤدى للشخص الذي يرسله المخزن إلى جهة معينة للقيام بمهمة مخزنية ، فكان على الذين أرسل إليهم أداء سخرته أي أجرته عن الأيام التي قضاها بينهم زيادة على مؤونته.

23) ـ ظهير تعيين أمناء وأشياخ الزيايدة.

24) ـ يجب أن نلاحظ أن عواقب تحمل الديون من الأجانب لم تكن تضر بالمستدين فقط . بل كانت تنتهي به إلى الانفلات من الخضوع للمخزن والوقوع في حبائل الاستقلال الرأسمالي الأجنبي . وقد ينتهي به الأمر إلى التعلق بالحماية الأجنبية ، وفي هذا ما فيه من أضرارخاصة وعامة.

25) ـ إن توزيع الجبايات والتكاليف المخزنية على أساس "الديوان" ، أي على أساس تقسيمات محددة كان يخضع لها القواد في جمع الجبايات والتكاليف ، كانت تثير كثيرا من الصراع والتنافس ، بين قياد القبائل المتجاورة ، أو بين قياد القبائل والمدن المجاورة. كما كانت تثقل على قبائل نقص سكانها ... عن المسألة يراجع :

علال الخديمي : التدخل الأجنبي والمقاومة ، ص : 118 - 120.

26) ـ مراسلات عديدة تتهم القياد بتعطيل الأحكام ، وعدم التعاون مع الأمناء والأشياخ.

27) ـ رسالة جوابية من السلطان إلى الأمناء والأشياخ . 18 حجة 1302 الموافق 28 شتنبر1885 ، كناش الخزانة الحسنية 364. ومما جاء في شكوى الأمناء والأشياخ "والكون على بال مما يبديه العامل في جانبكم من قلب الحقائق ".

28) ـ رسالة مؤرخة ب 18 رجب1304 الموافق 13 أبريل1887. قارن نعيمة التوزاني ، الأمناء ، 289.

29) ـ رسائل عديدة نتوفر على نسخ منها . زد على ذلك أن الترتيب لم يطبق في قبائل عديدة إما لبعدها أو لصعوبة تنظيم جهاز الأمانة بها نظرا لعدم سيطرة قيادها عليها بالكامل أو لعدم نفوذ أمر المخزن فيها باستمرار .

30) ـ رسالة مطولة عليها طوابع اثنين وعشرين (22) أمينا وشيخا من أمنــاء وأشيــاخ الحيايــنة، مؤرخة ب 9 ربيــع الأول 1306 الموافــق13 نونبر1888. وثائق الخزانة الحسنية .

31) ـ رسالة مؤرخة 24 جمدى الثانية 1302 / 10 أبريل 1885.وفيها يشرح القائد الاتهامات الباطلة الـتي ينسبها إليـه أشياخ وأمناء قبيلته .

32) ـ بوبكر الجباس للسلطان ،7 رمضان 1310 .و خ ح

33) ـ رسالة موجهة للسلطان بتاريخ 10رمضان 1310.و خ ح

(34) ـ رسالة إلى السلطان بتاريخ 12 رمضان 1310 .و خ ح

35) ـ الرسالة بتاريخ 3 جمدى الثانية 1310.

36) ـ وقع صراع حاد بين القائد عبد الكبير المزامزي الشاوي وبين عدد من الأشياخ اتهمهم ، باللجوء لحماية التجار الأجــانب بعد أن تقاعدوا على أموال المخزن. عن المسألة راجع :

علال الخديمي : عواقب التدخل الأجنبي بالشاوية ، مجلة كلية الآداب بالرباط ، عدد11. ص :

في 1312 / 1894 - 1895 ، أيد عامل الجديدة محمد بن يحي الجديدي وجهة نظر أمناء وأشياخ أولاد فرج ضد عاملهم العربـي الفرجي ـ وقد انتهى الصراع إلى عزل القائد وتولية أحد الأشياخ وهو بوعلي بن ادريس مكانه قائدا على أولاد فرج.

37) ـ الرسالة مؤرخة ب 3 جمادى الثانية 1310 الموافق 23 دجنبر 1892 وخ ح.

38) ـ كان السلطان يأمر بـالبحث في الاتهامـات المتبادلـة بـين الأشـياخ والأمنـاء والقـواد،فيؤيـد قـواد بحـاورين مواقـف الأمنـاء والأشياخ .

39) ـ عدة رسائل نتوفر على نسخ منها ، تبين تعرض أمناء وأشياخ للسجن من طرف قوادهم خاصة في الغرب.

40) ـ تولى الصدارة بعد أن دبر بيعة مولاي عبد العزيز وكان من أصغر إخوته بعد وفاة مولاي الحسن صيف 1894. تـوفي أبـا أحمد في صيف1900.

41) ـ 9رمضان 1314 الموافق 11 فبراير 1897 وخ ح.

البنيات الإدارية في أحواز مكناس الجنوبية
نموذج : قبيلة بني مطير (1911-1939)

ذ.بوشتى بوعسرية *

تعتبر قبيلة بني مطير أقوى قبائل أحواز مدينة مكناس وأعتاها ، سواء من حيث عدد أفرادها أو الأراضي التي استوطنتها أو الأدوار السياسية التي أطلعت بها خاصة خلال العقد الأول الذي سبق عقد الحماية الفرنسية المغربية (30مارس 1912) بحكم مجاورتها لمدينتين سلطانيتين كانتا في وقت ما مركز القرارات التي حكمت سير أمور البلاد ، والمقصود فاس ومكناس ، وقد فرضت هذه الوضعية على المخزن نهج سبل شتى لضبط سير الشؤون اليومية لأهالي القبيلة ، وهذا لايعني خضوعها المطلق له ، بل يمكن الجزم بالعكس من ذلك في العديد من الأحيان التي لم تنلها فيها الأحكام السلطانية .

وبعد احتلال القوات العسكرية الفرنسية لمدينة مكناس سنة 1911وتوغلها في أراضي بني مطير وإحكام سيطرتها على القبيلة فرضت عليها نظاما إداريا وعسكريا لضبط تحركاتها ، مع الاحتفاظ بالترتيبات القديمة في هذا المجال التي صارت خاضعة نهائيا للقيادة العسكرية العامة بمكناس، وكان على رأس الهرم "الإداري" القواد الذين شلت حركاتهم التمردية السابقة على المخزن وأصبحوا تابعين بشكل مطلق للإدارة الفرنسية في كل من الحاجب ومكناس والرباط ، وتحت المراقبة الشديدة لرؤساء الحاميات العسكرية في كل من قصبة الحاجب وقصبة أكوراي ومركز يفرن ، فضلا عن باقي المراكز الأخرى المنتشرة على طول أراضي بني مطير وعرضها مزيدا في أحكام السيطرة الفرنسية على القبيلة .

أصل قبيلة بني مطير واستيطانها في أحواز مكناس:

قال التقي العلوي في دراسة له حول أصول المغاربة القسم البربري الخاص باتحادية أيت ادراسن:"...بنو مطير هي الصيغة العربية لأيت نضير البربرية وهي عبارة عن اتحادية صغرى أو قبيلة كبرى تشتمل على عدة فرق مختلفة الفصول وأغلبيتهم من صنهاجة الجنوب، كانوا في بداية عصر العلويين في طليعة جماعة أيت ادارسن ..."(1) وأصول القبيلة متعددة ، فيرجع أصل بعض فرقها أو فخداتها إلى اتحادية أيت عطا مثل أيتوالال وأيت نعمان وأيت لحسن أو يوسف وأيت حرز الله ، في حين تنحدر فرق أخرى من أيت يافلمان كما هو شأن أيت أوفلا، بينما ترجع جذور بعضها إلى أيت سغروشن مثل أيت ورتندي أو من الواحات كأيت لحسن أو شعايب، بينما جاءت فرقة أيت سليمان من ناحية تونفيت وأيت بوبيدمان من بلاد دكالة(2). وكانت قبائل اتحادية أيت

* أستاذ باحث بكلية الآداب ـ مكناس.

ادراسن تسكن مجال فازاز (جبال الأطلس المتوسط) المحدود جنوبا بنهر ملوية وشمالا بالخط الرابط بين أزرو وجبل العياشي(3) .

وهكذا كونت بني مطير خلال القرن السابع عشر (XVII) مع مجموعة من القبائل الأخرى وهي : مجاط وأيت سادن وآيت أوفلا وأيت يمور وسلوان ، اتحادية وأيت ادراسن واستقرت قبيلة بني مطير مدة طويلة ما بين كيكو وتيكريكرة فبنت عدة قصور بهذه المنطقة وأهمها اعليل وتاعليلت(4).

ولم يدم تسيب الاتحادية المذكورة ومنها قبيلة بني مطير ـ طويلا إذ سرعان ما استسلمت للمولى إسماعيل (1672-1727) سنة 1686 فجرد سكانها من سلاحهم وخيولهم وعوض لهم ذلك ب : 50000 رأس من الأغنام لرعيها لحساب المخزن العلوي وبذلك فقدت بني مطير استقلالها ودخلت تحت حكم قائد أيت ادراسن موح واعزيز التابع بدوره للمولى إسماعيل.

وعند تولية سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) صارت القبيلة في عداد الكيش وسجلت في الديوان المخصص لهذه القبائل ، فنقلها إلى أحواز مكناس (5) ،بينما تذكر بعض الدراسات أن بني مطير لم تستقر في أماكنها الحالية سوس سنة 1820 (6).

وهكذا استقرت أغلب فرق قبيلة بني مطير جنوب شرق مدينة مكناس بسهل سايس الممتد مابين فاس ومكناس ، في الوقت الذي بقيت فيه بعض الفرق فوق الهضبة الكلسية غرب الأطلس المتوسط.

تنظيم الجهاز « القايدلي » La caîdalité قبيل 1911:

لم تكن علاقات قبيلة بني مطير مع المخزن طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر (XIX)علاقة وئام دائم ، إذ غالبا ما تكدرت أواصرها بسبب سوء معاملة المسؤولين لها ، لكن العداوة المطلقة لاتلبث أن تزول وتعود المياه إلى مجاريها الطبيعية ولو بالإكراه الذي مارسه السلاطين على المطيريين ، مما جعلهم يبايعون بعضهم كما حصل مع مولاي الحسن (1873-1894)(7).

وكانت قبيلة بني مطير خاضعة لثلاث قيادات عند وفاة السلطان المذكور ، إذ حكم القائد اليزيد على فرقة أيت نعمان ، في حين تولى القائد بوعزة أوسعيد مهمة تسيير شؤون أيت بوبيدمان وأيت حماد ، بينما خضعت فرق آيت بورزوين وايقدارن وآيت لحسن آوشعيب وآيت سليمان للقائد حمو أولحسن (8) .والملاحظ أن سلطة هؤلاء القواد لم تكن متكافئة على الفرق المطيرية ، فتخضع أغلبها للقائد الأخير ، وتتوزع جغرافيا بين شمال مرابع القبيلة وجنوبها مما جعله يسيطر على أغلب أراضيها ، ويظهر من هذا التقسيم عدم ذكر بعض الفرق المطيرية ذات الشهرة الواسعة ، والمقصود فرقة آيت حرز الله شمالا وفرقة آيت ورتندي جنوبا.

واحتفظ القائد حمو أولحسن سنة 1909 بسلطنته على جل الفرق المطيرية ، حين ظهر قواد جدد أقل شأنا منه ويتعلق الأمر ببوكرين الأعرج والبوعزاوي (9) لكن الإضرابات التي شهدتها بلاد بني مطير في هذه السنة بسبب سوء العلاقة بين المطيريين والمخزن الحفيظي لم تسمح بضبط توزيع الفرق على قواد معينين فعادت القبيلة إلى سابق

عهدها من التسيب والخروج عن الأحكام السلطانية ، وظهر زعماء وقواد مهمتهم السياسية هي جمع أقصى ما يمكن من الفرق وتجييشها لمقاتلة القوات المخزنية التي كان على رأسها ضباط أجانب ، وعرف هؤلاء بقواد الحروب ويسمون أمغار نتوقة ومعناه شيخ الربيع ، وأشهرهم على الإطلاق في تلك السنة عق البوبيدماني (10) وبوزومة لغواطي . وكانت الأراضي التي تستغلها قبيلة بني مطير تقدر مساحتها ب 1,500 كلم متفرقة مابين السهول والجبال صالحة للزراعة والرعي معا ، وتلائم طبيعة النشاط الذي يمارسه السكان سواء في المنخفضات أو المرتفعات مع ما لهذا التفاوت الطبيعي من أهمية لصالح المستقرين وهم أقلية أو الرحل وإن كان الطابع العام الذي يميز هؤلاء السكان هو أنهم نصف رحل يقومون بعملية الانتجاع داخل المحاط الجغرافي للقبيلة الذي يحد شمالا بالطريق الرابط بين فاس ومكناس ، وجنوبا وسط الهضبة الكلسية للأطلس المتوسط الغربي عند سيدي عيسى الفارس شمال دار القايد عمر ولد يطو ، وشرقا بوادي نـجاوعين بلوز وهضاب الربيعة ويفرن ، وغربا بأراضي جروان ما بين مكناس وأكوراي (11)، كما تجاور قبيلة بني مطير مجموعة من القبائل ومنها مجاط بالشمال الغربي ، وجروان بالغرب وعرب سايس بالشمال ، وأيت يوسي بالشرق وأخيرا بني مكيلد بالجنوب .

ويمكن تقسيم بلاد بني مطير إلى قسمين رئيسيين ، الأول شمالي والثاني جنوبي ، يفصلهما الخط الرابط بين عين بلوز والحاجب وأكوراي وتعتبر الأراضي الشمالية سهلية امتدادا لسايس، في حين الهضاب الجنوبية الكلسية جزءا من الأطلس المتوسط ترتفع عند الحاجب بما يزيد عن 1000م ويصل هذا الارتفاع في يفرن إلى 1800م(12).

إن اختلاف طبيعة أراضي بني مطير ساعد على ممارسة النشاط الفلاحي في أرقى معالمه سواء تعلق الأمر بتربية الماشية وما يصحبها من تنقل بين الهضاب والسهول أو داخل هذه الأخيرة ، أو بالزراعة وما تتطلبه من استقرار ، وهذا التقسيم لايعني التخصص الضيق بين الفرق المطيرية ، إذ كثيرا ما يمارس بعضها الفلاحة بشقيها الحيواني والنباتي والملاحظ أن تنقل المطيريين من منطقة لأخرى خاضع لنواميس وأعراف متعارف عليها تحددها جهات مختصة، وفي إطار لاتتعدى مساحته 15كلم ، علما أن بعض الفرق لاتبارح أماكنها نهائيا كما هو حال آيت والال بالسهل والجبلية كآيت بورزوين وايقادرن وآيت حماد التي ظلت مرتبطة بمناطقها طيلة السنة تقريبا نظرا لملاءمة الظروف الطبيعية لتربية الماشية(13) .

وما يميز أراضي بني مطير سهلها وجبلها ـ كثرة مياهها وجريان أوديتها خاصة بالسهل وأهمها المهدومة وبوفكران والجديدة وبوكناو والدفالي ... هذا فضلا عن كثرة عيونها وخصوبة تربتها، مما كان له انعكاس إيجابي على السكان وخاصة منهم الأعيان والقواد الذين كانوا يديرون شؤون القبيلة .

الاحتلال الفرنسي "والإدارة" الأهلية في بلاد بني مطير(1911-1939):

بعد احتلال القوات الفرنسية لمدينة مكناس يوم الخميس 8 يونيه 1911 وطرد المطيريين منها بزعامة عق البوبدماني واعتقال سلطانها مولاي الزين المنافس لأخيه مولاي عبد الحفيظ القابع داخل أسوار فاس(14)، تابعت هذه القوات سيرها جنوب المدينة

مقتفية أثر فلول البربر ، فتمكنت من الوصول إلى قصبة الحاجب يوم 28 يونيه 1911 بغية القضاء على المقاومة المطيرية وإخضاع القبيلة لأحكامها عسكريا ومدنيا ، وتم تحقيق هذا الهدف في ظرف سنتين (1911-1913) وبسطت سيطرتها على باقي الخيام المتمردة التي نصبت عليها قوادا استسلموا بسرعة للقوات الفرنسية ابتداء من سنة 1912، واستمروا في مناصبهم لمدة تزيد عن ربع قرن .

1 – البنيات الإدارية الأهلية (1911-1920) : ظل زعماء التمرد على القوات الفرنسية في أراضي بني مطير يواصلون مقاومتهم لها رغم انتشار هذه القوات بشكل مكثف على هذه الأراضي واتخاذ قصبة الحاجب مركزا لقيادتها ، وكان أبرز المتمردين عق البوبيدماني وحمو أو لحسن البورزويني وبوكرين(15) وحدو امهموشة ، وأقواهم شكيمة عق البوبيدماني الذي راجت إشاعات خلال شهر يوليوز 1911 حول استسلامه للقبطان لوكلي Le Glay قائد المكلفين بالسهر على تدريب القوات الشريفية بالحاجب وإرساله إلى مكناس، لكنه أثناء الطريق فر والتحق بأراضي بني مكيلد(16).

وكان القائد إدريس أورحو قد انضم إلى الفرنسيين سنة 1912 ضدا على إخوانه في القبيلة ، فقام بدور فعال لإقناع الفرق المطيرية المتمردة لاقتفاء أثره والارتماء في أحضان الفرنسيين ، فنصب بعد ذلك قائدا على ست فرق في حين استسلم شيخ الربيع السابق حد وانهموشة للقوات المرابطة في مركز يفرن بتاريخ25 مارس1913 وبذلك لم يعد سوى عق البوبيدماني في حالة تمرد وهكذا كانت قبيلة بني مطير سنة 1913 تتكون من أكثر من 1,700 خيمة مازال منها 800 في حالة عصيان بينما 450 خيمة تحت حكم إدريس أورحو المقيم في بوسمسل ، و470 خيمة خاضعة للقائد الجيلالي نعلة في قصبة عروب ، في الوقت نفسه كان القائد ميمون اختار على رأس بعض الخيام لا غير ، وكلما تمكنت القوات الفرنسية من السيطرة على أراضي مطيرية جديدة وإخضاع خيمها كلما ضبطت إدارتها وقسمتها مابين القواد التابعين لها، وهكذا كانت خريطة توزيع فرق القبيلة سنة 1915 على النحو التالي : كان القائد الجيلالي نعلة تابعا لمركز استعلامات يفرن ويرأس مايقرب من نصف سكان بني مطير الذين بلغ عددهم الإجمالي 18,099 نسمة وأما الفرق الخاضعة له فهي : آيت بوبيدمان وآيت سليمان وآيت والال وآيت لحسن أوشعيب وآيت حرز الله وآيت لحسن اويوسف وآيت أوفلا ، أي الفرق الشمالية التي بلغ عدد سكانها 8,479 نسمة ، يمثلون1,542خيمة.

وحكم القائد إدريس أورحو الذي وضع تحت امرة مكتب استعلامات الحاجب على الفرق التالية ايقادرت وأيت بوزروين وأيت نعمان بالجنوب وعدد سكانها 5,916نسمة داخل 1101 خيمة.

وتولى القائد ميمون اختار التابع لمركز أكوراي تدبير شؤون فرق الجنوب الشرقي من أراضي بني مطير وهي : أيت سيدي عبد السلام وأيت ورتندي وأيت حماد وأيت حند أوحسين وأيت والال البالغ عدد سكانها 3,700نسمة وخيامها 563 (17).

ويظهر جليا أن حكم القائد الجيلالي نعلة هو الأكثر أهمية وقوة مما جعل المسؤولين الفرنسيين يعملون على توازن قوة القواد فأسندوا جزءا من قيادة نعلة إلى القائد اختار

ويتعلق الأمر ببعض الخيام من فرق أيت نعمان وأيت حماد وأيت والال وأيت بوبيدمان إضافة إلى زاوية الشرفاء الركراكيين(18).

وكان القائد الجيلالي نعلة البوبيدماني قد تولى قيادة الفرق المذكورة منذ سنة 1911 ـ واستمر حكمه لها لغاية 1919 ـ وبقي متمردا إلى بداية عام 1913 حين استسلم للقوات الفرنسية التي أقرته في منصبه في حين لم يكن إدريس أورحو يحكم سوى على إيقادرن وأيت بورزوين (19) وأضيفت له فرقة أيت نعمان في نفس السنة المذكورة.

وخلف القائد عق حمادي سنة 1916 القائد ميمون اختار على رأس الفرق المطيرية التي كانت لنظر هذا الأخير ، ولم يمض على تعيينه سوى سنة ونصف تقريبا حتى تولى القيادة ابنه محند أورحو في شهر يوليوز 1918 وعمره 24 سنة فصادفته عدة مصاعب لم تمكنه من مزاولة مهامه بصورة عادية نظرا لصغر سنه وقلة تجربته السياسية والإدارية ، فقر رأي الجنرال بويميرو Poeymirau (8 نونبر 1869 ـ 22 فبراير 1924) الحاكم العسكري العام لمكناس وإقليمها، بعد استشارة الجنرال ليوطي Lyautey المقيم العام بالمغرب إعفاء هذا القائد بطلب منه في شهر ماي1920(20) ، وضم الفرق التي كان يحكمها إلى كل من القائد إدريس أورحو وهي : أيت حماد وأيت ورتندي وشرفاء أيت السبع وأيت سيدي عبد السلام ، وألحقت باقي الفرق بقيادة حدو انهموشة(21) وهي : أيت والال وشرفاء ركراكة.

ومعلوم أن انهموشة خلف القائد الجيلالي نعلة في هذا المنصب سنة 1919 ، واستمر في مزاولة مهمته إلى 1938 ، مارس خلالها أنواعا من التعسف على محكوميه مستغلا سلطته "المطلقة" ومستعملا في ذلك طرق الإكراه في انتزاع بعض الأراضي من أصحابها كما جاء في رسالة محمد المقري الصدر الأعظم الموجهة إليه بتاريخ 27يناير1932 : فقد بلغ شريف علم سيدنا أنك أرغمت فخدة من قبيلتك على بيع أرضها لك فباعتها لك مكرهة فبعتها أنت لبعض السماسرة بفاس ... وأمر أعزه الله بتوبيخك عليه وبتذعيرك...(22) . يظهر من فقرات هذه الرسالة أن القائد حدو أنهموشة كان يكره بعض الأهالي الرازحين تحت حكمه على بيع أراضيهم له بأزهد الأثمنة في حين يقوم بدوره ببيعها بأثمان باهضة وبذلك صار هذا القائد سمسارا لا غير ، وتمكن بهذا الأسلوب وغيره سنة 1934 من امتلاك 4,308 هكتارا كلها مسقية تقريبا إضافة إلى 1,100 رأس من الأغنام والماعز و150 رأس من الأبقار ، هذا فضلا عن الهدايا المقدمة له في شكل رشاوي بمناسبة وبدونها ، وأنواع أخرى من الهبات خاصة عند حدوث نزاع دموي أفضى إلى قتل بين أفراد الفرق المطيرية التي إلى نظره ، وكذا أعمال السخرة (التويزة) في حقول القائد المذكور ونصيبه من الترتيب ومداخيل الأسواق (المكوس).

2 ـ **استمرار نفس البنيات الإدارية** (1920-1939) : أصبحت قبيلة بني مطير خلال هذه الحقبة موزعة بين قائدين فقط ، الأول إدريس أورحو في الجنوب الذي قدم خدمات جلة للفرنسيين إذ رافق ضباطهم على رأس حملات وجهت لإخضاع باقي فرق القبيلة ودلهم على مناطقها ، كما شارك في المعارك التي جمعت الغزاة بالمطيريين المتمردين أو

هجوم الجيوش الفرنسية على ثوار الريف سنة 1925،وبذلك نال رتبة ضابط جوقة الشرف، واستحق مجموعة من الأوسمة مقابل هذه الخدمات.
وسرى على القائد حدو أنهموشة ماسرى على سابقه فقام بنفس الأعمال وحصل على نفس النياشين ، فقد شارك بدوره في حملات عسكرية لإخضاع بعض الفرق المطيرية وغيرها من القبائل الأطلسية ، كما كان ضمن الجيوش الاستعمارية الموجهة للقضاء على الثورة الريفية سنة 1925 ، وجرح في إحدى المعارك يوم 4ماي من نفس السنة(23).
وقام خلفاء القائدين المذكورين بنفس الأدوار سواء ضبط السير العادي للقبيلة أو أداء خدمات للفرنسيين ومشاركتهم ضمن صفوفها ضد أبناء جلدتهم المطيريين أو ضد الريفيين سنة 1925،واستحقوا بدورهم أوسمة شأن ذلك المختار خليفة فخدة ايقدارن ، ورحو أو ميمون خليفة أيت بورزوين،ومرادي بن عزيز خليفة أيت نعمان ، واليزيد بن سعيد خليفة أيت بوبيدمان وموح انهموشة خليفة أيت حرز الله(24).
وكان هؤلاء الخلفاء يمارسون مهامهم بكل حرية ماداموا في خدمة الفرنسيين وبقي بعضهم في مناصبهم لعشرات السنين ومنهم من رقي لدرجة قائد كما هو الحال بالنسبة للخليفة المختار بن حمو أو لحسن الذي عوض القائد إدريس أورحو على بني مطير الجنوبية بعد وفاته سنة 1937 ، وعين خليفة له موح ابن القائد المتوفي ، بمساعدة خمسة من الشيوخ والعديد من المقدمين يسيرون أمور 1,623انسمة في حين مازال حدو انهموشة لغاية السنة المذكورة على رأس قيادة بني مطير الشمالية وعدد سكانها 1,325انسمة بمساعدة الخليفة بناصر (ابنه) وخمسة شيوخ وبعض المقدمين (25). وكان قواد بني مطير قبل عهد الحماية الفرنسية على المغرب وإبانها يعينون من قبل السلاطين بعد الأخذ برأي فرق القبيلة حينما تكون العلاقات بين الطرفين عادية ويفرض المخزن أحكامه عليها ويأتي القواد على رأس الهرم الإداري المسير للفرق المطيرية لأنه لم يحدث خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أن حكمت القبيلة بقائد واحد يساعدهم خليفة أو اثنان يختارونهم بأنفسهم في غالب الأحيان إضافة إلى بعض الشيوخ والمقدمين وأحد الفقهاء وهو الكاتب العربي للقائد ، وكان قواد عهد الحماية يتلقون تعويضات متعددة عن المهام التي يزاولونها وتسمى ربع المخزن Le quart du Makhzen ويعني ربع صداق المرأة أثناء زواجها ، وربع الدية (دم مراق) ، وربع إرث غريب ...(26) إضافة إلى الفائدة المقتطعة من مداخيل الترتيب والأسواق ، وما تذره عليهم أراضيهم ومواشيهم من أرباح سنوية(27).
3 ـ نظام الجماعة عند بني مطير :كان المطيريون كباقي القبائل البربرية يحتكمون إلى العرف المسمى عندهم ازرف أو بريد أي الطريقة ، ومن جملة أعرافهم القريبة إلى الشريعة الإسلامية احتكامهم إلى الجماعة التي كانت تسير القبيلة وما يتفرع عنها من جماعات وغالبا مايكون أعضاء الجماعة أربعين يطلق عليهم أيت الأربعين، يتم اختيارهم من قبل الفرق المكونة للقبيلة ويسمى رئيس هذه الجماعة أمغار أي الشيخ.
ودور الجماعة تسيير القبيلة وفض مايحدث من نزاعات بين أفرادها وبينها وبين قبيلة أخرى ، وإذا رفض أحدهم حكم الجماعة طلب محاكمة رجل راجح العقل يسمى الحاكم، في حين إذا وقع نزاع بين مجموعتين بشريتين داخل القبيلة تعين كل منها رئيس حربها

المسمى أمغار نتوقة ومعناه شيخ الربيع ،وإذا طالت العداوة بين الفريقين وسطا شريفا بينهما يسمونه أقرام (27م) .

وينبني نظام الجماعة عند قبيلة بني مطير على التقسيمات التي تنفرع إليها القبيلة إذ تعتبر الميسي Almessi أي الخيمة هي الخلية الأولى لها ، ومجموع مايقرب من عشرين منها يسمى تيكميTegemmi أي الدوار ، ويأتي في الرتبة الموالية مايعرف ب: إغسIghs وهو العظم Clan ويجمع سكان نفس الفصيلة الدموية Les gens de même sang، ويتكون من مجموعة من تيكمي ، ويشكل كل إغس ريفا(28) .

وتأسست جماعات فرق بني مطير في عهد الحماية بعد صدور ظهير 11 نونبر1916 المحدد لمفهوم الجماعة فاعتبرها تجمعا تقليديا يتكون مبدئيا من ممثلي كل فخدة ، وجاءت قرارات وزارية تنظيمية تتمم الظهير السابق ، قسمت على إثرها القبيلة سنة 1922 إلى بني مطير الشمالية وتتكون جماعتها من 21 عضوا ، في حين كان عدد أعضاء جماعة بني مطير الجنوبية 15 ، في الوقت الذي كان فيه في نفس السنة عدد الفرق (الفخدات) المطيرية 12 وهي أيت بوبيدمان وأيت سليمان وآيت لحسن أوشعيب وآيت حرزالله وآيت والال بطيط وآيت لحسن أويوسف وآيت بورزوين وإيقدارن وآيت نعمان وآيت ورتندي وأيت حماد وآيت سيدي عبد السلام(29).

وكانت قبيلة بني مطير قبل الاحتلال الفرنسي لأراضيها تسير بواسطة ممثلي مجموع السكان الذين يجتمعون لمناقشة مايهم قبيلتهم ، وكانت الجماعة هي أعلى هيئة الساهرة على تنفيذ ماتسفر عنه الاجتماعات، ولايشترط أن يكون أعضاؤها من الشيوخ ، في حين لايمكن أن ينتسب إليها المختل عقليا أو الحراطين أو الأشخاص الأكثر فقرا (30) . وتناقش القضايا داخل كل جماعة بحرية ويعبر كل عضو عن رأي المجموعة البشرية التي يمثلها وإن كانت الكلمة النهائية للشيوخ الطاعنين في السن ذوي التجارب المتراكمة ويسمون ايخاترن .

واحتفظ الفرنسيون بعد عقد الحماية بنفس النظام الاجتماعي والإداري عند بني مطير وقننوه إضافة إلى الإدارة العسكرية التي سنأتي على ذكرها فيما بعد.

وتعددت المهام التي كانت من اختصاص الجماعات فهي التي تتولى الحكم في تيكمي وإغس والسير العام للقبيلة ، وكان رأيها محترما عند المخزن في إطار الأعراف البربرية والترتيبات السلطانية ، واجتماعات الجماعة مفتوحة في وجه الأجانب كملاحظين، كما يستدعي المرابطون ورؤساء الزوايا والشرفاء لحضور هذه الاجتماعات للاستئناس برأيهم (31)، وتعقد هذه اللقاءات عندما تقتضي الضرورة ذلك ويتعلق الأمر باتخاذ قرارات حاسمة خاصة عندما يكون أمن القبيلة مهددا من قبل جيرانها أو نشوب نزاع دموي بين فرقها مما يعكر السير العادي للحياة اليومية.

وتنقسم الجماعات في بني مطير إلى :

*جماعة تيكمي : تضم في المتوسط خمسة أعضاء من أعيان الدوار ، وتجتمعلدراسة كل مايتعلق بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، فتعمل على تحديد وقت الإنتاج ومدته وأماكن الرعي والزراعة المخصصة لكل مجموعة بشرية ، كما تسهر على حفر سواقي الري

والآبار، وإصلاح القناطر وشق الطرق ، أي كل مايتعلق بالبنية التحتية لسكان الدوار.
وتنظم جماعة تيكمي العلاقات الاجتماعية بين هؤلاء السكان ومن بينها تسوية النزاعات فيما بينهم أثناء الصراعات الدموية المفضية إلى القتل فهي التي تحدد قيمة "الدية" مثلا وتتوسط بين الخيام في إنهاء العداوة المستحكمة فيما بينها ، وفي حالة حدوث سرقات تتدخل بين اللصوص وأصحاب المسروقات ، ومن جهة أخرى يسهل أعضاء الجماعة الارتباطات بين خيامها أثناء عقد القران فيحددون قيمة المهر ، وفي حالة الطلاق يكون لهم دور في فك عقد الزواج بالحسنى، ويكون لهم حضور أيضا أثناء تقسيم التركة (الإرث).
* جماعة إغس: تتألف من ممثلي كل تيكمي ويصل عددها تقريبا إلى عشرين ، وتجتمع عند الضرورة لها صلاحية حفظ السلم وحل مشاكل الاعتداء على النساء أي عمليات الاختطافات المتكررة من إغس لآخر، وتحدد مقدار الدية في حالة نشوب معركة بين أفراد تيكمي وآخر ، ثم تنظم توزيع الأراضي الخاصة بكل جماعة وتقرر عدد المقاتلين لكل تيكمي في حالة نشوب حرب بين القبيلة وقبيلة أخرى.
* جماعة القبيلة : تتكون من مجموع ممثلي إغس ، ويجتمع أعضاؤها في الحالات الخطيرة الخاصةبالنظام العام الناجم عن نزاع على مناطق الرعي واستغلالها بالتناوب ، والترخيص للقبائل المجاورة لبني مطير من الاستفادة مؤقتا من هذه المراعي ويسهر هؤلاء الأعضاء على بسط الأمن وعقد "المعاهدات" مع جيرانهم والنظر في إبرام تحالفات مع بعضهم ، والاتفاق على شروط السلم بينهم... والملاحظ أن اجتماعات هذه الجماعة قليلة لكنها مصيرية.

وعلى رأس كل جماعة من الجماعات المذكورة أمغار ، يختار في تيكمي في جلسة عمومية ويسمى رئيس الجماعة ونفس الشيء بالنسبة لإغس، في حين يكون أمغار القبيلة طاعن في السن وبجانبه قائد حربها المعروف بشيخ الربيع ، ولكل أمغار مساعدين يختارهم بمحض إرادته ومدة حكم هؤلاء القواد سنة في الغالب وحسب الظروف، يتمتعون خلالها بامتيازات ومنها قيام أفراد القبيلة بالسخرة(32). وبعد صدور ظهير 21 نونبر1916 صارت جماعة القبيلة تحت رئاسة القائد عوض أمغار ، في حين وضعت جماعات الفرق تحت قيادة أمغار(33).

وكانت قبيلة بني مطير في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي تضم 12 إغس أهمها إيقدارن بقيادة إدريس أورحو وإغس أيت بوبيدمان وإغس أيت حرزالله ضمن قيادة الجيلالي نعلة وإغس آيت حماد في قيادة ميمون أختار(34).

وعموما أوكلت لكل جماعة مهام محددة ، وخاصة جماعة القبيلة التي لنظرها الإشراف على السير العادي للسكان ، سياسيا واقتصاديا و"قانونيا" ودينيا خدمة لمجموع الخيام المكونة لقبيلة بني مطير، لكن كلما تقادم العهد بالفرنسيين في البلاد كلما تحول دور الجماعات لخدمة مصالح المعمرين وصار أعضاؤها يمهدون السبل لهم للاستحواذ على المزيد من الأراضي بحيل قانونية ملتوية كما حدث سنة 1927 لجماعة آيت لحسن أوشعيب (35).وقامت جماعة آيت بوزوين سنة 1931 بنفس المهمة أي الإشراف على بيع

الأراضي المطيرية للمستوطنين(36) . وهكذا أصبحت الجماعات أداة طيعة في يد المسؤولين الفرنسيين ، خاصة إذا علمنا أنها لم تعد سوى ظل للإدارة الفرنسية الرسمية التي كانت بيدها مقاليد أمور قبيلة بني مطير.

البنيات الإدارية الفرنسية (1911 - 1939).

1 - **المراكز العسكرية** (1911 - 1913) : تميزت المرحلة الأولى من احتلال القوات الفرنسية لأراضي بني مطير مابين 1911 / 1913 بإنشاء عدة مراكز عسكرية لتعزيز توغلها داخل هذه الأراضي ، ومن بين هذه المراكز عين خروبة وعين معروف وضاية كشتان وعين شكاك وقصبة عروب وكلها في المناطق الشمالية السهلية ، بالإضافة إلى تأسيس المعسكرات الثلاثة الرئيسية على حافة هضبة الأطلس المتوسط في كل من الحاجب وأكوراي أو داخل الجبال في يفرن ، وربطت هذه المراكز والمعسكرات بشبكة طرق لتسهيل الاتصال فيما بينها بهدف تقديم المساعدات العسكرية لبعضها البعض، وكان أهم هذه المعسكرات بالحاجب الذي كان يضم سنة 1911 طابورين شريفين تحت قيادة القبطان لوكلي Le Glay المقيم هناك لغاية شهر أبريل 1912 إذ غادر مقر قيادته إلى فاس على إثر الأحداث الدامية التي وقعت بها في هذا التاريخ(37).

2 - **من دائرة الحاجب إلى ملحقته** (1939/1913) : بدأت المرحلة الأساسية في تنظيم الإدارة العسكرية الفرنسية بقبيلة بني مطير سنة 1913 لما تحول معسكر الحاجب رسميا إلى دائرة بقرار مقيمي مؤرخ بفاتح مارس، وأسندت رئاستها للعقيد بول هنريسPaul Henrys(13 مارس1862 - 6 نونبر1943)(38) قائد خيالة المغرب الغربي بصفة مؤقتة في اليوم الذي أنشئت فيه بمساعدة الرائد بريمون Brémond على رأس مصلحة الاستعلامات والقبطان لوكلايLe Glay والملازم أول برستشيPersetchi ونيفلNivelle مساعدين، كما تم إلحاق التخوم الجنوبية لقبيلة جروان وباقي المراكز العسكرية بدائرة الحاجب(39).

ورسم الجنرال اليوطي في قراره المذكور حدود الدائرة المذكورةعلى الشكل التالي :

- شمالا : قبيلتا جروان وعرب سايس .
- جنوبا : قبيلة بني مكيلد.
- غربا : إقليم الرباط .
- شرقا : إقليم فاس(40).

وكان الهدف من كل هذه التنظيمات الإدارية القضاء على حركة التمرد في جبال الأطلس المتوسط بعد إدخال قبيلة بني مطير في النظام الذي خطط له القادة الفرنسيون ، ووضع الجنرال دالبيز Dalbiez الحاكم العسكري العام لمكناس وإقليمها رهن إشارة العقيد هنريس يوم 16مارس1913 أعدادا هائلة من قوات الغزو من مختلف التخصصات تتمثل في ثماني سريات ونصف، ثلاثة منها من الكتيبة الرابعة، والفرقة الرابعة للمناوشين بقيادة شاردوني Chardenet ، وفرقة الكتيبة 23 واللفيف الأجنبي بقيادة فيري Ferey ، وبلغ مجموع هذه القوات :3,779 جندي و107 ضابط و811 من الخيول و462 من البغال(41). إن استمرار الهجمات المطيرية المتقطعة على القوات العسكرية المرابطة في مراكزها ومعسكراتها والمتنقلة بينها دفع القيادة العليا بمكناس في شهر أكتوبر 1913 إلى تقوية جانبها وذلك

بالزيادة في أعدادها وتزويدها بالمعدات الكافية وهكذا بلغ عدد جنود حاميات الحاجب ومعسكرات أكوراي ويفرن والقائد عمر ولد يطو 4,736 من مختلف التخصصات والفرق (مشاة وخيالة وهندسة قروية)وزعوا على النحو التالي :

- دار القائد عمر ولد يطو : 3517 جنديا تحت قيادة العقيد كلوديل Claudel.
- يفرن : 653 جنديا برئاسة بيران Perrin .
- الحاجب : 339 عسكريا على رأسها بوجي Pouget.
- أكوراي : 227 عسكريا تحت إمرة بيلو Billot(42).

يلاحظ أن عدد جنود المراكز الأمامية جنوبا التي مازالت مهددة بهجمات القبائل الأطلسية المتمردة كان أكبر بكثير مما عليه الشأن في المراكز الشمالية التي خضعت فرقها المطيرية نهائيا للقوات الفرنسية وهكذا يظهر أن الهاجس الأمني كان وراء هذا التقسيم إضافة إلى الاستعداد للتوغل في قلب الأطلس المتوسط وعاصمته بلدة خنيفرة لربط الاتصال مابين شرق المغرب وجنوبه وشماله.

إن استسلام قبيلة بني مطير سنة 1913 وإدعان قواد حربها للسلطات الفرنسية دفع بهذه الأخيرة إلى تحويل دائرة الحاجب إلى ملحقة فقط بتاريخ9 يوليوز1914 تابعة للقيادة العسكرية بمكناس وألحقت بها جروان الجنوبية بقرار مقيمي مؤرخ ب 12/14 1923 (43).

ويعتبر معسكر الحاجب وأكوراي بوابة الأطلس المتوسط لوقوعهما على حافته ،ويطلان على سهل سايس وبذلك احتلا مواقع استراتيجية في سياسة القيادات العسكرية المتعاقبة على حكم مكناس وإقليمها تمهيدا لاحتلال الأراضي المكيلدية والزيانية وغيرها ، وتعزيزا لهذه الخطة تم إحداث مركز يفرن (7 ماي1913) ومركز يطو الخارج أصلا عن ملحقة بني مطير بالحاجب ، ويعتبر مركز يفرن ملتقى مجموعة من القبائل غير التابعة للملحقة المذكورة مثل أيت سغروشن وأيت يوسي وأيت مكيلد وبني مطير خاصة فرقتا أيت ورتدي وآيت حماد(44).

3 ـ **التنظيمات الاقتصادية (S.I.P) والعدلية** : لم يقتصر دور الفرنسيين على التنظيمات الإدارية في قبيلة بني مطير ، ولكن هذا الدور امتد إلى تنظيم إدارة الاقتصاد بالمنطقة ، ذلك أنه في سنة 1920 تم تأسيس الجمعيات الأهلية الاحتياطيةSociètés Indigénes de prévoyance (S.I.P) في مكناس ومنها فرع بني مطير الذي ضم بين صفوفه الفرق التالية

* بالنسبة لقيادة إدريس أورحو بالجنوب : أيت بورزوين وإيقدارن وأيت نعمان وأيت حماد وأيت ورتتدي وشرفاء أيت السبع وزاوية سيدي عبد السلام.

* بالنسبة لقيادة حدو نهموشة بالشمال : أيت حرز الله وأيت بوبيدمان وأيت سليمان ولغواط وأيت لحسن أوشعيب وأيت والال وأيت أوفلا وشرفاء ركراكة(45).

وكان الهدف من تأسيس هذه الشركات المذكورة كما قال بنشنهو : "الجمعيات الاحتياطية الأهلية شركات مخزنية تمد يد المساعدة إلى الفلاحين المغاربة المحتاجين ، فتسلفهم النقود والزرع لخدمتهم الفلاحية وتعاونهم في تنمية مالهم وتجنبهم من مصارفة أهل الربا وتؤامنهم من ضرر الحرائق والبرد والجليد وتمنح الضعاف منهم الصدقات(46) ،

ولكل جمعية احتياطية مجلسين ، الأول جزئي يترأسه قائد القبيلة ويتركب من مسنيها وأعيانها، ولأعضاء هذا المجلس واسع النظر في تقدير حاجيات المغاربة المشاركين في الجمعية خاصة مايتعلق بمنح القروض ، في حين يسمى الثاني مجلس التدبير ويتكون من أعضاء المجلس الجزئي ومن قاضي المحل والمراقب المدني أو رئيس مكتب الشؤون الأهلية وممثل إدارة الفلاحة ونائب عن مصلحة تربية المواشي وكاتب عربي وآخر فرنسي ومن صلاحيات هذا المجلس النظر في طلبات السلفات ورفضها أو المصادقة عليها ، وتوزيع النقود والزروع على المشتركين وشراء الآلات الفلاحية التي يحتاجونها ، وينعقد هذا المجلس ثلاث مرات في السنة بصفة منتظمة ، دون أن يحول ذلك من عقد اجتماعات أخرى إذا دعت الضرورة(47) ، وهناك مجلس ثالث يسمى مجلس المراقبة ومقره الرباط. وكان أعضاء الجمعية الأهلية الاحتياطية في بني مطير يعينون من قبل الحاكم العسكري العام بمكناس كما حصل مثلا يوم 8 يوليوز 1926 ، إذ عين الجنرال فرايدنبورغ Freydenberg بعض أعضائها وهم : المعطي بن محمد عن جروان الجنوبية ومحند الحسين وموح أنهموشة عن بني مطير الشمالية(48).

4 ـ **المحاكم العرفية** : ومن بين التنظيمات الإدارية الفرنسية الدخيلة على قبيلة بني مطير نذكر المحاكم العرفية باعتبار أهمية العرف في حل المشاكل اليومية للسكان ، لكن دون أن يلغي ذلك بصفة نهائية تطبيق الشرع في بعض الأمور(49).

وكانت هذه المحاكم تتألف من نائب عن كل فرقة (فخدة) واستمر الأمر على هذا الحال إلى سنة 1938(50). وكان للشخصيات الدينية وللشرفاء مكانتهم المرموقة داخل المجتمع المطيري ولهم نفوذ معنوي على سير مداولات المحاكم العرفية ، وأهم فرق الشرفاء في القبيلة الركراكيين بالربيعة وأيت السبع بيفرن واليعقوبيين بزاوية سيدي عبد السلام(51).

خاتمة :

كانت أدوات ضبط سير قبيلة بني مطير متنوعة خاضعة للمخزن قبل الحماية ولسلطات هذه الأخيرة بعد 1912 سواء في مكناس أو الرباط ، وقد ظل منصب القائد قائما في كلتا الفترتين يعين من قبل السلاطين بعد موافقة القبيلة ، لكن أثناء الاحتلال الفرنسي صار القائد مفروضا شكليا من السلطان من قبل القيادات العليا العسكرية في كل من مكناس والرباط ، وكان للقائد أعوان ومساعدين سواء خلفاء أو شيوخ أو مقدمين ، ولكل قيادة ترتيباتها و"مؤسساتها" التي تناقش فيها القضايا العامة والخاصة بالأهالي .

وتم الاحتفاظ بالقواد المستسلمين للقوات الفرنسية في مناصبهم كما أنشئت إدارات عسكرية في أهم المراكز والمعسكرات التي أسستها القيادة الفرنسية وأهمها الحاجب وأكوراي على حافة الأطلس المتوسط الغربية لتسهيل الربط بين المناطق السهلية والهضبية والجبلية التي كانت تتحرك فيها قبيلة بني مطير .

وهكذا كانت الترتيبات الإدارية في بني مطير خلال الحقبة التي حددناها لهذا البحث (1939/1911) مزدوجة أهلية وفرنسية ، وكلها عملت على خدمة أمن المستوطنين الذين

فضلوا الاستقرار في أراضي القبيلة سواء في إطار الاستيطان الخاص أو الرسمي ، دون إغفال الاستفادة الخاصة للقواد والشيوخ على حساب أبناء قبيلتهم .

والملاحظ أن مدة حكم القواد كانت تمتد أحيانا إلى ربع قرن ، كما أن عددهم كان قليلا لم يتعد اثنان من سنة1919إلى1939 ، ويظهر أن عدم استبدالهم بسرعة راجع لإخلاصهم للسلطات الفرنسية وتنفيذهم لخططها ومشاركتهم جيوشها في إخضاع قبيلتهم وتعدت مشاركتهم حدود القبيلة لتمتد إلى الريف ، فكانوا كل مرة يقدمون بهذه المشاركات شهادات حسن السلوك والإخلاص لسلطات الحماية التي غضت الطرف عن بعض تصرفاتهم التي لم تكن ترضي المخزن أحيانا .

الهـــوامـــش :

1) ـ العلوي (الشاقي) : أصول المغاربة القسم البربري ـ اتحادية ايت ادارسن ، مجلة البحث العلمي ، السنة 2 العدد :24 ـ يناير 1975 ص72.

2) ـ المرجع السابق :

3)- Archives Ddiplomatiques de Nantes (A.D.N) carton n° 312 D.A.I.
وثيقة مؤرخة ب : 26 /2 / 1918.

4) - A.D.N. - Idid- le contrôleur des domaines de Meknès : Note sur les Beni M'itir et sur la situation juridique eu territoire occupé par eux .
- Historique des Beni M'tir -

5) ـ المصدر السابق.

6) - Tribu Service Historique de l'Armée de Terre. (S.H.A.T) 3h 435 dossier n° c28704. Fiche de Savin (capitaine) : Tribu des Beni M'tir 8 Février 1928 .

7) ـ ابن زيدان (عبد الرحمان) : العز والصولة في معالم نظم الدولة ج 1. المطبعة الملكية الرباط 1961ص 16 ومابعدها.

8) - Abes : Monographie d'une Tribu berbére .Les Aïth N'dhir (Beni M'itir) Archives berbéres Fasc. 1 et 2 1915- 1917 p : 26.

9) ـ المرجع السابق .

10) ـ أنظر الترجمة التي وضعنا لهذا القائد في معلمة المغرب (5) من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، نشر مطابع سلا 1992 ص :1623.

11) - Abes : Monographie d'une Tribu bérbére .... Ibid p : 12 .

12) - Savin : Tribu des Beni M'tir - Ibid - .

13) - Abes : Monographie d'une Tribu Berbére - Ibid - p : 8.

14) ـ للمزيد من التفاصيل عن الأحداث التاريخية لهذه الفترة أنظر الباب الأول من أطروحتنا المعنونة به مكناس : المدينة الجديدة. التأسيس، البنيات الإدارية ، التناقضات (1939/1911) التي توجد نسخ منها بخزانة كلية الآداب بالرباط.

15) - Archives du Ministère des Affaires étrangéres quai d'orsay. Paris(A.M.A.E) Maroc 1897 - 1918 volume 280. 1911 - Avril- Août - Document - 122 n° 79 r .
مراسلة الجنرال موانيي Moinier إلى القبطان لوكلي Le Glay فاس 5 يوليوز 1911 .

16) - S.H.A.T 3H 330 Fes le 26/7/1991.
SS. du caïd Akka Le consul de France à fes (Gaillard).
Boubidmani A M = de Billy chargé d'Affaires de France au Maroc.

ملحوظة : تـم إلقاء القبض على البوبيدماني في شهر فبراير 1914 وأرسل إلى الرباط ، حيث وضع تحت الإقامة الإجبارية .

17) - Abes : Monographie d'une Tribu Bérbére - Ibid - P : 12.

ملحوظة : ولد إدريس أورحو سنة 1865 تقريبا في بلاد بني مطير ، كان قائدا لجزء من القبيلة قبل الاحتلال الفرنسي ولما استسلم للفرنسيين سنة 1912 نصبوه قائدا من حديد وقدم لهم خدمات جلة ، وشارك في عدة حمـلات على إخوانـه المطيريين مما جعله يستحق توشيح الرئيسي الفرنسي الكسند ميلليران Alex endre Millerand أثنـاء زيارتـه للأطلـس المتوسـط يـوم 11 أبريـل 1922.نال أوسمة أخرى سـنة 1933 ، وبقي يزاول مهام القيادة إلى أن توفي يـوم 5 أبريـل 1937. وقـد بلغـت ثـروة هـذا القـائد 2454 هكتار و1610 من المواشي والدواب ، بالإضافة إلى دور ومستحقاته من فوائد الترتيب ومداخيل الأسواق.

18) - Arnaud : Monographie de la Régio de Meknès . 20.2.1914
in Bulletin de la Société de géographie du Maroc n° 2-19-16

19) - S.H.A.T. 3H 901 Mars 1913
Tableau de commandement du cercle
Service des renseignements , cercle du Beni Mtir.

20) - S.H.A.T. - 3H 155 Rapport Mensuel d'ensemble du Protectorat.
Région de Meknès . Avril 1920 "Le Caïd Mohand ou Raho des Beni M'tir a demande à être relevé de son commandement ".: مما جاء في هذا التقرير

21) - A.D.N. Carton 37. D.A.C.H. Meknès . مراسلة الجنرال بويميرو إلى ليوطي 1920/5/23.

22) - T.O.M. region de Meknès service des renseignements
N° = 383.R.G. Liasse n° = 125 Meknès .

23) - Savin : Tribu des Beni M'tir ... Ibid . Autorités Indigénes .

24) - المرجع السابق .

25) - A.D.N. Liasse n° = 87 Meknès , Région de Meknès circonscription de contrôle civil d'El Hajeb . Tableau de commandement des Tribus 1938.

26) - Abes: Monographie d'une Tribu Bérbére ...Ibid p : 33

27) - A.D.N. Liasse n°77 Meknès 29-10-1934
Fiche de Renseignements Concernant la situation de Fortune de :
(1) Haddou N'hammoucha caïd des Beni M'tir.
(2) Driss ou Rahou .

27م) - بوعسرية (بوشتى) : مكناس ، المدينة الجديدة التأسيس - البنيات الإدارية - التناقضات (1911-1939)
أطروحة دولة مازالت مرقونة ، توجد نسخ منها بخزانة كلية الآداب بالرباط.

28) - Centre des Hautes Etudes d'Administration Musulmane (C.H.E.A.M) coten°=1656.
Debraisne : Tendances démocratiques en pays berbéres Marocain Les Djemaas.P.4

7/10/1950

29)- taghbaloute (Aziz) : L'institution de La Djemaa dans la Région du Meknès (1912 - 1956) p. 207. in Maroc -Europe - revue n° = 3 , 1992 , ed . La Porte - Rabat .

30)- Debraisme : Tendances démocratiques .. Ibid p : 6

31)- Abes : Monographie d'une Tribu Bérbers .. Ibid . p : 43.

32) ـ المرجع السابق : ص ص : 43 و44.

33)- Debraisme : Tendances démocratiques ... Ibid .

34)- Abes : Monographie d'une Tribu Berbére ... Ibid p : 47.

35) ـ وثيقة أصلية خاصة مؤرخة ب :1927/10/5.

أعضاء جماعة أيت لحسن أوشعيب :

ـ الشيخ احماد أوبقرة ـ رئيسا .

ـ علي أوحمو

ـ محمد بن علي

بنعيسى أوعسو أعضاء

ـ علي أوبوكرين

ـ محمد أوغريف

36) ـ وثيقة أصلية خاصة مؤرخة ب :1931/3/25.

أعضاء جماعة أيت بورزوين .

الرئيس : الخليفة رحو بن ميمون .

الأعضاء : ميمون بن لحسن وعمر بن محمد واعزيز وبوعزة ولد محمد أوزايد ومحمد أولحاج العروي وعق أودريس وبوعزة بن علا أودريس عزيز بن حمو أولحسن وأوعياش بن لحسن أوعمار وبناصر أخنشوش والحسن بومهدي .

37)- Abes : Monographie d'une Tribu Berbére . Ibid . P : 29.

38) ـ للمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية أنظر أطروحتنا السالفة الذكر ـ الباب الأول ، الفصل الثالث.

39)- S.H.A.T. 3h 901 . Organisation de la Région de Meknès. 1er Mars 1913. c : Cercle de Beni M 'tir.

40)- S.H.A.T. 3h 582 Rabat le 1er Mars 1913.

41)- Arrêté . Document n° =18AP.

S.H.A.T 3h 582 Mouvement des Troupes dans la région de Meknès de Beni M'tir , Situation d'effectif à la date du 24 Mars 1913. Pièce annexe n° = 2.

42)- S.H.A.T. 3H 804 . situation démplacement des troupes à la date du 15-10-1913.Annexe1.

43)- Savin : Tribu des Beni M'tir ... Ibid.

44)- Abes : Monographie d'une Ttribu berbère - Ibid , p : 20.

45)- B.O. n° = 432 du 1er Ffevrier 1921. P / 163 Arrêté organisant la Sociètè indigéne de Meknès Section Beni M'tir.

ملحوظة : تأسست هذه الجمعيات بموجب ظهير 26 ماي1917 أنظر :

B.O.n° 242 du 11 Janvier 1917. P P 633 et Suivantes.

46) ـ بنشهنو (عبد الحميد) : البيان المطرب لنظام حكومة المغرب ط 2, مطبعة الأمنية ، الرباط . 1951 ص169.

47) ـ للمزيد من التفاصيل عن أهداف S.I.P. أنظر :.B.O. 6e année n° 242 du 11 Juin 1917 - P P : 633

ملحوظة : أدخلت إلى المغرب أولى آلات الحصاد والدراس Moisseuneuse - Batteuses الأمريكية الصنع من نوع Massy-HARRIS سنة 1926 .

48) - B.O. n° = 719 du 3 Août 1926 . p : 1478.

49) ـ للتعرف على نظام العدالة عند بني مطير ، أنظر :

Abes : Monographie d'une Tribu berbère - Ibid , P P : 50 - 57.

50) - A.D.N. Liasse 87 Meknès , Région de Meknès , circonscription de contrôle civil d'El Hajeb. Tableau du commandement de Tribu 1938.

51) - Savin : Tribu des Beni M'tir - Ibid.

من جنـدي القبيلـة إلى جنـدي الدولـة

ملاحظات حول دور القوة العسكرية لدى قبائل آيت وراين

ذ. عمرو إديل*

تقديـــم:

تبدو أهمية هذه الندوة من خلال طرحها في هذا الظرف بالذات إشكالا مزدوجا يرتبط فيه ما هو علمي مـع مـاهو ذاتـي ، فهنـاك مـن جهـة محاولـة لضبـط التطـور الاجتمـاعي والسياسي وفهم البنيات الحالية للمجتمع المغربي ، ومن جهـة أخـرى تحديـد معـالم الهويـة الوطنية في تجلياتها المتعددة .

وإذا كـان موضـوع التشـكيلة الاجتماعيـة والاقتصاديـة للمغـرب قـد اسـتأثر باهتمـــام الاقتصاديين والسوسيولوجيين منذ أزيد من عقدين من الزمن ، فإننا نلاحظ بأن المؤرخيـن قد ظلوا خارج إطار النقاش حول هذا الموضوع ،رغم أنهم أقرب الناس إليه وقد تبدو هذه المسألة مفهومة حين نعلم بأن المؤرخ لا يجازف في التعميم دون وثائق ومسـتندات ، بينمـا نلاحظ بأن باحثين آخرين سقطوا في فخ التنظير السـابق لأوانـه ، وذلـك إمـا عـن طريـق مقاربة عامة تهدف إلى إسقاط أدوات ومفاهيم مستقاة من الغرب ، وتطبيقهـا علـى النمـوذج المغربـي (1)، وإمـا مـن خـلال دراسـة حالـة محـددة زمانيـا ومكانيـا والخـروج بمفهـوم بـل وبنظرية تحاول تفسير طبيعة المجتمع المغربـي ونوعيـة بنياتـه الاجتماعيـة والاقـتصادية انطلاقا من تعميم خلاصات النموذج المدروس على باقي المجال الوطني (2).

ورغم هذه "الهفوة التنظيرية" فلا أحد يمكنه أن ينكر أهميـة هـذه المحـاولات ، ولا أن يسـتصغر المجهـود المبـذول مـن طـرف أصحابهـا فـي إبـراز جـزء مـن حقيقـة البنيـات الاجتماعية للمغرب ، كما لايمكن الرمي بها جانبا بل وأحيانا انتقادها من موقف إديولوجـي فقط ، دون اعتبارهـا لبنـة أولـى فـي مشـروع بنـاء المنظومـة التفسيرية لطبيعـة المجتمـع المغربي.

وهكذا تتضح ضرورة الإيمان بأن هذا الموضوع يتطلب تظافر المجهودات وأنه ليس حكرا على علم معين، بل هو نقطة التقاء بين تخصصـــات متعـددة ـ بعضهـا دقيـق جـدا ـ تجمع المؤرخ والاقتصادي وعالم الاجتماع والجغرافي والانتروبولوجي وعالم السياسـة ... كمـا أن الخلاصـات حـول هـذا الموضـوع لايمكنهـا أن تكـون سـوىذات طـابع تركيـبــي وشمولي ، وأنها تتجدد باستمرار تبعا لتقدم الأبحاث .

*ـ أستاذ باحث بكلية الآداب ـ مكناس.

إن تحقيق هذا الهدف يتطلب في اعتقادنا مجموعة من الشروط المنهجية يمكن إيجازها على النحو التالي:

* ضرورة الإيمان بأهمية القرن التاسع عشر ، كلحظة تاريخية أساسية في مسار المغرب، ليس لكونه يشكل قطيعة أو مرحلة انتقالية فقط ، بل كذلك لكون العديد من مظاهره وبنياته قد استمرت بفعالية في قرننا،وأن تأثيرات عديدة لازالت سارية في واقعنا ـ أحيانا على مستوى البنيات الفكرية فقط ـ ولهذا نعتقد أنه يجب إبراز خيوط الاستمرارية وإظهار أماكن القطيعة مع الماضي : مثلا الروابط القبلية، علاقة الإنسان بالأرض ، دور المقدس...

* أهمية التغطية العلمية لكل المجال المغربي : إذ لازالت العديد من الجهات غير مدروسة بدقة ، بل هناك مناطق تشكل "مجهولا" بالنسبة للباحثين. ومن المعلوم أن الدراسات المحلية والجهوية تشكل خزانا أساسيا لكل محاولة لصياغة أطروحة تفسيرية عامة للمجتمع . فالتجربة الأوربية تثبث بأن المحاولات التركيبية لم تصبح ممكنة إلا بعد أن تم جمع وتدوين الوثائق والدراسات المحلية ، وبعد أن تمت تغطية مجموع المجال بالأبحاث الدقيقة(3) .

* أهمية الاتفاق حول مبدإ أساسي في اعتقادنا ، وهو أن المجتمع والمجال في المغرب يتميزان بالتنوع والتعدد ، وأن الاختلافات قد تكون جوهرية من جهة إلى أخرى. فالمعطيات الإيكولوجية متباينة ، وطرق اكتساب العيش مختلفة من مجال لآخر ، وهكذا فإن التطور لم يتم بشكل خطي وأحادي في جميع الجهات ، فهناك مناطق عرفت تحولات سريعة وجذرية ، بينما استمرت البنيات التقليدية في التأثير بصفة مباشرة في عدة مجالات أخرى .

على ضوء هذه التحديدات المنهجية فإن النموذج الذي نود تقديمه يهدف إلى إبراز نقطتين أساسيتين :

ـ المجتمع القبلي في الأطلس المتوسط الشمالي الشرقي قبل الاستعمار : بنيات اجتماعية متمركزة حول تحقيق توازن اقتصادي ـ إيكولوجي من خلال استعمال القوة العسكرية للسيطرة على الأراضي .

ـ إن عملية الإدماج في المجتمع الوطني ـ من خلال السيطرة الاستعمارية في البداية والاندماج الاقتصادي في نمط الإنتاج الرأسمالي فيما بعد ـ قد تمت بعملية قيصرية مفروضة ، أدت إلى تغييرات جذرية في البنيات الاجتماعية والاقتصادية لهذه المنطقة.

I . ارتبط التطور التاريخي لقبائل آيت وراين باستعمال القوة :

أ ـ **لمحة تاريخية حول قبائل آيت وراين:** تسكن قبائل آيت وراين النطاق الجغرافي الممتد جنوب ممر تازة ، وهي بذلك تغطي النهاية الشمالية الشرقية لسلسلة الأطلس المتوسط ، إذ تمتد أراضيها من وادي إيناون في الشمال الغربي إلى وادي ملولو شرقا ، وتحد جنوبا بجبال بويبلان وبوناصر . وتعد قبائل آيت وراين من العناصر البشرية الحديثة الاستقرار بالمنطقة ، ورغم ذلك نجد تضاربا فيما يتعلق بأصلها. فالتصنيف السائد لدى بعض المؤرخين المتأخرين وعند أغلبية الدارسين الاستعماريين هو أنهم ذوو أصول شرقية ،

باعتبار أنهم قد أتوا من ناحية فكيك وبالتالي فإنهم ينتمون إلى زناتة (4) ، أما الأطروحة الأقرب إلى الحقيقة التاريخية ، فهي أنهم يشكلون مقدمة الزحف الذي عرفته قبائل صنهاجة الصاعدة من الجنوب(5) باتجاه المناطق الغنية في الشمال الغربي ، وأنهم قد انحرفوا نحو الشمال الشرقي للأطلس المتوسط عندما أقامت السلطات المخزنية عددا من القلاع العسكرية عند سفوح جبال الأطلس المتوسط لمواجهة زحف "آيت أمالو". والثابت تاريخيا هو أنهم قد استوطنوا السفح الشمالي لجبل بويبلان في القرن السادس عشر حسب الحسن الوزان (6).

ب ـ تظافرت عدة عوامل للدفع بقبائل آيت وراين للتوسع باستعمال القوةالعسكرية:

لقد كان للظروف الطبيعية للمنطقة التي استقرت بها قبائل آيت وراين في البداية دور أساسي في الدفع بها نحو البحث عن أراضي جديدة . فالمنطقة عبارة عن مجال جبلي ذو مؤهلات ضعيفة تسوده ظروف مناخية قاسية تفرض البحث عن مراعي شتوية بعيدا عن الثلوج التي تكسو المنطقة ، كما أن موقع زاوية تانكرارامت ـ المعقل الأصلي لآيت وراين ـ عبارة عن وادي عميق وضيق لايتلاءم مع نمط عيش هذه القبائل الذي يرتكز على الرعي المتنقل تبعا لظروف العشب والمناخ. ومن جهة أخرى فإن التزايد الديموغرافي ـ بحكم وصول وافدين جدد أو بفعل إدماج سكان القبائل التي تم الاستيلاء على أراضيها ـ يعتبر عاملا مشجعا على التوسع المجالي .

إن هذه العوامل الإيكولوجية ـ رغم أهميتها ـ لايجب أن تنسينا عنصرا آخر ذو بعد إيديولوجي كان له أكبر الأثر على تاريخ آيت وراين ، ويتعلق الأمر بالدور الديني والسياسي الذي لعبته زاوية تانكرارامت في تأطير وتوجيه التوسع الوريني(7).

تم تأسيس زاوية تانكرارامت من طرف سيدي محمد بلفرح ، الذي يعتبر من أبناء شريف زاوية تيغزة الإدريسية على واد ملولو ، وذلك بعد النكبة التي أحدثها المولى إسماعيل بهذه الأخيرة . ففر محمد بلفرح إلى المناطق الجبلية واستقر بوادي تانكرارامت حيث احتضنته والتفت حوله قبائل آيت وراين . ونظرا لكون الهدف السياسي لهذه الزاوية كان هو العودة إلى فاس مهد الأدارسة ، فقد أطرت ووجهت حركة قبائل آيت وراين التي بدأت تأخذ طابع القوة العسكرية الضاربة ابتداء من القرن 18 ، كما أنها مدفوعة بظروف مادية تتجلى في ضرورة الحصول على المراعي الشتوية الموجودة على هوامش الجبال التي تقطنها . وهكذا نلاحظ الالتقاء بين الهدف الديني والسياسي للزاوية مع الضرورة الاقتصادية والقوة العسكرية لقبائل آيت وراين ، مما سوف يؤدي إلى مسلسل من الحركات التوسعية لهذه القبائل ، لم تنته حلقاته إلا مع التدخل الاستعماري.

ج ـ مراحل التوسع الوريني: يمكن تقسيم حركة توسع قبائل آيت وراين إلى مرحلتين أساسيتين:

1 ـ مرحلة السيطرة على النطاق الجبلي الأعلى والأوسط :

وقد امتدت على طول القرنين 17 و18 ، وشملت المجال الممتد من جبل بويبلان جنوباً إلى جبال تازكا والشعرة في الشمال والغرب. وقد تم هذا التوسع على حساب القبائل المستقرة منذ القديم في المنطقة وهي على التوالي : فندلواتة ، بني مكود وغياثة .

لقد مكنت هذه المرحلة قبائل آيت وراين من توسيع مجالها ، ولكن دائما في إطار جبلي ، وكذلك من تقوية عدد رجالها بفعل إدماج عناصر القبائل الخاضعة عن طريق روابط الزواج والتحالفات المتعددة الأشكال.

2 ـ مرحلة النزول والسيطرة على المناطق المنخفضة المجاورة للنطاق الجبلي :

وقد امتدت على طول القرن 19 وبداية القرن 20 . تميزت حركة التوسع الوريني إبان هذه المرحلة بأنها اتخذت اتجاهين متباينين : فقد توجه جزء من القبائل الورينية نحو سهول ملولو والفحامة وسيطروا على مساحات شاسعة من أراضي قبائل هوارة وغياثة . أما الجزء الأكبر من القبائل فقد زحف باتجاه الشمال الغربي للسيطرة على هضاب تاهلة ، مطماطة ورباط الخير . وبعد معارك طويلة وضارية مع قبائل لحياينة وبني سادن وبني يازغة ، استطاعت الاستحواذ على كل المجال الممتد من وادي إيناون إلى هضبة المنزل.

لقد أدى هذا الزحف إلى تغييرات أساسية في الخريطة القبلية وفي التوازنات العسكرية في كل المنطقة.إذ ظهرت قبائل آيت وراين على مسرح الأحداث السياسية الكبرى وبدأ المخزن يدخلها في حساباته العسكرية (8). وقد تميزت علاقات آيت وراين بالسلطة المركزية بالتباين تبعا للظروف التاريخية . فقد حاول المخزن ضبط هذه القبائل الزاحفة من خلال تعيين قائد لها في نهاية ثمانينات القرن الماضي. لكن سرعان ما تحولت هذه العلاقات إلى المواجهة المسلحة من خلال هجوم آيت وراين على الحركة الموجهة ضد غياثة وتازة في نهاية القرن 19 ، وكذلك من خلال مشاركتهم في حصار مدينة فاس سنة 1911 (9).

وهكذا يمكن القول ، بأن التدخل الاستعماري الفرنسي هو الذي حد وكسر شوكة هذا الزحف الوريني ، وأرجع القبائل إلى معاقلها الجبلية الأصلية ، خاصة إبان مرحلة المقاومة المسلحة التي دامت طويلا، إذ استغرقت المواجهة المسلحة بين قبائل آيت وراين والقوات العسكرية الفرنسية أزيد من خمسة عشر سنة (10). وقد كان من النتائج المباشرة للسيطرة الاستعمارية فقدان آيت وراين لأغلبية الأراضي المنخفضة المكونة للمراعي الشتوية في الأزغار (هضبة تاهلة –رباط الخير) التي كانوا قد استولوا عليها بالقوة سابقا،وذلك لفائدة الاستعمار الفلاحي، وتم استرجاعها من طرف القبائل المزاحة من قبل (الحياينة وبني سادن بصفة خاصة).

II ـ البنيات الاقتصادية والاجتماعية :

أ ـ على المستوى الاقتصادي : سيطرة نظام الرعي المتنقل: إن الطبيعة الرعوية لقبائل آيت وراين وطريقة سيطرتهم على مجال الأطلس المتوسط الشمالي الشرقي التي ارتكزت على استعمال القوة العسكرية أو إبرام الصلح لفائدة الأقوى ، زيادة على نوعية النشاط الإنتاجي الذي كان سائدا قبل وصولهم، كلها عوامل كانت لها نتائج مباشرة على ظروف الإنتاج الجديدة ، وعلى طرق تملك واستغلال الأرض.

ففيما يتعلق بطرق استعمال الأرض ، أحدثت سيطرة قبائل آيت وراين تغييرا كبيرا في المنطقة ، إذ انتقل جزء مهم من الأراضي من الزراعة إلى مراعي دائمة . لقد كانت الزراعة البورية والمسقية هي النشاط الأساسي للقبائل التي كانت تستوطن الأطلس

المتوسط الشمالي الشرقي ، لكن وصول آيت وراين حول هذا الوضع ، إذ أصبح الرعي المتنقل هو السائد، بينما تقلص مجال الزراعة. لقد وقفنا في الميدان على عدة أدلة عن هذا التحول: مدرجات غير مستغلة وسواقي مهجورة . كما أن الأماكنية تعطينا أسماء لرساتيق كانت مسقية ولكنها اليوم عبارة عن أراضي بورية .

أما فيما يتعلق بنظام تملك الأرض ، فقد أدت سيطرة قبائل آيت وراين إلى انتقال جزء مهم من الأراضي من نظام الملكية الفردية التي كانت سائدة لدى القبائل الأصلية ، إلى الملك الجماعي للقبيلة ، وهذا ناتج عن طريقة السيطرة على الأرض من جهة ، وعن متطلبات النشاط الرعوي الذي يفرض مجالا مفتوحا من جهة أخرى. وهكذا سوف تتراجع الغراسة ـ خاصة أشجار الزيتون ـ لفائدة الرعي الطليق.

ورغم أن الزراعة المسقية قد استمرت في بعض الأودية الضيقة ، فإن جزءا مهما من السكان الأصليين ، وبحكم إدماجهم في المشروع التوسعي لآيت وراين سوف يتحولون إلى ممارسة الرعي.

وهكذا فإن التملك الجماعي والاستغلال المشترك للأرض لايعني انقراض الملكية الفردية ، ولكنه يفسر طبيعة البنية الاجتماعية الجديدة المبنية على ضرورة التحكم في المجال من خلال القدرة على الدفاع عنه ومحاولة توسيعه باستمرار على حساب القبائل المجاورة ، مما يفرض تلاحما اجتماعيا مهما ، ويضمن بالنسبة للمدمجين الجدد إمكانية المحافظة على جزء من ممتلكاتهم والانخراط في نفس الوقت في المشروع التوسعي للقبائل المسيطرة بهدف الحصول على أراضي جديدة .

إن الطبيعة الرعوية ونوع النشاط الإنتاجي الممارس (الرعي المتنقل) قد فرضا على قبائل آيت وراين تجنيد أكبر عدد من رجالها باستمرار، وذلك قصد الدفاع عن الأراضي المسيطر عليها ، وحراسة القطعان ، ومحاولة توسيع المجال القبلي باستمرار . ومن هنا يمكن القول بأن كل رجال القبيلة القادرين على حمل السلاح هم جنود دائمون في خدمة مصالحها : يدافعون عن أراضيها ويحرسون قطعانها ويشاركون في الهجوم على القبائل المجاورة بهدف توسيع مجال نفوذها. كما أن نوعية النشاط الإنتاجي السائد (الرعي) قد جعلت من رجال القبيلة في نفس الوقت "محاربين ورعاة" بل وحتى فلاحين في المراحل المتأخرة من توسعهم.

وهكذا يتضح أن تحالف قبائل آيت وراين فيما بينها ، وإدماجها للعناصر المسيطر عليها من أجل تحقيق المشروع الاقتصادي والسياسي المتمثل في السيطرة على أراضي الأزغار هو الذي أعطاها هذا الطابع التوسعي الخاص (11). وهنا لابد من إثارة الانتباه إلى الاختلاف الواضح مع ما حدث في جهات أخرى من المغرب. فمثلا في تافيلالت نجد أن سيطرة قبائل آيت عطا على مجال واسع قد تم كذلك باستعمال القوة العسكرية ، لكن مع تمييز واضح في الأدوار : فقد استمرت عناصر آيت عطا في ممارسة الرعي المتنقل والتعاطي للحروب ، بينما استغلت عنصر الحراطين في الزراعة وفرضت على السكان الأصليين المستقرين إتاوات باهضة ، فتشكلت بنية طبقية واضحة ميزت لعقود طويلة المجتمع الفيلالي (12) .بينما في الأطلس المتوسط الشمالي لانجد مثل هذا التطور نظرا

لكون الهدف الاقتصادي والسياسي كان أكبر ، وكان يضغط نحو إدماج القبائل الأصلية في المشروع التوسعي .

أما على مستوى الإنتاج ، ونظرا لطبيعة النشاط السائد لدى هذه القبائل (الرعي) فقد كان يهدف أساسا إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي ، إذ أن عمليات التبادل ظلت ضعيفة ، ولم تتطور نسبيا إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد عنصر اليهود الذين كانوا يتمتعون بوضعية خاصة سمحت لهم بالتنقل مابين القبائل ومقايضة منتوجات يجلبونها من فاس وصفرو (أقمشة ، شموع وأسلحة) مقابل الأصواف والجلود والسمن والعسل.

كما يجب التأكيد على أهمية دور قوة العمل والدفاع ، وذلك سواء على مستوى وحدات الإنتاج العائلية أو على مستوى القبائل المكونة لحلف آيت وراين ، إذ أن عدد رجال العائلة أو القبيلة يتناسب طرديا مع رؤوس ماشيتها ومع مدى كبر المجال الذي تسيطر عليه.

ب ـ بنية اجتماعية متحركة : لقد كان لطول الفترة الزمنية التي استغرقتها عملية السيطرة على مجال الأطلس المتوسط الشمالي من طرف قبائل آيت وراين وكذلك نوعية النشاط الإنتاجي المسيطر تأثير كبير على تشكيل البنية الاجتماعية المحلية. وهكذا، وحتى حدود نهاية القرن التاسع عشر يمكن أن نميز بين ثلاث مكونات بشرية :

ـ الشرفاء : يتشكلون أساسا من أفراد قبيلة أولاد الفرح . كان مركزهم الأصلي هو زاوية تانكرارامت ، لكنهم انتشروا في عدة محطات تبعا للتوسع الوريني . كانت مهمتهم الأساسية هي التأطير الديني والثقافي والسياسي لقبائل آيت وراين ، وقد لعبوا دورا مهما كوسيط وكحكم بين القبائل . ونظرا لكونهم لم يشاركوا في حروب آيت وراين ، فإننا نجد اليوم مجالاتهم محدودة الاتساع . وقد استفادوا طويلا من الهدايا التي كانت تقدم للزاوية سواء على شكل أراضي أو رؤوس الماشية .

ـ **آيت وراين أو " المحاربون الرعاة** ": كانت مهمتهم الأساسية خلال أزيد من قرنين هي الحرب والدفاع عن الأراضي المسيطر عليها ، إلى جانب حراسة القطعان ومرافقتها خلال التنقلات الفصلية .

ـ بقايا القبائل الأصلية : لقد فقدت العناصر الأصلية كثيرا من أراضيها لفائدة الوافدين الجدد ، مما جعل مجالاتهم محدودة الاتساع ، غير أنهم حافظوا على لغتهم العربية وسط قبائل بربرية (بني سيدال ، بني مكود ، وبني زهنة) كما استمر جزء منهم في ممارسة الزراعة ـ البورية والمسقية ـ بينما اندمج الجزء الآخر مع قبائل آيت وراين ، عن طريق الصلح أو التحالف والزواج ، فتحولوا إلى رعاة ومحاربين يساهمون بدورهم في تحقيق المشروع التوسعي لآيت وراين .

غير أن هذا التوزيع لم يكن قارا ولا دائما . فبحكم التوسع المستمر وإدماج العناصر الجديدة ، وبفعل توفر المجال الصالح للرعي ، فقد بدأت عملية الانصهار بين مكونات المجتمع الجديد تسير بسرعة ، مما أعطى للبنية الاجتماعية طابعا ديناميكيا خاصا. وهكذا نجد بأن الشرفاء قد تعاطوا للرعي ، خاصة مع تزايد حجم رؤوس الماشية المهداة للزاوية

كما أن جزءا من آيت وراين أخذ يستقر في المناطق الجبلية ويتعاطى للزراعة . وأخيرا فإن جزءا من السكان الأصليين الذين كانوا مزارعين مستقرين ، قد تحولوا إلى رعاة يساهمون في الحركات الفصلية للقبائل والقطعان . إن هذه الحركية المستمرة للبنية الاجتماعية تشكل في اعتقادنا اختلافا جوهريا آخرا مع نموذج تافيلالت السابق الذكر.

ج ـ علاقات اجتماعية محكومة بالظرفية السياسية والاقتصادية: إن طبيعة النشاط الإنتاجي السائد (الرعي) وأهمية المشروع السياسي المبني على استراتيجية الصراع الدائم من أجل الحصول على أراضي جديدة وتوفير شروط القدرة على الدفاع عنها ، كلها عوامل فرضت وتحكمت في نوع العلاقات الاجتماعية السائدة لدى قبائل آيت وراين . فهناك من جهة ، تلاحم كبير بين أعضاء القبيلة الواحدة ، تعبر عنه علاقات التعاون والتكافل التي تربطهم في مواجهة القبائل الأخرى . ومن جهة ثانية هناك تكتل بين مختلف القبائل المكونة للحلف الوريني لمواجهة الأحلاف الأخرى.

أما على مستوى وحدات الإنتاج الأساسية التي تكونها العائلات الموسعة ، فإنها تخضع لعلاقات اجتماعية عمودية تتميز بهيمنة الأب على مستوى اتخاذ القرار وتوجيه الإنتاج وتوزيع العمل بين أفراد العائلة. ومن هنا تبرز أهمية الشيوخ ـ أي الكبار سنا ـ على المستوى التنظيمي للقبيلة : فالجماعة كإطار تمثيلي وتوجيهي يقبل عضوية كل الراشدين المنتمين إلى القبيلة (سواء كانوا من أصل ورايني أو من المدمجين)(13) غير أن القرارات والفوز بمنصب "الأمغار" تبقى حكرا على كبار السن الذين غالبا ما ينتمون لعائلات كثيرة العدد من حيث الرجال القادرين على حمل السلاح والمتوفرين على قطعان كبيرة .

إن هذا الشكل التنظيمي يرتبط ارتباطا وثيقا بأهمية عنصر قوة العمل وبالتالي عنصر الرجال القادرين على حراسة القطعان والدفاع عنها . إذ أن هذا العنصر هو الذي يشكل أساس التمايز الاجتماعي سواء بين وحدات الإنتاج العائلية أو بين القبائل . وهكذا فإن العائلات التي لها عدد كبير من الأبناء تستطيع أن تربي عددا مهما من رؤوس الماشية وتنتفع أكثر من المجال الجماعي ، وتكون لها كلمة مسموعة على مستوى الجماعة . كما أن القبائل الكثيرة الرجال تستطيع أن توسع مجالها بصفة مستمرة وتكون لها قطعان أكبر، وتظهر هذه المسألة بوضوح من خلال الخريطة القبلية لآيت وراين التي تتميز بفوارق كبرى في المجالات التي تسيطر عليها كل قبيلة .

من هنا يمكن القول بأن أهمية عنصر قوة العمل ـ أي عنصر " المحاربون الرعاة" ـ هو الذي يفسر لنا نوعية العلاقات الاجتماعية السائدة لدى آيت وراين ، كما أنه يوضح كذلك استراتيجية إدماج القبائل الأصلية وبعض العناصر "البرانية" داخل حلف آيت وراين وذلك بهدف تجميع أكبر عدد من الرجال لتحقيق المشروع التوسعي . وهكذا فإن جنود القبيلة هم في نفس الوقت أبناؤها الشرعيين أو الملحقين ، يعملون بصفة دائمة لرعاية القطعان وحراسة أراضي القبيلة ، وفي نفس الوقت هم جنودها المدافعين على مجالها والعاملين على توسيعه باستمرار.

III - مرحلة الاستعمار وتحويل جندي القبيلة إلى جندي الدولة.

قد يبدو من تحصيل الحاصل أن نذكر هنا بالصدمة التي أحدثها التدخل الاستعماري فيما يتعلق بخلخلة البنيات الاجتماعية والاقتصادية للمغرب . وإذا كان المقام لايسمح بسرد كل أشكال التغلغل ، ولا كل تقنيات التحويل التي مارسها المعمر على المستوى الوطني والجهوي ، فإننا نعتقد أنه من الضروري أن نبدي ملاحظة منهجية أساسية وهي أنه بقدر ما عملت الإدارة الاستعمارية على استغلال الثروات الطبيعية للمغرب (أراضي - مناجم - غابات ...) بقدر ما عملت على تحويل جزء مهم من الساكنة إلى قوة عاملة تخدم مصالحها الاقتصادية (اليد العاملة) والعسكرية (تجنيد المغاربة في قواتها).

وهكذا ، وبحكم طبيعة التطور التاريخي الذي عرفته قبائل آيت وراين كقبيلة توسعية بامتياز ، ونظرا لكون الرحالة الأوربيين الذين زاروا منطقة تازة - فاس في نهاية القرن التاسع عشر قد أبرزوا دائما طبيعة هذه القبائل (14) ، وبحكم أن مصلحة الاستعلامات الاستعمارية كانت على بينة من الطبيعة الحربية التي تميزها حتى قبل معاهدة1912، فإن السياسة الاستعمارية ستعمل على استغلال هذه الطبيعة الحربية لدى آيت وراين، وستعمل على تجنيدهم باستمرار في صفوف قواتها. إن هذا الشكل من الاستغلال الاستعماري قليلا مايتم التأكيد عليه بالمقارنة مع الأهمية المعطاة للاستغلال الاقتصادي للخيرات الطبيعية ولقوة العمل المغربية .

كما أن حدة المقاومة التي أبدتها قبائل آيت وراين إزاء الغزو الأجنبي ، وطول المرحلة التي استغرقتها المواجهة المسلحة [1912-1927] والتي جعلت من السيطرة على "بقعة تازة" هاجسا دائما لدى الإقامة العامة لسنوات طويلة ، كلها عوامل ستؤدي إلى زيادة انتباه الإدارة الاستعمارية ومنظريها إلى أهمية الطابع الحربي الذي تمتاز به قبائل المنطقة . لذا فقد عملت مبكرا على استغلال هذا المعطى وتحويله لخدمتها . فعملت باستمرار على تجنيد أبناء قبائل آيت وراين في صفوف جنودها ، وذلك بهدف تحقيق غرضين متكاملين :"تهدئة" القبائل الأخرى في المغرب ، والمساهمة مع الجيوش الفرنسية في حروبها الاستعمارية - الحروب العالمية الأولى والثانية ، وحروب الهند الصينة .

إن المسار التاريخي الذي عرفته قبائل آيت وراين إبان المرحلة الاستعمارية ، سوف يؤدي بالموازاة مع فقدان مساحات مهمة من أراضي الأزغار - هضبة تاهلة - مطماطة - لفائدة الاستيطان الزراعي (15) إلى تحويل مجموعة كبيرة من أبناء هذه القبائل من جنود للقبيلة إلى مدافعين عن مشروع أكبر هو مشروع الدولة الاستعمارية .

وإذا كان الحديث قد يطول بنا لإبراز الوسائل والاستراتيجيات التي تم بها مسلسل تحويل جندي القبيلة إلى جندي تابع للدولة فإننا نعتقد أنه من الضروري أن نؤكد على أهم النتائج المترتبة عن هذا المسار التاريخي.

فقد أدت السيطرة الاستعمارية وعمليات التجنيد المستمرة لأبناء قبائل آيت وراين إلى نتائج مباشرة على حياة هذه الأخيرة . وهكذا سوف تتحول أغلبية السكان من الترحال إلى الاستقرار ، وبالتالي سوف يتراجع النشاط الرعوي لفائدة انتشار الزراعة . كما أن

الارتباط بالدولة كمشغل ـ توفير رواتب قارة ـ سوف يؤدي إلى تراجع النشاط الإنتاجي ، وتقلص نظام الاكتفاء الذاتي ، وبالتالي الإندماج المتزايد في منظومة السوق.

ومن جهة أخرى ، فإن استمرارية مسلسل التجنيد ، وضعف تدخل الدولة في ميدان التجهيزات السوسيواقتصادية سوف يؤدي إلى تفاقم الأزمة التي تعرفها المنطقة والتي من أهم تجلياتها : الإفراغ البشري من جراء تجنيد الشباب وهجرة ذويهم لاحقا ، والتقهقر الإيكولوجي الذي يعرفه الوسط الطبيعي ، مما يؤثر سلبيا على الإنتاج الفلاحي .

خاتمة :

يتخذ موضوع التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية للمغرب أهمية خاصة لدى الباحثين في العلوم الإنسانية، نظرا لكونه يساعد على فهم وتفكيك طبيعة ونوعية التطور الذي يعيشه المجتمع المغربي. لذا نعتقد أنه من اللازم أن نحرص على بعض التوابث المنهجية التي تساعد على فهم أشمل للموضوع ومنها :

ـ ضرورة الوعي بأهمية التحولات التي عرفتها نهاية القرن 19 .

ـ أهمية الأخذ بعين الاعتبار الأوضاع المحلية والجهوية المتنوعة في كل محاولة للتفسير

ـ البحث عن مدى الاستمرارية أو القطيعة الحاصلة في منظومة البنيات الاجتماعية والاقتصادية الراهنة بهدف تحديدطبيعة ومسار التحولات التي يعرفها المجتمع المغربي.

الهوامش :

1) ـ مثال ذلك: - BEN ALI . D : Le Maroc précapitaliste. Ed SMER - Rabat - 1983.

2) ـ أنظر على سبيل المثال :

- Montagne . R: les berbères et le Makhzen dans le Sud marocain Paris 1930.
- Pascon . P: le Haouz de Marrekech. Rabat 1977.

3) ـ نشير هنا إلى أن " مدرسة الحوليات " في فرنسا قد ارتكزت أساسا على توفر رصيد هام جدا من الوثائق والأرشيفات المحلية . أنظر : -BRAUDEL. F. : Ecrits Sur l'histoire. Flammarion . Paris 1969.

4) ـ راجع مثلا : ـ الناصري : الاستقصا. ج : 7 ـ البيضاء 1956.

-Voinot. Cdt : Taza et les Ghiata. Bulletin de la sociètè de géographie et

d'archéologie d'Oran. Septembre 1920.

5) - COLIN. G.D: Origine arabe des grands mouvements de population bèrbère dans le moyen-Atlas. Hesperis.TXXV 1939.

6) - محمد بن الحسن الوزان : وصف افريقيا - ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر . الرباط 1980 - الجزء الأول - ص 278.

7) - للتوسع أكثر حول تاريخ آيت وراين يمكن الرجوع لدراستنا :

- IDIL. a. :l'évolution des structures sociales et spatiales dasn le Moyen Atlas du Nord-est. Thèse de 3e cycle. Ronéo - Toulouse 1983.

8) - أنظر في هذا الشأن :

- عبد الرحمان المودن : البوادي المغربية قبل الاستعمار . منشورات كلية الأداب - الرباط - 1995، ص :195.

9) - Les tribus à l'est de Fès. in Renseignements coloniaux. n° 6 et 7.B.C.A.F. 1912.

10) - أنظر مداخلتنا تحت عنوان : المواجهة المسلحة للاستعمار في الأطلس المتوسط الشمالي - أشغال النـدوة المنظمـة مـن طـرف المندوبية السامية للمقاومة حول موضوع : المقاومة في المنطقة الوسطى الشمالية - فاس - 1995.

11) - أنظر : عبد الرحمان المودن : مرجع سابق . ص : 198.

12) - راجع في هذا الشأن :

- DAOUD.m : les prossusses de l'évolution socio-spatiale dans la moyenne vallée de Ziz. Thèse de 3e cycle- géographie. Toulouse 1984.

13) - وهذا اختلاف آخر مع نموذج تافيلالت السابق الذكر .

14) - راجع

- EL MOUDEN . A : Exploration et pénétration : un siècle « d'itinéraires » dans le couloir de Fès - Taza- Hespéris Tamuda. volume XXII- 1984. p p : 103 - 118.

15) - أنظر :

- FADLOU ALLAH . A. : Le plateau de Tahala-Matmata. Thèse de 3e cycle Géographie. Paris 1974. Tome 1.